رواية

2020
31.12.2019

ماري شيلي

ترجمة: عبدالعزيز عواد العنزي
مراجعة: وليد الشايجي

الإنسان الأخير

الطاعون

Mary W. Shelley
The Last Man

الإنسان الأخير
(الطاعون)

ماري شيلي

رواية

ترجمة
عبدالعزيز عواد العنزي

مراجعة
وليد الشايجي

2019

الإنسان الأخير (الطاعون)

ماري شيلي

الإنسان الأخير (الطاعون) / رواية
ماري شيلي

ترجمة: عبدالعزيز عواد العنزي
مراجعة: وليد الشايجي

الإخراج الفني: ستوديو سيماء

الطبعة الأولى- سبتمبر 2019
978 - 9921 - 712 - 20 - 9 : ISBN
رقم الإيداع بالمكتبة الوطنية- دولة الكويت:
2019/1109

Novel by: Mary Shelley
The Last Man

First published in 1826 by Henry Colburn
Translated from English by Abdulaziz Awad El-Enezi
Revised by: Waleed Alshaiji

حقوق هذه الترجمة ونشرها والاقتباس باللغة العربية محفوظة للناشر

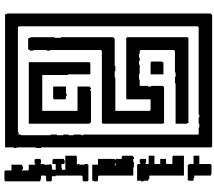

هاتف: 51088000 965+ / 99462219 965+
البريد الإلكتروني: info@daralkhan.com
تويتر: @DarAlKhan_kw
انستغرام: daralkhan_kw

© Alkhan Publishing & Distribution
يمنع نسخ أو استعمال أي جزء من هذا الكتاب بأي وسيلة تصويرية أو إلكترونية أو ميكانيكية بما فيه التسجيل الفوتوغرافي والتسجيل على أشرطة أو أقراص مدمجة أو أي وسيلة نشر أخرى بما فيها حفظ المعلومات واسترجاعها من دون إذن خطي من الناشر.
إن الآراء الواردة في الكتاب لا تعبر بالضرورة عن رأي الناشر.

المجلد الثاني

الفصلُ الأوّل

تبيّنَ لي في رحلتنا هذه، أثناء حديثنا على ظهر السفينة، أو تقليبنا وجوهنا بين البحر والسماء، تبيّن لي مدى تأثير أخبار ريموند في أختي. أكانت مياه الحبِّ نفسها، التي كانت جامدةً فيها من قبل، وحادّةً كالجليد القاطع، تلك التي تتراقصُ طربًا الآن، بعدما تحرّرت من ربقةِ الجَفَاء، ساريةً في روحِها، بسرور فيّاض؟ لمْ تصدق خبرَ موتِه، ولكن كانت على يقين بأنّه في خطر. أُرخيَ الحبل الذي صر حبّها، بأملها على أن تساعدَ في خلاصه، وأن تسكّن آلامَه التي قاسى، بحنانها. لم أكن متفائلًا مثلها بنتيجة رحلتنا هذه. كانت تشعرُ بالأمان، إن رمتَ الدقّة، لا التفاؤل؛ فلفَّت البهجةُ أحاسيسَها، والسكينة عقلَها، لدنوّ لقائها من حبيبها الذي نفت، وزوجها، وشقيق روحها الذي طال اغترابُه عنها. كانت بداية حياة جديدة؛ ورحيلًا من سكنى الرمال المجدبة، إلى خصب الحُبّ؛ ميناء بعد عاصفة هوجاءَ، نومًا بعد ليالٍ من الأرق، واستيقاظًا من كابوس، إلى واقع سعيد.

صحبتنا كلارا الصغيرة في سفرنا؛ ولم تفهم تلك الطفلة ما كان يدورُ حولها. سمعت أنّنا مسافرون إلى اليونان، وأنّها سترى

والدَها هناك، والآن، ولأول مرة، صارت تثرثرُ عنه أمام والدتها.

زادت مشقّتنا، حين نزلنا في أثينا؛ ولم يفلح اعتدال الجوّ، ولا ارتفاع الأرض في رفع هِممنا أو إبهاجنا، ما دام ريموند في خطر. ولم يسبق لرجلٍ أن شغل العامّة مثلَه من قبلُ؛ إذ كانت سيرتُه حديثَ حتّى اللا مباليين من الإنجليز، الّذين طال غيابُه عنهم. ترقبَّ الأثينيون عودةَ بطلِهم في أيّ لحظة، مزهوًّا بالنصر؛ وعلّمت النساءُ صغارَهنّ ألّا يذكروا اسمَه إلّا مقرونًا بالشكر؛ وخيّلت لهم وسامتُه، وشجاعتُه، وإخلاصُه لغايتهم، أنّه من آلهة جبل الأوليمب، الذي هبّ للدفاع عنهم. وحين يذكرون احتمال موته، أو أَسْرِه المؤكّد، يسيلُ الدمعُ من مآقيهم؛ وكما بكتِ النساءُ في سورية أدونيس، بكت نساءُ اليونان، وندبن ريموند الإنجليزيَّ. وصارت أثينا مدينةَ عزاءٍ.

ضرب الذعر برديتا لمّا رأت مظاهر الحُزن تلك. إذ خَيّل لها تفاؤلُها، الذي ولدته أمانيها، حين غابت بعيدًا عن الواقع، أنّ الشقاءَ سيزولُ عنها ما إن تحطّ قدمَها على شواطئ اليونان؛ إلا أنّ الاضطرابَ كان ما وجدت. وخيّل لها أنّ ريموند طليقَ السراح، وأنّها ما إن تبلغه، فستغمرُه بحبّها، لينسى عذابَ السجن. إلا أنَّ مصيرَه لم يزل مجهولًا؛ فبدأ الخوفُ يأكلُها، وخشيت أنّ مصيبةً

قد حلّت به، ولم تجد روحها الآملةِ إلا الخواءَ.

صارت زوجةُ ريموند، وابنته الجميلة، محطَّ اهتمامٍ شديدٍ في أثينا. فأحاط الناسُ بمسكنِهم، مصلّين بصوتٍ مسموعٍ لسلامته؛ ممّا زاد كآبة برديتا.

أمّا أنا، فسلكتُ دربًا شاقًّا؛ إذ تركتُ أثينا، والتحقت بالجيش المعسكر في تراقيا. وعن طريق الرِّشوة، والتهديد، والاستجوابات، تبيّن أنَّ ريموند لا يزال على قيد الحياة، وأنّه في سجنٍ شديدِ الحراسة، وموضع عذابٍ لا يُطاق. فسعَينَا بكلّ السبل، سياسيةً كانت أو عن طريق المال، إلى تخليصِه من أيديهم.

فزّ في أختي من جديد، طبعُها المتململُ؛ إذ أيقظه الأسفُ وأحدّه الندم. وزاد جمال المناخ اليوناني عذاب أحاسيسها. جمال الأرض المكتسية بالزهور، وشعاع الشمس الأنيس، والظلال المحبّبة، وغناء الطيور، وبهاء الأشجار، وعظمة الآثار الرخامية، وتزاحم النجوم في السماء الصافية ليلًا، اجتمعَت كلُّها في هذه الأرض السامية، فأرهفَت حواسَّها، وألبست حُزنَها نصلًا شاطرًا. وكانت تحسب الساعات الطوال، متفكّرةً في عذابه، فتُثقِلُ تلك الأفكار روحَها. امتنعت عن الطعام، ونامت على الأرض العارية،

ابتغاءَ مقاسمته عذابه البعيد. وأذكرُها في إحدى أمرِّ حالاتها، حين هاجها ما قلتُ لها، مثيرًا غضبَها واحتقارَها. إذ قلتُ، "برديتا، يومًا ما سيتبيّنُ لك فداحةَ خطئِك؛ بطرحك ريموند فوق أشواك الحياة. حين تذوي الخيبةُ وسامتَه، ويحني شظفُ العسكرية قامتَه، وتحيل الوَحدة طعم كلّ نصرٍ إلى المرار، حينها ستأسفين؛ وتندمين على ما حاق به من دمارٍ لا إصلاحَ له ويسجى ندم الحبّ الطريح، فوق قلبٍ من صخر.

اخترق قلبَها وخزُ "ندم الحبّ". واتهمَت نفسَها بأنّها سببُ سفرِه إلى اليونان، وما تعرّض له من أخطار، وسجنه الآن. وصوّرت لنفسها ما يقاسي من عذاب في وَحدتِه؛ واستذكَرَت كيفَ بهجته لما كان يشركها أفراحَه، وآمالَه، من قبلُ، واحتواءه حبَّها. وتذكّرت قولَه الدائمَ بأنَّ الوَحدةَ أعظمُ الشرورِ بالنسبة له، وأنّ جزعه من الموت يكبر ما إن يتصوّر وَحدتَه في القبر. وكان يقول، "إلّا أنّ حبيبتي تريحُني من تلك الخيالات. فمعها، وفي قلبها العزيز، لن أعرفَ بؤسَ الوَحدة أبدًا مجدّدًا. وإن متُّ قبلَكِ، يا برديتا، ضمّي رمادي حتّى يمزجَ رمادَك. قد تكون فكرةً غبيةً، لبعضهم، ولكنّي أعتقد أنّ بعضي متى امتزجَ ببعضِك، فسيؤنس روحي، حتى في موتها". ومع مزاجها الساخط، كانت تلك الذكرياتُ والأفكارُ

تهجمُ عليها باحتقارٍ لاذعٍ لنفسها؛ فكانت تحرمها المنام، وراحة البال.

وهكذا، مرَّ شهران، إلى أن وعدنا بإطلاق سراح ريموند. أوهن السجنُ صحّتَه بصورة بالغة، وخوفًا من أن تنفّذَ إنجلترا تهديدَها بدخول الحرب، إذا ما مات ريموند بين يدي الترك، أسلموه إلينا، وهم يائسون من شفائه، موكلون إلينا مهمَّة دفنِه.

عاد إلى أثينا عن طريق البحر، قادمًا من القسطنطينية. وكانت الرياحُ عاصفةً، حتّى إنّنا لم نستطع أن نقابلَه في البحر، ونصحبه إلى الشاطئ. وكانت أبراج المراقبة تتطلّع بلهفةٍ لوصول أيّ سفينة، كما أوعز إليها؛ إلى أن ظهرت فرقاطة كبيرة، في الأول من مايو، تحمل على ظهرها كَنزًا أثمنَ ممّا ابتلع المحيط الهادي في غيظِه من ذهبِ المكسيك، أو ما نقل فوقَه في صفوه، إلى التاج الإسبانيّ. أبصرتُ الفرقاطة فجرًا بالقرب من الشاطئ، وخمّنت أنّها ستلقي مرساتَها على بعد خمسة أميالٍ عنه، في البحر. انتشر الخبر سريعًا في أثينا، وتدفّقت المدينةُ كلُّها في الشوارع، ومزارع الزيتون، وكروم العنب، ومزارع التين، قاصدين الميناء. وزاد المشهد إثارةً، صخبُ الجموع، وبهرجةُ ألوان أزيائهم، وجلبةُ العربات والخيول، وسيرُ الجنود، وخفقُ البنودِ على أنغام الموسيقى

العسكرية؛ بينما لفتنا بجلال مهيب، آثارُ الزمن القديم. على يميننا وقف الأكروبوليس شامخًا، شاهدًا على آلاف التقلّبات، على أيّام المجد، وعلى العبودية للترك، وعلى استرداد الحرية ذاتِ الثمنِ الباهظ؛ وانتشرت بكثافة في الأرجاء شواهدُ القبور الجوفاء، مزيّنةٌ بكلّ جميلٍ من الزهور، وحلّقت أرواحُ الموتى فوقَ شواهد قبورها؛ لتشهدَ احتشادَ جموعِنا. ركبت برديتا وكلارا في عربة مغلقة، وحففتهما من على ظهر حصاني. بلغنا الميناءَ أخيرًا؛ كان مكتظًّا بالناس؛ وغطّتِ الجموعُ المتدافعةُ الشاطئَ، على مدّ البصر، فمن الخلف دفعَت الحشودُ مَن في الأمام تجاه البحر، وردّ هديرُ الأمواج هؤلاءِ على أعاقبهم، فصاروا يدفعون إلى الخلف. نظرت بمنظاري، فرأيتُ السفينة قد ألقت مرساتَها بعيدًا، مخافةَ الاقترابِ من الشاطئ العاصف. فأنزلوا قاربًا، ولعدم قدرة ريموند على الحركة، ثبت على كرسيّ، ولُفّ بعباءة، وأُدليَ إلى القارب في الأسفل.

ترجّلتُ عن حِصاني، وناديتُ بعضَ البحّارة، الّذين كانوا يجدّفون بالقرب من الميناء؛ ليقتربوا حتّى أصعدَ معهم في مركبِهم الصغير. ترجّلت برديتا في اللحظةِ نفسِها، وأمسكت بذراعي، صاحت، "خذني معك"؛ كانت شاحبةً ومرتعشةً؛ وتعلّقت بها

كلارا. قلتُ لها، "ينبغي ألّا تركبي، البحرُ هائجٌ، وسيكونُ هنا قريبًا، ألستِ ترينَ قاربَه؟" توقّف القارب الذي دعوت بقربنا، وقبل أن أتمكّنَ من إيقافها، كانت برديتا قد صعدته، بمساعدة أحد البحَّارة، وتبعت كلارا والدتَها. انطلقت صيحةٌ عاليةٌ من الجموع حين اندفعَ قاربُنا خارجًا من الميناء؛ ووقفت برديتا على القيدوم، حيث لمحت أحدَ البحّارة يستخدم منظارًا، لتسألَه ألفَ سؤالٍ، غيرَ آبهةٍ بالرذاذ المتطاير نحوها، وصارفة سمعَها وبصرَها عن كلّ شيء، عدا تلك البقعة الصغيرة فوق الماء، الدانية منها بتمهُّل. أبحرنا بأقصى سرعة يستطيعها ستُّ مجدِّفون. منظر قيافة الجند المنتظمين على الشاطئ، وصوت الموسيقى المتهلّلة، والنسائم العليلة، والرايات الخفّاقة، وحماسة الجمهور المتوقّدة، بأزيائهم الشرقية؛ ثم منظر المعبد المتوّج للجبل، وتلألؤ رخام المباني تحت الشمس، وألقها تحت ضلع الجبل القاتم، طبطبة المجاديف، ورشيش رذاذها، كلُّ ذلك أنشى روحي حتّى الهذيان، نشوة لا يدركُها مَن عاش حياةً عاديّةً. ولارتعاش يدي لم أقوَ على متابعة النظر بمِنظاري، الذي نظرت من خلاله إلى طاقم الفرقاطة وهم يهيّئون قاربَهم للانطلاق. اقتربنا من قاربهم، إلى أن صرنا نميّز عددَ مَن فيه؛ واستمرَّ تقاربُنا حتّى سمعنا طبطبة مجاديفهم. حينها عرفتُ هيئةَ صاحبي الواهنة، وهو يحاولُ الوقوفَ لنا حينَ اقتربنا.

انقطعت أسئلة برديتا؛ وانثنت على ذراعي، وخفق قلبُها بمشاعرَ أكبرَ من الدمع. ألصق البحّارة القاربَين. وفي جهد أخير، استجمعَت أختي قوَّتَها ورباطةَ جأشها؛ وما إن نزلت القارب الآخر حتى قفزت صارخةً تجاه ريموند، وجلسَت بجانبه ملصقةً شفتَيها بيدَيه اللتين احتضنت، وغطّى شعرُها الطويلُ وجهَها، واستسلمَت للبكاء.

حاول ريموند القيام لنا حين وصلناه، ولكن ذلك القيام كان شديدَ الإجهاد له. عيونٌ وخدودٌ غائرةٌ، ولونٌ شاحبٌ، وجسدٌ هزيلٌ، أين ريموند، حبيب برديتا من هذا الذي أرى؟ واستمرّ ذهولي وصمتي، إلى أن نظر إلى الفتاة المسكينة، وابتسم، فكانت ابتسامته هي. كيومٍ مشمسٍ أشرقَ على وادي مظلم، فأظهر ما أخفي فيه من جمال؛ كذلك كانت ابتسامته ذاتها التي ارتسمت على وجهه حين حدّث برديتا بحبّه أولَ مرّة، وحينَ فاز بالرئاسة، وحينَ بدَت على وجهه المتغيّر، عرفت في أعماق قلبي، أنّه هو ريموند.

مدّ يده الأخرى لي، فبدا لي أثرُ الأغلال على معصمِه. سمعتُ شهقاتِ أختي، وقلت لنفسي، يا لَحظّ النساء! يستطعن البكاء، فيرتحن من نهك المشاعر؛ أمّا الرجال، فيمنعهم العارُ والعُرف.

ولو تمكّنت لدفعت نصف عمري مقابل أن أعود طفلًا، لأضمَّه إلى صدري، وأقبل يديه، وأسبل دمعي على كفّيه؛ ولكن، تدافعت المشاعر، ولم أستطع لها كبحًا، فثارتِ الدموعُ في عيني؛ أشحتُ بوجهي فانسكبَت دموعي في البحر، وزاد انهمارُها؛ وبالكاد خالطني الخجلُ، لمّا رأيت أعين البحّارة الشِّداد تفيضُ بالدمع. ولم تكن عينٌ على ذلك المركب، إلا دمعت، ما عدا عينَ ريموند. جلس محفوفًا بهالةٍ من السكينة مصاحبةٍ للنقاهة دائمًا، مستمتعًا بهدوء حرّيته، والتئام شمله مع من أحبّ. تغلّبت برديتا أخيرًا على فورة مشاعرِها، وقامت تبحثُ عن كلارا. إلّا أنّ الصغيرةَ خافت من منظر والدِها الذي لم تعرفه، ففرت إلى نهاية القارب، حين غفلنا عنها؛ ثم جاءت حين سمعت نداء والدتها. فقدّمتها برديتا إلى ريموند، وقالت: "عانق طفلتَنا يا حبيبي". قال والدها، "اقتربي يا حُلوتي، ألستِ تعرفينَني؟" عرفَت صوت والدها، وارتمَت بين ذراعَيه، بخجلٍ، ولكن، بغير كتمانٍ لمشاعرِها.

راعَني ما رأيتُ من ضعفِ ريموند، وخشيتُ عليه من ازدحام الجموعِ عند الشاطئ. إلّا أنّ حالَه هالَهم كما هالني، لمّا رأَوه. فماتت الموسيقى سريعًا، وانقطعتِ الهُتافات؛ وأفسحَ الجنودُ الطريقَ للعربة التي جرَت إلى مكان نزولِه. أدخل إلى العربة،

وركبت برديتا وكلارا معه، وتحلّق مرافقوه حولَها؛ وسرت همهماتٌ عاليةٌ بين الحشد، شبيهةٌ بصوت الجموع القريب منهم؛ وتراجعوا من أمام العربة حين تحرّكت على الطريق. ومخافة من أن يجرحَه صمتُهم، بعد أن توافدوا لتحيّته بكلّ ألوان البهجة، حيّاه كلّ من مرَّت العربة بجانبه بسلام وانحناءة.

مضت العربة ببطءٍ خارجةً من الميناء، متخطّيةً المعبدَ الأثريَّ، وقبورَ الأبطال، أسفل جرفِ الحِصن. خفّ صوتُ الأمواج مع ابتعاد العربة عنه؛ ولكنَّ صوتَ الحشود استمرَّ، أجشَّ غيرَ منقطع. ومع أنّ المدينة، والمنازل والكنائس، والمباني العامة، كانت قد تزيّنت بالنُّجُود والأعلام، والجنودُ قد اصطفّوا في الشوارع، وخرج السكّان بالآلاف لتحيّته، إلا أنّ الصمت الجليل غلب على الجميع. وأشهرَ الجندُ أسلحتَهم، ونكّست الأعلام، ولوّحت الأيادي بالأشرطة، وعبثًا حاول الناسُ رؤية بطلِهم في العربة، التي أحاط بها حرسُ المدينة من كلّ جانب، مقتربين به من القصر الذي خُصّصَ سكنًا له.

كان ريموند منهكًا وضعيفًا، إلا أنّ الاهتمام الذي لقيه ملأه بفخرٍ ممتع، وكاد لطفهم أن يودي به. فصحيحٌ أنّ الحشود كبحت نفسَها؛ إلا أنّ ذلك لم يكن حال الملازمين والمحلّقين حول

القصر، فقد كان هديرهم، وصوت الألعاب النارية، وأصواتُ المدافع والبنادق المتكرّرة، وأصواتُ حوافر الخيل والعربات التي لم تنقطع، مهيّجًا لذهنه، ممّا أبطأ شفاءه. لذا، انتقلنا للسكن في ألفسينا، حيث أثمرت الراحة والعناية تحسُّنًا باديًا، كلَّ يوم، على صحة عليلنا. كان اهتمام برديتا البالغ أول أسباب تحسُّنه السريع وأهمَّها؛ ويعقب ذلك، ما أبهجه من كرم اليونانيين معه. وكما أنّ النفس جُبلت على حُبّ ما أحسن إليها، فالنفسُ تحبُّ أيضًا من نَحِنُّ إليه. فقد قاتل ريموند وغزا في سبيل الأثينيين؛ وتعرّض للمخاطر، والصعاب من أجلهم؛ وكان لتقديرهم الذي رأى أبلغ الأثر فيه، فأقسم لنفسه ألّا يتركَ هؤلاء القوم الّذين أخلصوا له.

كان حبُّ مخالطة الناس ومشاركتهم سمةً أساسيةً في شخصيّتي. وفي صباي، جرَّتني الأحداث الدائرة حولي إلى وسط دوامتِها. غير أنّني أدركتُ تغيُّرًا في نفسي الآن. لم أزل أحبُّ، وآملُ، وأستمتع؛ ولكنَّ أمرًا آخرَ أضيف إلى ذلك. بتُّ سؤولًا عن الدوافع التي تحرّكُ الناسَ حولي؛ وتطلّعتُ بشغفٍ لمعرفتها بدقّة، وانشغلتُ طَوال الوقت بالغوص في أعماقهم. وما جرى من أحداث، أعانني على تصنيفهم، كلّ بحسب ما يحرّكه. فأنزلتُ كلًّا منهم في الخانة التي تناسبه. وكان هذا الشعور الخفيّ، مهدّئي كثيرًا

في اضطرابي، بل إنّه مسكّنٌ لآلامي. وأضفى ذلك الشعور قبولًا على الحقائق التي تنفرُ النفس منها: فاصطبغت البلايا والطواعينُ بلونٍ جميل، وفي غير قليل من المناسبات، أزاحت عنّي اليأسَ الذي تورثه الأحداث المؤسفة. نهضت في هذه الملَكَة، أو الغريزة، فراقبت انبعاثَ محبّة أختي من جديد، وإعجاب كلارا الشديد، المستتر بالخجل، بوالدها، وشهية ريموند للشهرة، وحرجه الشديد من كرم الأثينيين معه. ولمّا تتبّعتُ أحوال هؤلاء الناس بتيقُّظ، لم يفاجئني ما حصل من أحداث تالية.

كان الترك، في تلك الأثناء، يحاصرون تكيرداغ؛ وكان اليونانيون، منهمكين في استعداداتهم، وإرسال التعزيزات، وعلى شفير مواجهة عدوّهم في المعركة. نظر كلُّ فريقٍ إلى هذه المعركة كلقاءٍ حاسمٍ؛ ففي حال انتصار اليونانيين ستكون القسطنطينية هدفَهم التالي، فنهض ريموند، الذي كان قد تعافى إلى حدٍّ ما؛ ليباشرَ مهامَّ القيادة.

لم تقف برديتا في طريقه. إنما اشترطت، فقط، أن ترافقه. لم تُرِد شيئًا من حياتها، إلا مشاركته، راضيةً، بأيّ طريقٍ شاء. ولم يرعبها أيُّ شيءٍ من أمر المعركةِ التي كانوا مُقبلينَ عليها، فقد كانت تثقُ بأنّ مهارةَ ريموند ستنجيه من الخطر. ولكنّ رعبها كان من شيءٍ

آخرَ، ألا وهو الطاعون. أطلَّ عدوُّ البشرية هذا برأسه الأفعواني، في بداية يونيو، حول ضفاف النيل، وانتقل إلى أجزاء من أسيا، لم يسبق له الظهور فيها من قبلُ. وحلَّ في القسطنطينية؛ ولكن، لما كان ضيفًا عليها في كلّ عام، بزياراته الخفيفة، لم يعر الناسُ انتباهًا للأخبار التي أعلنت أنّ ضحايا هذا العام فاقوا ما كان يحصد كلّ عام. مع ذلك، لم يمنع طاعون أو حرب برديتا من مرافقة سيّدها، أو أن تلفظ كلمة اعتراض واحدة على خطّته. فقد كان أقصى ما تتمنَّى أن تكون بقربه، أن تشعر بحبّه لها، وأنّه لها. وكان غايتها في الحياة أن تسعدَه؛ وهي ذاتُ غايتِها سابقًا، مع اختلاف وحيد. ففي الماضي، أسعدَته بكون تفكير أو تكلف، فقط بتصرّفها على سجيّتها، وفي حال اتخاذ أيّ قرار، كانت تحسب حسابًا لنفسها ومشاعرها، كشيء مشترك بينهما. أمّا الآن، فقد ثابرت على طرح نفسِها خارجَ السؤال، مضحّيةً بنفسها في سبيل سعادته، وعزمَت ألّا تعارِضَ أيًّا من قراراته أو رغباته. أثار ريموند حبّه للشعب اليوناني، وشهيّته للمجد، ومقته للحكومة البربرية التي جعلته يقاسي أشدّ أنواع العذاب، حتّى كاد أن يموت في قبضتها. أراد أن يرد الجميل للأثينيين، وأن يحفظ لنفسه رداء المجد البهي المرتبط باسمه، وأن يخلّص أوربّا من دولةٍ، أبت التطوُّرَ مثل سائر الأمم، وظلّت هيكلًا للبربرية العتيقة. بعد أن جمع الشملُ ريموند وبرديتا،

أردت العودة إلى إنجلترا؛ ولكنّ رجاءَ ريموند الحارّ، فضلًا عن الفضول الذي اشتعل فيّ، ورغبة ملحّة بأن أشهدَ الفصل الأخير، قريب الحدوث، من الحرب الطويلة بين الترك واليونانيين، كلّ ذلك استحثّني أن أمدد فترة بقائي في اليونان إلى الخريف.

حالما سمحت صحّة ريموند، تأهّب للالتحاق بمعسكر الجيش اليوناني، الواقع شرقي نهر ماريتسا، بالقرب من إحدى البلدات، حيث ستبقى برديتا وكلارا إلى حين انتهاء المعركة المرتقبة. غادرنا أثينا في الثاني من يونيو. بعد أن ذهب عن ريموند هزالُه، وفارقَه شحوبُ المرض. وإن كنت لم أعد أرى ألَقَ الشباب في وجهه الذي كبر، وكان القلق مخيّمًا على وجهه، ومخندقًا فيه، وخالط الشيبُ شعرَه، وبات الحذرُ رفيقًا له حتّى في حماسه، محدّثا عمّا مرّ به من عذاب في السنين الفائتة. إلا أنَّ شيئًا كان لا يقاومُ في منظر من انتُشل من حِجر الموت، مجدّدًا حياته، بعد أن فشل المرض والكوارث في إخناعه. وتغيّرت نظرة الأثينيين له، فلم يعد ذلك الفتى البطل، أو الرجل اليائس، المستعدّ للموت من أجلهم؛ بل أصبح قائدًا حصيفًا، يقدّم مصلحتَهم على نزعة المحارب فيه، فيضع من الخطط ما يناسبُ ذلك.

رافقتنا كلّ أثينا، إلى بضعة أميال خارج المدينة. حين نزل أثينا

قبل شهر، أخرس الحزن والخوف فرح سكّانها؛ أمّا اليوم، فقد كان احتفالًا لا انقطاع له. فضجّ الفضاءُ بالصيحات، ومشَوا مشي الطواويس بألوانهم الساحرة تحت أشعّة الشمس؛ ووافق منظرهم المُشرِق، حماسَ أرواحِهم. كان ريموند حديث الجميع، ومعقل آمال الأمهات والزوجات والخطيبات، وكلّ من لها زوج أو ولد أو حبيب، في جيش اليونان، الذي سيقوده ريموند للنصر.

على الخطر الذي تنطوي عليه رحلتنا هذه، إلا أنّها كانت مفعمة بالشاعرية الطبيعية، فيما مررنا به من أودية، وتلال في هذه الأرض الساحرة. أُلهِم ريموند بما عاد إليه من إحساس بالصحة والعافية؛ وشعر بأنّ طموحه قد أرضي، بتبوئه منصب قيادة اليونانيين؛ وأنّ فتحه للقسطنطينية سيكون علامةَ انقضاء للتاريخ القديم، وحدثًا لا يدانيه حدثٌ في تاريخ البشر. أن تنقذ مدينة بمثل هذه القيمة التاريخية، والجمال الذي جعلها عجيبة من عجائب الدنيا، بعد أن كانت لمئات السنين في قبضة الأتراك. أن تنقذ من العبودية والبربرية، وتستردّ إلى أهلها الذين عُرِفوا بعبقريّتهم اللامعة، وحضارتهم، وروحهم الحرّة. لقد سعدت برديتا بما عاد إليها من صحبته وحبّه، ومشاركته لآماله ومجده؛ كسيباريسي على أريكته، لا يعرض له إلا النشوة، والأحاسيس المغموسة بعطر الجمال.

بلغنا معسكرَ الجيشِ في السابع من يونيو. كان الجوُّ رائقًا انطلاقًا من الرحلة. كنّا نبدأ سيرنا كلَّ يوم فجرًا، فنرى انحسارَ ظلّ الليل من الأودية والتلال، مع انتشار ضوء الشمس الأخّاذ. وسرت حيوية وطنية في الجند المرافقين لنا، مستلذّين بجمال الطبيعة، وقوبل كوكب الزهرة الساطع صباحًا، بأنوار مبتهجة، وغرّدت الطيور، مالئة الأرجاء بغنائها. وعند الظهر، كنّا ننصب خيامنا في أحد الأودية الظليلة، أو في عريش إحدى الغابات في الجبال، بينما ينشد جدول لنا بخريره، تهويدة نوم رائقة. أمّا مسيرنا المسائي، فعلى هدوئه، كان أبهج من مسير الصباح المحموم. فإن عزفت الفرقة، كان اختيارها لا إراديًّا، يقع على الأغاني ذات المزاج المعتدل؛ إمّا فراق حبّ، أو ندب غياب، ويتبع ذلك ترنيمة جليلة، تنسجم مع سكينة المساء اللطيفة، وتهذّب الروح وتهيّؤها للتفكّر في الدين أو غيره من الأمور السامية. كثيرًا ما تسكت الأصوات، فنصغي إلى تغريد العندليب، ناظرين إلى تراقُص الفراشات حول النار، بينما يبشّرنا صدى البوم اللطيف، بجوٍّ معتدلٍ للمسافرين. إن مررنا بوادٍ، أحاطتنا الظلال اللطيفة، وأمتعنا منظرُ صخوره المزيّنة بأروعِ الألوان. وإن طرقنا جبلًا، انبسطت تحتنا اليونان، خريطة حيّة، بأنهارها السارية في أرضها الغنّاء. ومع مشقّة التنفّس التي واجهناها، نحن المسافرون الإنجليز، أبهرتنا تلك المناظر

المختلفة عمّا عهدنا، من ألوان مقتصده، ومناظر الحزن الجميل، في أرضنا الأم. وحين فارقنا مقدونيا، لم تقدّم لنا سهول تراقيا الخصبة مثل ما سبق من جمال، ومع ذلك ظلّت رحلتنا ماتعة لنا. أبلغت طلائع مجموعتنا القرى التي قصدنا، بقرب وصولنا، فلم يتباطأ أهلها في إبداء ترحيبهم باللورد ريموند. وزُيّنت القرى بأقواس نصر خضراء بالنهار، منيرة بالليل، بأضواء المصابيح؛ وعلّقت الأنجاد على النوافذ، وبثّت الورود على الطرقات، وهتف باسم ريموند، مقرونًا باسم اليونان، في تحية الفلاحين.

حين بلغنا المعسكر، علمنا أنّ جيش الترك قد انسحب من تكيرداغ، حين علم بمقدم ريموند وجنودِه؛ ولكن، حين وصلتهم التعزيزاتُ، عادوا قاصدين المدينة من جديد. في تلك الأثناء، زحف أرغيروبيلو، قائدُ الجيش اليوناني العامّ، بقوّاته ليحول بين الترك وتكيرداغ؛ وشاع أنّ المعركة واقعة لا محالة. ظلّت برديتا وطفلتها في المعسكر، فسألني ريموند، إن كنت سأمضي معه والجند. فصحتُ، "أقسم بتلال كمبرلاند، وكلِّ مَن تبعني من لصٍّ ومشرّدٍ، أن أقفَ بجانبك، مستلًّا سيفي في سبيل اليونان، وأن أكلّل بالنصر معك".

امتلأتِ السهولُ من المعسكر إلى تكيرداغ بالجنود ولواحقهم،

كلٌّ في استعداد للمعركة القادمة. وتوافدت حاميّاتُ البلدات والحصون لتنخرط في الجيش الرئيس. قابلنا في طريقنا العديدَ من العربات المحمّلة بالأمتعة، والسيدات من مختلف الطبقات، عائداتٍ إلى المعسكر أو إلى البلدات القريبة، بانتظار نتيجة اليوم المرتقب. حين وصلنا إلى تكيرداغ، وجدنا الجيشَ منتشرًا في الميدان، وأنَّ الخططَ قد وضعت. وفي اليوم التالي، أنبأنا صوتُ إطلاق النار، بأنّ طلائع الجيشَين قد بدؤوا بالاشتباك. تقدّمت الكتائب تترى، تخفق راياتهم، وتعرف فرقهم موسيقى المسير. نصب المدفع فوق ربوة، كانت المرتفعَ الوحيدَ في تلك الأرض، واصطفَّ الجنودُ صفوفًا، ومربّعات فارغة الداخل، بينما اتّخذ المتقدّمون سواتر ترابية لحماية أنفسهم.

كانت تلك استعدادات المعركة، بل المعركة نفسها؛ ولم تكن قطّ كشيء تصوّرته من قبلُ. كنّا حين نقرأُ عن القلب والجناح في التاريخ اليوناني والرومي؛ فيخيّل لنا الميدان أرضًا منبسطة كالطاولة، والجنود عليها كأحجار الشطرنج؛ فيسهل حتّى على أجهل الناس قيادتهم. ولكن، حين أبصرت الحقيقة، ورأيت كتائب تنتشرُ في أقصى اليسار، حين لا يبلغها البصر، والعوائق تحجب الألوية بعضها عن بعض، ولم يكن حولي سوى قلّة من

الجنود، تخلّيت عن فكرة متابعة المعركة، وقرّرت أن ألتصق بريموند وأراقب تحرّكاتِه باهتمام بالغ. بدا رابطَ الجأش، ملكيًّا في أحسن قيافة؛ وكانت أوامرُه حازمة، واستقراؤه لأحداث اليوم إعجازيًّا. هدر المدفع في تلك الأثناء، وعلت الموسيقى الحماسية؛ ولم نستطع أن نرى مكان سقوط القذائف، وأيّ أرواح حصدت، من فوق ربوتنا التي ذكرت. رأينا الكتائب تبدو تارة، وتغيب وسط الدخان تارة أخرى، وأحيانا لا يبدو منها إلا راياتها، وامتصّ الصخب الأكبر كل صيحة وصوت إليه.

في صباح ذلك اليوم، تعرّض أرغيروبيلو لجراحٍ بالغة، فحلّ ريموند مكانَه قائدًا عامًّا للجيش بأسره. فقدّم بعضَ الملحوظات إلى أن نظر بمنظاره فاربدَّ وجهُه بالشكّ لحينٍ من الوقت، قبل أن يتهلّلَ مشرقًا. وصاح، "الدائرة لنا! الترك يفرّون من اللقاء". وبسرعة أمر مساعده بأن يقود الخيالة وينقض على الفارّين. كانت الهزيمة شاملة؛ وكفّ هدير المدفع؛ وأعاد المشاةُ تجميع أنفسهم، بينما انطلق الخيّالة مطاردين الترك المهزومين في تلك السهول الموحشة؛ وانتشر الطاقم المساعد لريموند في كلّ مكان، لجمع المعلومات له، أو لنقل أوامره. وحتّى أنا، أرسلت إلى بقعة بعيد في الميدان.

كان الميدان الذي جرت المعركة فوقه سهلًا منبسطًا، منبسطًا إلى درجة أنّ الواقف فوق ربوتنا تلك يستطيع أن يرى سلسلة الجبال البعيد في الأفق، إذ لم يكن من تضاريس دونها تحجب النظر، ما عدى بعض التموجات الترابية والصخرية التي لا تعلو على ارتفاع موج البحر. كان هذا الجزء من تراقيا مسرحا لصراع طويل، لذا لم تزرع هذه الأرض، فكانت مجدبة ذات منظر موحش. أمّا الأمر الذي تلقيت، فكان أن أرصد تحرّكات مفرزة من الترك، التي قد تكون فرّت شمالًا؛ إلا أنّني لم أجد شيئًا في جهتي إلا الموتى، فقد فرّ مجمل الجيش التركي شرقًا، وبإثرهم الجيش اليوناني. وصعدت فوق ربوةٍ قريبة، وأجلتُ النظر، فلم ألقَ إلا الصمتَ.

انطلقت أشعّة الشمس الغاربة من خلف جبل آثوس؛ وتلألأ بحر مرمرة بنورها، وفي الأفق البعيد، استراح ساحلُه الأسيويُّ، شبه محتجبٍ بضباب الغيوم المنخفضة. تناثرت، في كلّ مكان، الخوذُ، والحرابُ، والسيوفُ، الساقطةُ من القتلى والفارّين، عاكسةً بقية النور المنحسر. ومن الشرق، حلقت أسرابُ الغربان، سكّان مقابر الأتـراك، سابحةً لتجنيَ حصادَ اليوم؛ واختفتِ الشمسُ. مثل هذه الساعةِ، الكئيبةِ الحُلوة، كانت أكثر وقتٍ تُذعنُ

فيه أرواحُنا للاتصال بالسماء؛ إذ تفارقنا قسوةُ الفانين، وتحلُّ في أرواحنا سماحةٌ رقيقةٌ. ولكن، كيف للسماء أن تخطرَ ببال وسط هذه الأشلاء، وللسكينة أن تعنّ لأحد القتلة؟ في النهار، أسلمتُ عقلي، عبدًا طائعًا، لما أراد إخوتي من بني الإنسان؛ فخضعت للارتباط التاريخي، وكره العدوّ، والحماسة العسكرية. أمّا الآن، فأنظر إلى كوكب الزهرة الساطع، حيث تدلّى، هادئًا رقيقًا، في سماء الأصيل. والتفتُّ إلى الأرض المغطّاة بالأشلاء؛ فتملّكني العارُ من بني جنسي. وسرعان ما تبدّل صفاءُ الجوّ، ولفّه الضبابُ، الذي أخفى شفقَ الغروب؛ وسبحت كتلٌ ضخمةٌ من الغيوم من جهة الجنوب الشرقي، ولمعَ البرقُ في أجنابها، منيرًا دهمتها؛ وبدأت الرياحُ العاصفةُ بالتلاعب بأردية الموتى، وزادها بردًا، مرورُها فوقَ تلك الأشلاء الجامدة. لفَّ الظلامُ المكان؛ ولم أعد أميّز شيئًا حولي، فنزلتُ من مرقبي، موجّهًا حصاني بصعوبة، ليتلافى الموتى.

سمعتُ أنينًا حادًّا فجأةً، ونهض شبحٌ من الأرض، ومشى تجاهي مسرعًا، فثقلت خطواتُه كلما زاد اقترابه. حدث الأمر بسرعة، وبالكاد لجمتُ حصاني عن سحق ذلك الإنسانِ المصاب. كان لباسُه لباسَ جنديّ، إلّا أنّ الرقبة والذراعين العاريتين، والأنين غير

المنقطع، كشفا أنها أنثى متنكّرة. ترجّلت لأسعفها، إلا أنّها قاومت مساعدتي، وهي تتأوّه واضعة يدها على جنبها. نسيت، في غمرة تلك اللحظة، أنّني كنت في اليونان، فرحت مهدّئًا إيّاها بلغتي الأمّ. وفجأةً كالصاعقة، عرفت إيفادني المحتضرة (فقد كانت هي) لغة محبوبها. غيّبَ ألمُ جراحِها الشديد عقلَها، وملأني بالشفقة على حالها، أنينُها ومحاولاتُها الواهنةُ للتخلّص منّي. وصاحت باسم ريموند بنشوة غريبة؛ وقالت بأنّي أمنعها عنه، بينما يسعى الترك إلى قتله بأشنع طرق التعذيب. ثم راحت تندب حظَّها؛ وكيف قاد الحبُّ والآمال الفارغة امرأةً مثلَها إلى حمل السلاح، وتحمّل ما لا يُطاق من العذاب والمشقّة والألم؛ بينما ضغطت يدي بيدها الملتهبة حرارة، وتوهّج وجهُها وشفتاها بحرارة مثيلة.

حينَ انهارَت قواها حملتها عن الأرض، فتعلّق جسدُها الهزيلُ بذراعي، وأراحت خدَّها الغائر على صدري؛ وبصوتٍ كئيبٍ غمغمت: "هذا آخرُ الحبّ! إلا أنّها ليست نهايته! وانتابتها نوبةٌ بثّت فيها قوةً بينما رفعت يدَها إلى السماء: "هناك النهاية! هناك سنلتقي مجدّدًا. تحمّلتُ جرع الموت في حياتي لأجلك، يا ريموند، والآن أهلك، ضحيةً لك! وبموتي أشتريك! طوّعتُ الحربَ ونارَها، وسلاحَها، وطاعونَها، فصاروا خدّامًا لي.

جسرت، وغلبتها كلّها، إلى حيني هذا! لقد بعتُ نفسي للموت، بشرط أن تتبعَني. ليجتمعَ النارُ والحربُ والطاعونُ على إهلاكك؛ لا مأمن لك يا ريموند.

استمعتُ إلى هذيانها بقلبٍ حزين؛ وجعلتُ لها فراشًا من المعاطف. خفت اضطرابَها، وعلا وجهَها عرقٌ رافقَ شحوبَ الموت المعقّب لحمرة الحمّى، بينما وضعتها على المعاطف. استمرّت في الهذيان عن لقائها القريب بحبيبها في القبر، وعن هلاكه القريب؛ كانت تقسم أحيانًا بأنّ الموت أرسل في طلبه، وتنتحبُ لمصيره البائس أحيانًا أخرى. خفت صوتُها، إلى أن انقطع؛ واختلج جسدُها بضعَ خلجاتٍ ثم ارتخت عضلاتُها، وسكنت أطرافُها، إذ لم يعد هناك ما يحرّكها. نهدة عميقة، فارقت الروح إثرها الجسد.

حملتُها من جوار جيرانِها الموتى، ملفوفةً بالمعاطف، ووضعتُها أسفلَ شجرة. نظرت مرة أخرى إلى وجهها الذي تبدّل. كانت في الثامنة عشرة حين رأيتها آخر مرة؛ جميلة كخيال شاعر، وبهيّة كسلطانة من الشرق. اثنتا عشرة سنة مرّت؛ اثنتا عشرة سنةً من التقلّب، والأحزان والمشقّات. وجهها الرائع صار باليًا، وفارقت نعومةَ الشباب والأنوثة أطرافُها، وغارت عيناها عميقًا في محاجرِها.

مسحوقًا وباليا، جفّف الدهر دمَه،

وملأ وجهه بالتغضّن والتجاعيد

وبخوفٍ ورعدة غطّيتُ صرحَ العاطفة والبؤس هذا. كومتُ فوقَها كلَّ ما استطعت إيجاده من أعلام وأشياء ثقيلة، لتقيَها الطيورَ والوحوشَ، إلى أن أحضّر قبرًا يليق بها. وبحزن وتثاقل، شققت طريقي بين الأشلاء، مهتديًا بأضواء المدينة المتلألئة، إلى أن وصلت أخيرًا إلى تكيرداغ.

الفصلُ الثاني

عرفت فور وصولي أنّ الأمر قد وُجّه للجيش بأن يتقدّم حالا تجاه القسطنطينية؛ وأنّ الجنود الّذين لم يصابوا في المعركة كانوا في طريقهم سلفًا. امتلأت المدينة بالجلبة. نتج عن إصابة أرغيروبيلو، وعجزه عن الحركة، أن حلّ ريموند قائدا عاما للجيش. فجال في المدينة، يعود الجرحى، ويعطي الأوامر للتجهيز لحصاره المزمع. وفي الصباح الباكر، كان كل الجيش منطلقا في المسير. وتم الأمر في عجلة فلم يتح لي أن أصلي على إيفادني. لم يكن معي سوى خادمي، فحفرت حفرة عميقة أسفل الشجرة، وأودعتها فيها، دون أن أنزع عنها كفنَها من الثياب العسكرية، وكومت الحجارة فوق قبرها، وأزالت الشمس البرّاقة وضوء النهار الساطع الجلال عن الموقف. ومن قبر إيفادني الخفيض، انضممت إلى ريموند وطاقمه، المتجهَين إلى المدينة الذهبية.

كانت القسطنطينية تحت الحصار، ومحاطة بالخنادق، وسُيطر على بعض أراضيها. حاصرها الأسطول اليوناني كلّه بحرًا؛ وبرّا، امتدت خنادق الحصار من المياه الحلوة إلى برج مرمرة، على ساحل بحر مرمرة، على طول الأسوار العتيقة. حُزْنا بييرا، فصار

القرن الذهبي كله لنا؛ واكتمل حصارها من البحر. ولم يعد للأتراك شيء من أوربّا سوى أسوار الأباطرة اليونانيين المغطاة باللبلاب. ترقب جيشنا سقطوها المؤكد. فقد عدوا الحامية فيها وعرفوا استحالة وصول إي مدد لهم؛ وكانت كل هجمة انتصارا، حتى وإن ردها الترك منتصرين، فقد كان خسائرهم لا تعوض. ذهبت راكبًا يومًا ما مع ريموند إلى ربوة عالية غيرِ بعيدةٍ عن الباب العالي، حيث نصبَ محمود الأول رايته، ورأيتُ المدينةَ أول مرة. لم يتغيّر شيء من قبابها العالية ومناراتها الشاهقة فوق الأسوار المكتسية بالأعشاب، حيث مات قسطنطين، ودخل الترك المدينة. وفي السفح حولنا، انتشرت مقابر للمسلمين، واليونانيين، والأرمن، وأشجار السرو الكثيرة فيها، وأشجار أخرى أكثر بهجة، أضفت تنوُّعًا على المنظر. فوقها، عسكر الجيشُ اليونانيُّ، وسراياه التي كانت تمشي في هدوء أحيانًا، ومشيا سريعًا أحيانًا أخرى.

كانت عينا ريموند نحو المدينة. قال، "حسبتُ ما تبقّى من عمرها، وستسقط بعد شهر. ابقَ معي إلى ذلك الحين؛ انتظر حتّى ترى الصليبَ على آيا صوفيا؛ ثم عد إلى غابتك الهادئة".

- "وأنت ستبقى في اليونان؟" سألت.

أجاب ريموند. "بالتأكيد، إلا أنّه يؤسفُني يا ليونيل، وصدّقني حين أقول ذلك، فراقُ حياتنا الرائقة في وينزر. لستُ سوى نصفِ جنديّ، أحبُّ الصيتَ، ولكن أكره الحرب. قبل معركة تكيرداغ كنت مفعمًا بالأمل والحماس: كانت غايتي أن أنتصر في تلك المعركة وأظفر بالقسطنطينية. أمّا الآن، فقد زال الحماس، ولست أدري ما السبب. أشعر وكأنّني داخل دوّامة مظلمة. حماسة جندي تضجرني، ولا أجد أيّةَ نشوةٍ للنصر فيّ".

انقطع كلامُه، واستغرق في التفكير. ذكّرتني ملامحُه الجادّة بصورةٍ ما بإيفادني التي كدت أن أنسى، فانتهزتُ الفرصةَ لأستفسرَ منه عن مصيرها الغريب. فسألته إن كان قد رأى في جنودنا أحدًا يشبهها؛ وإن كان قد سمع عنها منذ أن عاد إلى اليونان؟جفل لسماع اسمها، ونظر إليّ بغيرِ ارتياحٍ. وقال، "علمتُ بأنّك ستأتي على ذكرها. على نسياني لها منذ زمنٍ طويلٍ، إلا أنّها لم تفارق ذهني، ولو ساعة، منذ أن عسكرنا هنا. كنت في كلّ كلام موجّه إليّ، أترقّب ذكر اسمها؛ وفي كلّ حديثٍ، يخيّل لي أنّها ستكون موضوعًا فيه. أخيرًا، كسرت أنت لعنة الصمت؛ أخبرني بما تعرف عنها". قصصت عليه لقائي بها، وقصّة موتِها. فسألني بحرارة وألمٍ عن نبوءتها المتعلّقة به، التي عددتها مجرّد هذيان فاقد العقل. قال،

"لا تحاول خداع نفسي وإيّاك. لم تقل شيئًا جديدًا على ما أعرف، إلا أنّ هذا تأكيد. نارٌ، وسيفٌ، وطاعونٌ! يوجدُ كلُّ ذلك في المدينة هناك؛ ولن يجمع شرّها إلا عليّ!". ازداد اكتئابُ ريموند منذ ذلك اليوم. فانكفأ على نفسه قَدرَ ما أتاحت له واجباتُ منصبِه. كان الحزنُ مخيّمًا عليه حين يجالس الناس، على المحاولات لبسطِه، وصامتًا وسط أولئك المشغولين بالاحتشاد حوله. التحقت برديتا به، فكان أمامها يجبر نفسه على الظهور مرحًا؛ لأنّ أيّ تغيّر فيه سينعكس عليها كالمرآة، فلو جلس صامتًا قلقًا، لتساءلت بجزعٍ عن سبب ذلك، وسعت جاهدةً لإزالة سببِ حزنِه.

سكنتُ في قصر المياه الحُلوة، قصر السلطان الصيفي؛ وزاد بهجةَ المكان جمالُ المنظر الذي لم تفسده الحربُ، وعذوبةُ النهر. أمّا ريموند، فلم يكن ليسليَه أو يمتّعَه أي شيء أو منظر، لا في الأرض ولا في السماء. كان أحيانًا يترك برديتا، ليتجوّل في الأرجاء وحيدًا؛ أو يبحرَ في قاربٍ شراعيٍّ صغيرٍ في المياه الصافية، غارقًا في التأمّل. كنت أرافقه أحيانًا؛ كانت ملامحُه ثابتةَ الجلال في تلك المناسبات، ومزاجُه مغتمًّا. كان يبدو مرتاحًا لوجودي وللحديث معي عن شؤون اليوم وما به. كان هناك أمرٌ ما خلفَ كلّ ذلك، بلا شكٍّ؛ إلا أنّه، وكلّما بدا أنّه سيهمّ بالإفصاح

عمّا يشغلُ قلبَه، كان يشيحُ وجهه فجأة، ويتنهّد ألمه، علَّ الريحَ تتلقّفُ الفكرة التي تؤلمُه من أنفاسه. ويحدث أحيانا، حين يغادر ريموند غرفة رسم برديتا، كما ذكرت، أن تأتيَني كلارا، وتسحبني جانبًا بلطفٍ لتقول لي، "بابا قد غادر، هل نذهب إليه؟ أحسب أنّه ستسعده رؤيتُك". كنت أوافق أو أرفض طلبها، بحسب ما يسمح به ظرفي.

اجتمع جمع عظيم من الزعماء اليونانيين في إحدى الأمسيات في القصر. وكان من ضمنهم، بالي المتميز، وكرازا العبقري، ويسيلانتي المولع بالحرب. تحدثوا عن أحداث اليوم، وعن الاشتباك في الظهيرة، وتضاؤل أعـداد الأتـراك، وهزيمتهم وفرارهم؛ وتأمّلوا في قرب أخذهم للمدينة الذهبية، قريبًا. حاولوا رسمَ صورة للمستقبل، صورة بهيّة عن ازدهار اليونان حين تصبحُ القسطنطينية عاصمتَها. ثم تحوّل الحديث إلى الأخبار القادمة من أسيا، عن فتكِ الطاعونِ بالمدن الكبيرة، وعن مدى فتكه بالمدينة التي يحاصرون.

كان ريموند قد انضمّ للحديث. وبيّن بصورة واضحة الحال الذي وصلت إليه المدينة؛ وحال جنودها المنهكين والمدمَّرين، على ما يبدونه من ضراوةٍ في القتال؛ والجوعِ والوباءِ اللذين

يفتكان بالمدينة، وأنهما من صالحنا؛ وتوقّع أنّ الأعداء لن يجدوا سبيلًا سوى الاستسلام. وفجأةً انقطعَ حديثُه في وسط خطابه، وكأنّ فكرةً بالغةَ الإيلام ألمّت به. نهض متثاقلًا، ولمحتُه مغادرًا القاعة، ماشيًا في الممرّ الطويل للخارج، طالبًا الهواءَ الطلق. لم يعد إلى القاعة؛ وسرعان ما حبَت كلارا قربي، داعيةً إيّاي بدعوتها المعتادة. وافقت على طلبها، وتبعَت ريموند، ممسكًا بيدها الصغيرة. وجدناه على وشكِ الإبحارِ بقاربه الصغير، ووافق دون تردّد على صحبتِنا. هبّت نسائمُ البرِّ العليلة، المعقّبة للنهار الحارّ، على النهر ودفعت بشراعِنا الصغير. بدَت المدينةُ إلى الجنوب مظلمةً، في حين غطّت أضواءٌ كثيفةٌ الضفافَ القريبة، وزهَتِ المياهُ القريبة منها في هذه الليلة الساكنة، وعكست ألقَ النجوم، كلُّ ذلك وهبَ هذا النهرَ جمالًا يعادلُ خلوةً في الفردوس. انشغل بحّارنا الوحيد بالشراع، بينما أدار ريموند الدفّة، وجلست كلارا عند قدمَيه، معانقةً ركبتَيه، ومريحةً رأسَها عليهما. بدأ ريموند الحديث بصورة مفاجئة:

"هذه، على الأرجح، آخرُ مرةٍ سيُتاحُ لنا الحديثُ فيها بحرية يا صديقي؛ فأعمالي قائمةٌ على قَدَمٍ وساق، وقريبًا سيزيدُ انشغالي. وأودُّ، إلى جانب ذلك، أن أفصحَ لك عن رغباتي وتوقّعاتي، وألّا

أعودَ إلى هذا الموضوع المؤلم أبدًا. أولًا، ينبغي لي أن أشكرَك يا ليونيل، لبقائك معي كما طلبتُ إليك. كان الفخرُ دافعي في طلبي إليك البقاء؛ الفخر، أُذكر ذلك؛ بيدَ أنّني أرى في ذلك تدخُّلًا للقدر، فقريبًا سيكون وجودُك هنا ضروريًّا؛ ستكون مُعينًا لبرديتا، حاميًا ومرشدًا لها. ستعيدُها إلى وينزر".

قلت: "ليس من دونك! لست تنوي الفراق مجدّدًا؟"

أجاب ريموند، "لا تخدعنَّ نفسَك، فالفراقُ القادمُ أمرٌ لا قول لي فيه؛ وحدوثُه قريبٌ جدًّا وأيامه معدودة. هل لي بأن أثقَ بك؟ كنت أودُّ الإفصاحَ لك، منذ زمن، بما يدورُ في خلدي من مشاعر شؤم غامضة، على خشيتي من سخريّتك من ذلك. إلا أنّي أرجو ألّا تفعلَ، يا صديقي النبيل؛ فمع صبيانيّتها وانتفاء العقل عنها، إلا أنّها صارت جزءًا منّي، ولا أستطيع طرحَها عنّي. لكن، كيف لي أن أتوقّعَ منك أن تتعاطفَ معي؟ فأنتَ من هذا العالم؛ أمّا أنا، فلا. كثير الكلام إلّا أنّك لا تفرّق بين الروح والجسد. كيف لي أن أثقَ بك إذًا؟ وما الأرض لي إلا قبرٌ وما في كنفها إلا العَفَنُ الصرف. آن لهذا الأمر أن ينتهيَ، فقد طالَ وقوفي على عتبة الخلود. وما كلّ امرئ قابلت إلا كجيفةٍ، توشكُ أن تفارقه جذوةُ الروح، ليصيرَ إلى العفن والتحلّل. كلُّ صخرةٍ تبني هرمًا، كلّ زهرة تبني صرحًا، كلّ

بناء قبر مختال، وكل جندي هيكلٌ حيٌّ".

كانت نبرتُه بالغةَ الحزن، وتنهُّداتُه عميقة. وأكمل، "قبل بضعة أشهرٍ، كنتُ على وشك الموتِ، إلا أنّني كنتُ مفعمًا بالحياة. كانت مشاعري إنسانيةً؛ وكان الحبُّ والأمل نجما حياتي الساطعَين. والآن، يحلم الجميع بأكاليل النصر تتوّج جبينَ قاهر الأعداء، ويتحدّثون عن جزاءٍ كريم، ومنصب، وسلطة وثروة، ولكنّي لا أرجو من اليونانيّين إلا قبرًا. أن يعلوَ ربوةً فوق جثماني، لتبقى قائمةً حتى بعد زوال قبّة أيا صوفيا. لمَ ينتابُني هذا الشعور؟ في تكيرداغ كنتُ مفعمًا بالأمل؛ ولكن ما إن أبصرتُ القسطنطينية حتى فارقني ذلك، وكلّ شعور بالفرح. كانت كلماتُ إيفادني الأخيرة ختمًا لبلاغ هلاكي. إلا أنّني لا أدّعي أنّ هذا مفسّرٌ لمزاجي. كلّ ما أستطيع قولَه، أنّ ذلك ما أشعر به. قد يكون أصابني نفح من الطاعون الذي نبّأت أنه اجتاح القسطنطينية؛ قد يكون المرض سبب تشاؤمي. لا يهمُّ أيُّ الأسباب خلف حالتي، إذ لا تحوّل عمّا أصابني، فظلُّ يد القدر التي تعلوني يغمرني تمامًا. أودع أختك وطفلتها عندك يا ليونيل. لا تذكر لها اسم إيفادني المشؤوم أبدًا. سيزيدُها أمرُ الرابط الغريب بيننا حزنًا، وطاعة روحي لصوتها المحتضر، واتّباعي لها لتلك الأرض المجهولة".

استمعتُ إليه متعجّبًا ممّا يقول؛ إلا أنّ وجهه الحزين وصوته الجليل أكّدا لي صدقَ مشاعرِه، فكففتُ رغبتي بأن أمازحَه ساخرًا، لأُبدّدَ مخاوفَه. وبغض البصر فقد قوطع ما كنت سأقول؛ لمَ انتاب كلارا من مشاعر عنيفة. فقد تكلّم ريموند غيرَ آبهٍ بوجودها، فاستمعت الطفلة المسكينة بذعر، وصدقت نبوءة موته. تأثّر والدُها بما انتابَها من جزع، فضمّها بين ذراعيه مهدّئًا إيّاها. ولكن حتّى محاولاته إسكان مشاعرها فقد كانت كئيبة ومرعبة. قال، "لا تبكي يا صغيرتي؛ فالموت القادمُ سيأخذُ من بالكاد تعرفين. قد أموت، ولكن حتّى في موتي، لن أتخلّى عن كلارتي. في حزنك أو فرحك، تذكّري دائمًا بأنّ روح والدك قريبةٌ منك، لتواسيك، لتشاركَكِ فرحَكِ. كوني فخورة بي، وتمسكي بذكريات طفولتك معي. هكذا، لن تتذكرينني ميتًا، يا عزيزتي. ولكن، ينبغي لي أن تعدينني بأمر واحد، وهو ألّا تذكري أمرَ هذا الحديث الذي سمعت، إلا لخالك. وإذا ما توفّيتُ، فستواسين أمَّك، وتقولين لها بأنّ مرارةَ الموت الوحيدة هي تفريقُه بيني وبينها، وأنّها كانت شاغلة أفكاري الأخيرة قبل مماتي. ولكن، عديني بأنك لن تبوحي بسرّي ما حييت؛ عديني يا ابنتي". قدّمت كلارا وعدَها بلسان متلعثم، بينما ظلّت متعلّقةً بوالدها بحزن شديد. سرعان ما عدنا إلى الضفّة، وحاولت أن أمحوَ الأثر الذي انطبعَ في ذهن الطفلة

بالسخرية من مخاوف ريموند. ولم نسمع منه ذلك الحديث مجدّدًا. فقد كان ما قال من أنّ الحصار سيأخذُ عليه كلَّ وقته وانتباهه، مع اقتراب انتهائه.

كانت إمبراطورية المسلمين في أوربّا على وشك الانتهاء. فقد منع الأسطولُ اليونانيُّ المحاصر كلَّ موانئ إسطنبول وصولَ المَدَدِ إليها من آسيا؛ وبات أيُّ هجوم تجاهنا من داخل المدينة غير ذي جدوى، إلا من بعض الحملات الواهية التي زادت أعدادهم نقصًا، ولم تؤثّر فينا شيئًا. ومع تهاوي أعداد الحامية، صار من السهل، يقينًا، أخذ المدينة بهجمة واحدة شاملة؛ إلا أن الإنسانية والحكمة دفعا تجاه الحصار البطيء. إذ لم يخالطنا شك، ولو حاول من حاول أن يقنعنا، بأن قصورها، ودور عبادتها، ومخازن ثرواتها، لن تدمَّر وتُنهَب مع نشوة النصر، ومرارة الهزيمة. ويكفي ما لقيه المدنيّون العزل من بربرية الانكشارية؛ وفي حال اقتحام المدينة، ومع الفوضى المرافقة لذلك، ستُرتكبُ المذابحُ، وسيعملُ الجنودُ القساةُ سيوفَهم في النساء والأطفال والشيوخ. الحصارُ والجوعُ كفيلان بالنصر، وآمالنا معلّقة على نجاحهما.

هاجم جنود الحامية طلائعَ مواقعِنا كلَّ يوم، ليعيقوا بناء تحصيناتنا المتقدّمة. وأطلِقت القواربُ المشتعلةُ من موانئهم

العديدة، وينجحُ أحيانًا جنودُنا بتلافي هجمات أولئك الرجال الشجعان، الذين لم يكونوا يطلبون الحياة، بل الموت. اشتدَّت تلك الهجمات بحسب الموسم؛ وكان أوجُها في الصيف، حين تأتي الرياحُ الآسيويةُ الجنوبيةُ بحرًا بشكل لا يُطاق، وحين تجفُّ الجداول في مجاريها، ويتوقّد البحرُ الشاسعُ تحت أشعة الشمس الصيفية الحارقة. لم يكن الليل محيّيًا للأرض، فلا وجود للندى. ماتتِ الأعشابُ والورودُ جميعًا؛ وانحنتِ الأشجارُ ذُبولًا، واتخذ الصيف هيئة الشتاء المُهلك؛ ومضى ملتهبًا، بصمتٍ، ليأتيَ على عناصر حياة الإنسان. وجالتِ الأعينُ، عبثًا، بحثًا عن حطام غيمة شمالية في السماء الصافية، علّها تأتي بأمل الغيث، لهذا الجوّ القاتل. ولكن، لم نجد إلا صفوَ السماء، واللهيب والهلاك. لم نتأثر -نحن المحاصِرين- كثيرًا بشرّ الجوّ ذاك. فقد وفّرت لنا الأشجار الظلال، وأمدّنا النهرُ بالماء بلا انقطاع؛ بل وفرزنا سرايا لتمدّنا بالثلج من قممِ جبالِ البلقان، وآثوس، وجبال مقدونيا؛ بينما جدّدت الفواكه الباردة، والطعام الصحيّ، عافيتنا لنقوم بأعمالنا، وأعانتنا على تحمّل الهواء اللاهب، بتذمُّرٍ أقلّ. ولكنّ الحال داخل المدينة كان ذا وجهٍ مختلف. فحرارةُ الشمسِ الملهبة للأبنية والطرق، وخراب النوافير، وسوء الطعام، وندرته؛ بالإضافة إلى انتشار الأوبئة، وتسلّط الحامية على أزواد الناس؛ وانتشار

الأوساخ والفوضى، كلّ ذلك، جعل من المقام في المدينة عذابًا؛ ومع ذلك، استمرُّوا في المقاومة، رافضين الاستسلام.

فجأةً، تغيّر حال الحرب. فلم نعد نتعرّض للهجمات؛ واستمررنا في بناء تحصيناتنا الأمامية، ليلًا ونهارا، من دون أيّ تعطيل. وأغربُ من ذلك، أنّه لمّا دنا جنودُنا من المدينة، كانت الأسوار خالية، ولم تخرج من المدافع طلقةً واحدةً تجاههم. ولما أُبلغَ ريموند بتلك الأخبار، أمر باستطلاع المدينة، بدقّة، لمعرفة ما يدورُ فيها. ولمّا عاد المستطلعون، ورفعوا إليه أنّ الصمت لا يزال مخيّمًا على المدينة الخَرِبة، أمر ريموند بأن يقترب الجيش كلّه من بوّابات المدينة. لم يظهر أحدٌ على الأسوار، ولم يكن من حرّاس على البوّابات، مع أنها مقفلة؛ ولم يكن في علوّ المدينة إلا القباب اللامعة والأهلّة المخترقة للسماء؛ ووقفت الأسوار المعمّرة قرونًا طويلة، وأبراجها المتوّجة بالأعشاب، كصخورٍ في خرابة مهجورة. لم يسمع من المدينة، صيحةً أو صرخة، ولم يكسر ذلك الصمتَ إلا نباحُ كلبٍ، بين الحين والآخر. حتّى جنودنا، هالهم ذلك الصمتُ؛ فسكتت موسيقى الجيش، وسكنت الحركة وسأل كلّ رجلٍ زميلَه، همسًا، عن معنى ذلك الهدوء المفاجئ؛ بينما حاول ريموند من فوق ربوة، مستخدمًا منظارًا، أن يكتشف

خدعة العدوّ. لم يبصر أيّ خيالٍ في شرفات المنازل؛ وفي الأحياء المرتفعة من المدينة، لم يدلّ ظلّ متحرّك على وجود الأحياء: بل حتّى الأشجار، حاكت التماثيل، ساخرة، في تسمّر حركتها.

سمعتُ حوافرُ الخيل بوضوح في ذلك الصمت، وبعد حين، استبان أمرُها. كانوا جنودًا أرسلهم الأدميرال كرازا، يحملون رسائل للقائد. وكان محتوى الرسائلِ تلك بالغ الأهمّية. ففي الليلة الماضية، أثار صوتُ انتباه الحرّاس على إحدى السفن الصغيرة الراسية بالقرب من قصر السلطان، ثم سمعوا صوتُ مجاديف خافتةً؛ فأطلقوا الإنذار، ففضح أمر اثني عشر قاربًا صغيرًا، كلّ واحد منها يحمل ثلاثة من الانكشارية، في أثناء محاولتهم شقّ طريقهم عبر الأسطول، ليصلوا ضفّة الأُسكُدار المقابلة. لمّا رأَوا أنّ أمرَهم قد كُشف، أطلقوا بنادقهم، وبادر بضعهم إلى المقدّمة ليغطّوا الآخرين، الذين حالوا قدر استطاعتهم، أن يفرُّوا بقواربهم الخفيفة، من السفن الداكنة المطاردة لهم. أُغرقوا جميعًا في نهاية الأمر، ومات جميع طواقم القوارب، ما عدا ثلاثة من الأسرى. لم يحصل على الكثير من المعلومات منهم؛ ولكنّ أجوبتَهم الحَذِرة، جعلت مستجوبيهم يخمّنون أنّ عددًا من المجاميع سبقت هذه الأخيرة، وأنّ عددًا من قيادات الأتراك المهمّين، قد نقلوا إلى

آسيا. أجاب الرجال بأنفة على فكرة كونهم قد فرُّوا من الدفاع عن مدينتهم؛ وهتف أصغرُهم سنًّا، ردًّا على سخرية البحّارة، "خذوها أيُّها المسيحيون الكلاب! خذوا قصورَها، وحدائقَها، ومساجدَها، ومنازلَ أبنائنا؛ وخذوا الطاعونَ معها؛ الطاعونَ هو العدوّ الذي نفر منه؛ وإنّ قبلتكم المدينة، ضمّوها إلى صدوركم. حلّت لعنة الله على إسطنبول، شاركوها مصيرها".

كانت تلك الأخبار التي أرسلها كرازا إلى ريموند؛ ولكن، سرت بين الجنود، قصصٌ مليئةٌ بالمبالغات، مع أنّها مبنيّة على تلك الأخبار، وعلى لغط، بأنّ المدينة نهبٌ للطاعون؛ وأنّ سكّانَها خضعوا لقوةٍ غاشمة؛ وأنّ الموتَ صار سيّدَ القسطنطينية.

سمعتُ وصفًا للوحة، يقفُ فيها سكّانُ الأرض أجمعين، في ذعر، مواجهين الموت. الضعفاء والمسنون، في فرار؛ والمحاربون في تراجع، يطلقون التهديداتِ حتّى وهم منسحبون. الذئابُ والأسودُ، ومختلفُ وحوش القفار، تزمجر تجاهه؛ بينما يرفّ الموتُ الكالح فوقَهم، هازًّا رمحَه الشبحي؛ مهاجم وحيد، ولكنّه لا يقهر. كذلك كان حالُ الجيش اليوناني. كنت أنا على يقينٍ لو أنَّ ما لا يحصى من جنود آسيا جاؤوا إلى بحر مرمرة، ووقفوا مدافعين عن المدينة الذهبية؛ فلن يتوانى أحدٌ من الجنود اليونان

عن الهجوم على العدوّ الذي يفوقه عددًا، ولن يُحجم أحدٌ منهم عن التضحية بنفسه، بحماسة قومية لاهبةٍ، في سبيل وطنه. مع أنّ لا قتال بالحربات هنا، ولا مدفعية تحصدُ الأرواح، ولا صفوف رهيبة من الجند، وأنّ الأسوار الخالية قُدّمت أخذًا سهلًا للمدينة، وقصورها الباذخة الخالية؛ إلا أنّ اليونانيين المؤمنين بالخرافات، رأوا الطاعون فوق قبّة أيا صوفيا، فتراجعوا مذعورين.

حرّكت مشاعر أخرى، بعيدة كلّ البُعد، ريموند. إذ نزل من فوق الربوة بوجهٍ مشرقٍ بالنصر، وأمر جنوده، وهو يشيرُ بسيفِه إلى البوّابات، بأن يزيلوا التحصينات، العقبة الأخيرة للنصر التامّ. أجابَ الجنودُ كلماتِه المبتهجة، بوجوه شاحبةٍ مذعورة؛ وبلا شعورٍ منهم، تراجعوا إلى الخلف، فتقدّم ريموند أمام الصفوف، وصاح، "أقسم بسيفي أن لا كمين يهدّدكم بالخطر. لقد هُزم العدوّ. القصور البهية، والمساكن الفخمة، وكنوز المدينة صارت لكم؛ افتحوا البوّابة، وخذوا مدينة أسلافكم، وإرثكم!". سرت رعدة، وهمساتٌ مذعورةٌ بين الصفوف؛ لم يتحرّك أيُّ جندي. صاح قائدُهم غاضبًا، "جبناء! إليّ بفأس! سأدخلُ وحدي! سأرفعُ رايتَكم، وحين ترونَها ترفرفُ فوق أعلى المآذن، تلك، قد تدبّ فيكم الشجاعة وتلتفّون حولها!"

حينها تقدّم أحدُ الضبّاط: وقال، "أيّها الجنرال، نحنُ لا نخشى شجاعة، أو قراعًا، أو هجومًا، أو كمينًا، من المسلمين. نحنُ على استعداد لأن نكشفَ صدورَنا، ولو ألفَ مرّة، أمام طلقات الأتراك وسيوفهم، وأن نموت بمَجدٍ، فداءً لليونان. لكن، لن نموت أكوامًا، ككلابٍ مسمومةٍ في الصيف، جرّاءَ استنشاقِ هواءِ المدينة الموبوء؛ لا نجرُؤ على مواجهة الطاعون!". ما إن سمع العدد الغفيرُ من الرجال الخاملين والواهنين، قول ذلك الضابط، حتّى استعادوا عزمهم. وانطلقت صيحاتُ التأييد من آلاف الأفواه. رأى ريموند الخطر في ذلك؛ ونوى أن ينقذ عساكره من جريمة العصيان. إذ كان على يقين بأنّه ما إن يبدأ الخصام بين القائد وجنوده، حتّى يصبّ كلُّ قولٍ وفعلٍ في إضعاف الأول، وتجسير الثاني. فأمر بالانسحاب، فسارت الكتائب بوجهٍ منظّم إلى المعسكر.

أسرعت لنقل تلك الأخبار الغريبة إلى برديتا؛ وسرعان ما انضمّ ريموند إلينا. بدا كئيبًا وقلقًا. صُعقت أختي لما سمعت منّي من أخبار، وقالت متعجّبةً، "يا لَأحكامِ السماءِ العجيبةِ، التي يعجز عقلُ الإنسانِ عن تفسيرها!"

قال ريموند بغضب، "امرأةٌ حمقاءُ، هل أصابَك الهلعُ كما أصاب جنودي البواسل؟ ما الذي لا يمكن تفسيرُه، أرجو أن

تخبريني، في أمر طبيعي كذاك؟ ألا يضربُ الطاعون إسطنبول في كلّ عام؟ أيّ عجبٍ، إن كان فتكُه أشدَّ في آسيا هذا العام؛ أن يكون سبّب ضررًا مضاعفًا في المدينة؟ أيُّ عجبٍ، إن سبّب الطاعون هلاكًا أكبر، في وقت الحصار، والجوع، والحرّ الشديد، والجفاف؟ بل العجيب أنّ الحامية، لمّا رأَوا يأسَهم من تحمّل الحصار، استغلّوا غفلةَ أسطولنا وإهماله؛ ليفرّوا من الحصار والأَسر. ليس الطاعون، أقسم بالإله الحيّ! ليس الطاعون ولا الخطر المحدق ما يجعلنا كالطيور في مَوسِم الحصاد، ترتعد فرقًا من فزاعة، فتحجم عن النبت العاجز؛ بل هي الخرافات، التي تجعل عزم الأبطال كلُعبة تنس الريشة في يد الحمقى؛ وشأو الأرواح النبيلة لعبة للأرانب الأليفة! لكن، مع ذلك، ستكون إسطنبول لنا! أقسم بكل ما بذلت من جهد، وبالعذاب، والسجن الذي قاسيت، وبانتصاراتي، وبسيفي، وبأحلام مجدي، إنّي سأرفعُ الصليبَ بيدي هاتين، فوق ذلك المسجد!"

"عزيزي ريموند!" قاطعته برديتا بنبرة متوسّلة.

كان يذرع بهو القصر الرخاميَّ جيئةً وذهابًا؛ وقد أشحب الغضب شفتَيه المرتعشتين أثناء نحتهما لكلماته الساخطة؛ تطاير الشررُ من عينيه، واحتدّت قسماتُ وجهه بغيظه. أكمل من دون

صبر، "برديتا، أعرف ما ستقولين؛ أعرف أنّك تحبّينني، وأنك طيّبة ورقيقة. لكن هذا ليس بأمر للنساء، ولن يدرك قلب أنثى أيَّ إعصارٍ يمزّقُني!"

بدا أنّ الخوف كاد أن يصيبَه من شدّة غضبِه، فخرج من البهو. عبَّرت نظرة من برديتا لي عن قلقِها، فتبعته. كان يذرع الحديقة، وكانت آلامه في حالة لا تُعقل. قال، "هل سأظلُّ ملهاةً للقدر إلى الأبد! أينبغي للرجل، الراقي للسماء، أن يظلَّ إلى الأبد ضحيةً للوضيعين من أبناء جنسه! لو كنتُ مثلك يا ليونيل، أتطلّع إلى عيش طويل، وتعاقب الأيام المضاءة بالحبّ، للمتع الرائقة والربيع المنعش، لكنتُ خلعت القيادة عنّي، وطلبتُ السكينة في خمائل وينزر. ولكنّي على وشْكِ الموت، ولا تقاطعني. سأموت قريبًا. سأُنتزَع قريبًا من الأرض المكتظّة بالناس، ومخالطتهم، ومن مرابع شبابي العزيزة، ولطف أصدقائي، ومحبّة حبّي الوحيد، برديتا. هذه إرادةُ القدر! تلك إرادةُ الحاكم الأعلى، التي لا رادَّ لها؛ وأنا خاضعٌ لأمره. لكن، أن أخسرَ كلَّ شيء! أخسرُ الحبَّ والحياة والمجد! لن يكون ذلك. سأفنى، وبعدَ سنين قلائل ستفنَون جميعًا؛ ذلك الجيش المذعور، وكلّ سكان اليونان الجميل، لن يدوموا. لكنّ أجيالًا أخرى ستولَد، وتظلُّ إلى الأبد، ترفلُ في سعادة ومجدٍ،

جرّاءَ بسالتِنا وأفعالِنا الآن. كانت صلواتي في صباي لأن أكون من الرجال الذين يزيّنون صفحات التاريخ؛ من يسمّون بجنس البشر، ليكون هذا الكوكب الصغير مسكنًا للعظماء. واحسرتاه على ريموند! لقد ضاعت صلواتُه، وتلاشت آمال البشرية. من سجني في تلك المدينة، هتفتُ: قريبًا سأصيرُ سيّدَك! ولمّا نطقَت إيفادني بموتي، ظننتُ أنّ لقبَ فاتح القسطنطينية سيُكتبُ على قبري، فأسكنتُ كلَّ خوفٍ فيّ. والآنَ أقفُ أمامَ أسوارِها المهزومة، عاجزًا عن تسمية نفسي بالفاتح. لن يكون ذلك! أولم يقفز الإسكندر فوقَ الأسوار إلى داخل قلعة الأوكسيدراكي، ليرى جنودُه الجبناءُ طريقَ النصر، مجابهًا وحدَه سيوفَ المدافعين؟ كذلك، ستغلبُ شجاعتي الطاعون؛ وحتّى لو لم يتبعني رجلٌ، فسأرفعُ الراية اليونانية فوق أيا صوفيا".

لم يُجدِ التعقّل شيئًا مع تلك المشاعر المهتاجة. حاولت، بلا جدوى، أن أقنعَه بأنّه حين يأتي الشتاءُ ستخفّ حِدة الطاعون، وسيتشجّع اليونانيّون. قال، "لا تتحدث عن أيّ فصل آخرَ! عشتُ شتائي الأخير، وسينقش تاريخ هذا العام، 2092، على قبري". تابع وهو ينظر إلى الأعلى بحزن، "أرى أمامي، جفاف حياتي، وسقوطي من حافّة الحياة إلى مجاهل العالم الآخر الكئيب. لقد

استعددتُ بأنّ أترك خلفي أثرًا وهاجًا مضيئًا، بحيث يعجز ألدُّ أعدائي عن إخفائه. وأنا مَدينٌ بذلك إلى اليونان، ولك، ولبرديتا الباقية على قيد الحياة؛ ولضحية الطموح، نفسي".

قاطعنا خادم، أخبرنا بأن طاقم ريموند قد حضروا في غرفة الاجتماعات. أمرني ريموند، في الوقت الحاضر، أن أركبَ وأطوفَ في المعسكر؛ لأراقبَ أحوال الجُندِ، وأبلغه بما رأيت؛ ثم تركني. كانت أحداث اليوم قد هاجتني إلى حدّ بعيد، والآن إلى أبعد من ذلك، بعدما سمعت كلام ريموند المتألّم. واأسفاه على العقل البشري! تراه يتّهم إيمان اليونانيين بالخرافة، فأيّ شيء يسمّي إيمانه المطلق بنبوءة إيفادني؟

ذهبت من قصر المياه الحلوة، إلى السهل، حيث أقيم المعسكر، ووجدت أهله في اضطراب. إذ شغل الجنودُ وأقلقَهم القصصُ العجيبةُ التي وردت حديثًا من الأسطول؛ والمبالغات التي أسبغت على الأمور المعروفة أصلًا؛ أخبار نبوءات قديمة، وقصص عن أقاليم هلكت عن بكرة أبيها على يد ذلك الطاعون. فغاب الانضباطُ، وحلّ الجيش نفسَه. كلُّ امرئ كان جزءًا من كلّ عظيم لا يتحرّك إلا في اتحاد مع الآخرين، عاد الآن إلى غريزته الواحدية، ولم يعد فكر الإنسان إلا في نفسه. انسلوا مثنى وفرادًا،

أول الأمر؛ ثم كبرت جموع الفارين، وعندما لم يثنِهم الضبّاط عن ذلك، صاروا ألوية تقصد الطريق المؤدّي إلى مقدونيا.

عدتُ إلى ريموند قبيل منتصف الليل؛ كان وحيدًا، وبدا هادئًا؛ كان هدوؤه ذاك عائدًا إلى عَقدِه العزمَ على تنفيذ أمرٍ ما. استمع إلى إيجازي عن الجيش، وعن حلّه لنفسه، بهدوء، ثم قال، "تعلم يا ليونيل، تصميمي على ألّا أترك هذا القصر، حتّى يشرقَ اليومُ الذي تكون فيه إسطنبول لنا. وإن جَبنَ الرجالُ حولي عن المضيّ معي، فسأجد آخرين أشجعَ منهم. اذهب قبلَ انشقاقِ الفجر، احمل رسالتي هذه إلى كرازا، وأضف إليها بلاغتك، ليرسل إلي مشاة بحرّيته وقوّته العسكرية. إن استطعت الحصول على كتيبة واحدة لتدعمني، فسيتَّبعُني الآخرون بالتأكيد. ليرسل إليّ تلك الكتيبة. أتوقّعُ منك أن تعود قبل ظهر الغد".

بدا لي أنها خطّةٌ بائسةٌ؛ ولكن أبديتُ له الطاعة والحماس. وتركته لأرتاحَ بضعَ ساعاتٍ. مع بزوغ الفجر، كنت مستعدًّا للمُضيّ في مهمَّتي. تمهّلتُ قليلًا، لرغبتي بتوديع برديتا، وأخذت أراقب شروق الشمس من النافذة. أشرق البهاء الذهبي، وأفاقت الطبيعة المنهكة، لتعاني يومًا آخرَ من الحرّ والعطش المهلك. لم ترفع أيّ زهرة كأسًا مثقّلًا بالندى لتحيي الفجر. ذبلت الحشائش

في السهول، وخلا الهواء الملتهب من الطيور؛ وحدَها الجنادب، بنات الشمس، رفعت أصواتها الحادّة بغناء يضمُّ الأذان، من فوق أشجار السرو والزيتون. رأيت جواد ريموند، الأدهم يجلب إلى بوّابة القصر؛ وسرعان ما تبعه مجموعةٌ من الضبّاط، وقد بدا الخوف والحرص على وجوههم وفي أعينهم، التي لم تذق طعم النوم. وجدت ريموند وبرديتا معًا. كان يراقبُ شروق الشمس، وذراعه مطوّقة لخصر محبوبته؛ وكانت تنظر إليه، شمس حياتها، بنظرة حانية اختلط فيها القلق والحبّ. استهلّ ريموند غاضبًا حين رآني. وصاح، "ألا تزال هنا؟ أتلك حماستك التي وعدت بها؟"

قلتُ، "المعذرة، ولكن كنتُ ذاهبًا لولا حديثُك لي".

أجاب، "لا، بل اعذرني أنتَ، فلا حقَّ لي بأن آمرَك أو أوبّخَك؛ ولكنَّ حياتي معلَّقة بذهابك وعودتك سريعًا. إلى اللقاء!"

استعاد صوتُه نبرتَه اللطيفة، ولكن غمامًا من الحزن كان لا يزال مخيّمًا على ملامحه. كنتُ لأتأخّر في بقائي؛ إذ رغبت بأن أوصيَ برديتا بمراقبته بحرص؛ إلا أنّ وجودَه منعني. لم يكن لي من عذرٍ في تلكّئي؛ ولمّا كررت توديعه لي، صافحت يده المبسوطة. كانت باردة ورطبة. قلت، "اعتن بنفسِك يا سيدي العزيز".

قالت برديتا، "لا، تلك ستكونُ مهمّتي. عُد سريعًا يا ليونيل". كان يلعب بخصلاتها الكستنائية، سارح البال، بينما كانت منثنية عليه. التفتُ مرتين، فقط لأنظر إلى ذلك الثنائي الذي لا نظير له. أخيرًا، بخطوات بطيئة متثاقلة، خرجت من القاعة، ووثبت فوق حِصاني. في تلك اللحظة، ركضت كلارا نحوي، عانقت ساقي، وقالت، "عُد سَريعًا يا خالي! خالي العزيز، رأيتُ أحلامًا مرعبة، ولا أجرؤ على ذكرها لأمّي. لا تُطِل الابتعاد!" أكّدت لها نفاد صبري للعودة، ثم غادرت مع عدد صغير من المرافقين، عابرين البرَّ إلى برج مرمرة.

أنجزتُ مهمّتي، وقابلت كرازا. كان متفاجئًا، نوعًا ما؛ وقال بأنّه سيرى ما يمكن إنجازُه؛ لكنّ ذلك يحتاجُ إلى وقت، وقد أمرني ريموند بالعودة ظهرًا. كان مستحيلًا إنجاز أيّ أمرٍ في وقت قصير جدًّا. كان ينبغي أن أظلّ إلى اليوم التالي، أو أعود بعد أن أبلِّغ القائد بحال الأمور هنا. اتخذت قراري بسهولة. إذ دفعني هاجس بقرب وقوع مصيبة ما، وريب ممّا قد يفعل ريموند، إلى العودة إليه من دون تأخير. خرجت من الأبراج السبعة، ممتطيًا جوادي تجاه الشرق، حيث المياه الحُلوة. أخذت طريقًا مختلفًا، بغاية صعود الربوة التي ذكرت سلفًا، التي تشرف على المدينة. كان منظاري

معي. نعمت المدينة بشمس الظهيرة، وشكّلت الأسوار المهجورة حدود تلك اللوحة الساحرة. كان قصر توبكابي أمامي مباشرة، والبوّابة القريبة منه كانت البوّابة التي اقتحمَها محمّد الفاتح، لمّا دخل المدينة. نمت أشجارٌ عملاقةٌ قديمةٌ بالقرب، وأمام البوّابة، لمحت جمعًا متحرّكًا من البشر؛ فرفعت منظاري إلي عيني، بفضول شديد. رأيت اللورد ريموند على جواده؛ وحوله مجموعةٌ صغيرةٌ من الضبّاط؛ وخلفهم جمع من الجنود المضطربين، بينهم عدد من الضبّاط الأدنى رتبة. كانوا عديمي الانضباط، منكّسي الأسلحة، لا يرافقهم عزفٌ ولا خفقُ رايات. كانت الراية الوحيدة بينهم، تلك التي حملها ريموند، وبها أشار إلى بوّابة المدينة. تراجعت المجموعة من حوله. فوثب غاضبًا من على جواده، وأخذ فأسًا كان معلّقًا بالركّاب، وذهب إلى البوّابة لكسرها. ذهب عددٌ قليلٌ من الرجال لمساعدته، ثم زاد عددُهم؛ فأزيلت العقبات من أمامهم بعد ضرباتهم المشتركة، البوّابة، فالشبك الحديدي، فالسواتر، كلّها أزيلت؛ وصار الطريق الذي أضاءته الشمس، سالكًا أمامهم، إلي قلب المدينة. تراجع الرجال، وبدوا خائفين ممّا فعلوا، ووقفوا كأنّهم ينتظرون أن يطاردَهم شبحٌ عَتِيٌّ، انتقامًا لخدشهم هيبته بأن فتحوا البوّابة. وثب ريموند بخفّة فوق حصانه، أخذ الراية، وقال كلماتٍ لم أستطع سماعَها، ولكن مع حركاته، المصحوبة بحماسة

طاغية، بدا أنّه يستحلفهم المُضيّ معه؛ بينما كانوا في تراجع مستمرّ من حوله، حتّى أثناء كلامه. فاعتراه السخطُ، وأحسبُ أنّ كلماتِه صارت مشحونةً بالاحتقار؛ ثم التفت عن جمعه المصاحب، وأمر نفسَه بدخول المدينة وحيدًا. بدا أنّ حِصانه جفل عن المُضيّ قُدُمًا، مخافةَ الهلاك. حتى كلبه المخلص، جلس في طريقه يئنُّ متوسّلًا؛ وفي لحظة، همز الحِصان المرعوب في جنبَيه، فقفز إلى الأمام، وانطلق يعدو في الشارع الكبير المهجور.

حتّى تلك اللحظة، كانت كلُّ روحي مجتمعةً في عيني. حدّقت بتساؤل ممزوج بالخوف والحميّة، وطغى هذا الشعور الأخير عليّ. نسيت المسافةُ التي كانت بيننا فصحّت، "سأذهب معك يا ريموند!"؛ ولكن لمّا أزحتُ المنظارَ عن عيني، بالكاد استطعت تمييز أفراد الجمع البعيد، الذي أحاط بالبوّابة التي تبعد قرابة الميل عنّي؛ فأضعت ريموند. أكلني نفادُ الصبر، فحثثت حِصاني على الإسراع، بأن همزته، وأرخيت له العِنان؛ عليّ أن أصلَ قبلَ وقوع الخطر، إلى جانب صديقي الشبيه بالآلهة. اعترض طريقي عددٌ من الأبنية والأشجار لمّا صرتُ في السهل، وحجبت المدينةَ عن عيني. فجأة، سمعت ارتطام في تلك اللّحظة. دوّى كالرعد في الأرجاء، بينما أظلمَ الجوُّ. وبعد لحظاتٍ، ظهرَتِ الأسوارُ أمامي مرّة

أخرى، وفوقَها سحابةٌ داكنةٌ من الغبار، تلفُّ المباني الشاهقة، التي لم يظهر منها إلا قليلٌ من الأثر؛ بينما استعرَتِ النيرانُ في الأسفل، وملأ دويّ الانفجارات الأسماعَ. هربًا من الحطام المتطاير، الذي جاوز الأسوار، وهزّ الأبراج المغطّاة باللبلاب، أخذ حشدٌ من الجنود الطريق الذي كنتُ أسلكُه؛ فأحاطوا بي وأعاقوا حركتي. بلغ بي نفادُ الصبر مبلغَه؛ فمددتُ يدي للرجال، واستحلفتُهم بأن يعودوا لإنقاذ قائدِهم، فاتحِ إسطنبول، ومحرّرِ اليونان؛ هملتِ الدموعُ، نعم الدموع، من عيني؛ ولم أصدّق هلاكَه؛ إلّا أنَّ كلَّ سحابةِ غبارٍ كانت تحملُ خبرَ استشهاد ريموند. تمثّلت لي صورًا مريعة في تلك السحابة المضطربة التي ترفّ فوقَ المدينة، وكانت عزائي الوحيد في كفاحي للوصول إلى المدينة. لكن، حين بلغت هدفي، لم أرَ خلفَ الأسوارِ الشاهقةِ إلا مدينةً من نار؛ ولفّتِ النارُ والدخانُ الطريقَ الذي سلكَه ريموند حينَ دخل المدينة. توقّفتِ الانفجاراتُ بعد تعاقبها؛ ولكن استمرّ اشتعال النيران، التي انطلقت في نواحٍ أخرى؛ واختفت قبة أيا صوفيا. من الغريب، (قد يكون ذلك عائدا إلى اصطدام الهواء، بهواء المدينة الساخن) أن غيمة ضخمة بيضاء تجمعت في الأفق الجنوبي، ثم اتجهت إلى فوق المدينة. كانت أول مرة أرى فيها غيوما، منذ أشهر، في تلك السماء الزرقاء، وفي وسط الدمار واليأس ذاك، أثارت سروري.

أظلمت السماء، وأومض البرق من تلك الغيوم الثقيلة، وأعقبها رعد مدوٍّ؛ ثم هَطَلَ مطرٌ كثيفٌ. خبت نيرانُ المدينة تحت المطر، وتلاشى دخانٌ وغبارُ الحطام.

أول ما رأيت خفوتَ سعير اللّهب، أسرعتُ مدفوعًا بباعث لا يكبح، محاولًا دخول المدينة. استطعتُ فعلَ ذلك راجلًا، فقد جعلت كثرةُ الحطام ركوبَ الحصان أمرًا غيرَ عملي. لم يسبق لي دخول المدينة، وكنتُ جاهلًا بها. كانت الشوارع مسدودةً، والحطامُ يثير دخانًا؛ صعدتُ فوق كومة، لأرى كثيراتٍ غيرها؛ ولم يدلّ أيُّ شيءٍ على قلب المدينة، أو أيّ اتجاهٍ سلك ريموند. توقّف المطرُ، وغابتِ الغيومُ في الأفق البعيد؛ كان الوقتُ مساءً حينَها، وغربتِ الشمسُ سريعًا في السماء الغربية. مشيتُ بصعوبة إلى أن بلغتُ شارعًا احترقت بيوتُه الخشبيةُ بعضَ الشيء، وأطفأ المطرُ نارَها وأبردَها؛ ولم يمسسها، لحُسن الحظّ، ضررٌ من الانفجارات. فأسرعتُ إلى أعلاها؛ ولم أرَ قبل ذلك الحين أثرًا لأيّ إنسان. لم يكن أيّ من الجثث المشوّهة التي وجدت، لريموند. لذا أشحتُ بنظري عنها، بينما اشمأزّ قلبي في داخلي. بلغتُ ساحةً خاليةً، توسّطها جبلٌ كبيرٌ من الحطام، دلّت على أنّ ذلك المكان كان لمسجدٍ كبير. ورأيتُ في الأرجاء، تناثُر قطعٍ تدلّ

على الثروة والترف، محروقةً، أو مهشّمة، ولكن ظلّت تعلن عن بهائها الذي كانت عليه، حتّى وهي حطام. جواهر، عقود من لؤلؤ، ملابس مطرّزة، فرو نفيسٌ، منسوجاتٌ متلألئة، وحلي شرقية، كأنّها جُمعت في هذا المكان لتحترقَ؛ لولا أن تدخّل المطرُ فأوقف ذلك الدمار قبل أن يتمَّ.

مرَّت ساعاتٌ وأنا أبحثُ عن ريموند بين الحُطام. أكوامٌ هائلةٌ، تداخلت بعضها في بعض؛ بينما سفعني حرُّ النيران التي لم تزل مشتعلةً. غربتِ الشمسُ، وأظلم الجوُّ؛ ولم يَعُد كوكبُ الزهرة الساطع الوحيد. تسلّط وهجُ النيران، كاشفًا ومؤكّدًا على حال الدمار، بينما اتخذتِ الردم حولي صورًا غريبة، مع امتزاج الضوء والعتمة. أسلمتُ نفسي وهلةً إلى قوة الخيال المبدع، وسكنت للصور المهيبة التي أظهرت لي. إلا أنّ نبضَ قلبي أعادني إلى الواقع الشاحب. في أيّ مكان، من غابةِ الموت هذه، أنتَ يا ريموند؛ يا فخرَ إنجلترا، ومحرر اليونان، وبطلَ التاريخ الذي لم يدوّن؛ في أيّ بقاع من هذه الفوضى المشتعلة، تناثرت بقاياك؟ ناديته بصوتٍ عالٍ، في بُهمَة الليل، فوق حُطام القسطنطينية الخَرِبة، كل شيء سمع اسمَه؛ ولكن لم يُجب صوتٌ؛ حتّى الصدى أصابه الخرس.

غلبني التعبُ، وأثقلتِ الوَحدةُ روحي. وشلّ الهواءُ الساخنُ

المحمّلُ بالغبار، ودخان المباني المحترقة، أركاني. وعضّني الجوعُ فجأةً، بشدّة. إذ فارقتني الفورةُ التي أقامت صلبي. فكان حالي، لما فارقني الأمل والحماس، وانهارت قواي، كالبيت الذي حلّت دعائمُه، فاهتزّ، وارتعش، ثم هوى. جلستُ على الدرج الوحيد الباقي لأحد الصروح، والذي كان عظيمًا ومهيبًا، حتّى بعد انهياره؛ وقامت زمرٌ من الجدران، لم تقتلعها الانفجاراتُ، في مجموعاتٍ رائعة، وأطلّ لهبٌ، بين الحين والآخر، في قمّة تلك الخرابة. تصارع الجوعُ والنعاسُ فيّ، إلى أن مرّت النجوم، واختفت من أمام ناظري. حاولتُ النهوضَ ولكنّ جفني المُثقلَ أطبَق، وسكنَت أطرافي المنهكة؛ فأرحتُ رأسي على الصخرة، وأسلمت إلى الشعور الرائع من عدم التفكير إطلاقًا. ووسط مشهد الوَحدة ذلك، وفي ليلةِ اليأسِ تلك، نمتُ.

الفصل الثالث

كانت النجومُ لا تزالُ ساطعةً، حين استيقظتُ، ودلّ برجُ الثور في جنوب السماء، أنّ الوقتَ كان منتصف الليل. أيقظني حُلمٌ مُزعِجٌ. إذ رأيتُ في الحُلم أنّي دُعيتُ إلى مأدُبة تيمون الأخيرة؛ وقد جئتُ بشهيةٍ مفتوحة، ولمّا رُفِعَتِ الأغطيةُ، خرج من الماء الساخن بخارَه الذي لا يشبع. ثم هربت من المضيف الغاضب، الذي كان متّخذًا هيئةَ ريموند؛ وزاد خيالي المريض، بأنّ الذين أرسلهم إلى مطاردتي كانوا ذوي رائحة نَتِنَةٍ. ثم أخذت هيئةُ صاحبي تتبدَّلُ، وتتشوّه، وتتضخّم، إلى أن صارت شبحًا هائلًا، يحملُ على جبينه علامةَ الطاعون. استمرّ تمدُّدُ الشبح، إلى أن ملأ السماء، وظلَّ يتمدّد وكأنّه يريدُ شقَّ السماءِ المحتوية للعالم. صار الكابوس عذابًا؛ وبصعوبة أفقتُ منه، وأعدتُ عقلي إلى حالته الطبيعية. كان أول ما فكّرتُ به، برديتا؛ ينبغي أن أكون معها، حتّى لا يصيرَ اليأسُ غذاءً لقلبها الجريح، وأن أُخرِجَها من حالة الحزن الشديد الذي سيتملَّكُها، لإحساسي الصارمِ بأنّ ذلك واجبٌ عليها، ولمَا سيغلبُ عليها من ندامة الحُبّ.

كانت النجومُ دليلي الوحيد. اتّجهتُ خارجًا من حُطام المدينة

الذهبية الكريه، وبعد جهدٍ عظيمٍ، نجحتُ في الفِكَاك من قبضتها. قابلت سرّية من الجنود خارج الأسـوار؛ واستعرتُ حِصان أحدِهم، ثم انطلقتُ مسرعًا إلى أختي. تغيّر وجهُ السهلِ في تلك الفترةِ القصيرةِ؛ فقد تفكّك المعسكر، وظلّت بقايا الجيش المنحلّ في سرايا صغيرة، هنا وهناك؛ وكلّ وجه فيها كان مكلَّلًا بالدهشة وخيبة الأمل.

دخلتُ القصر بقلبٍ حزينٍ، ووقف خائفًا من المُضيّ قُدُمًا، من النظر، ومن الكلام. كانت برديتا في وسط القاعة، جالسةً على الرخام، رأسها مُطرق، وشعرُها أشعث، وأصابُعها مشغولة تتصارع فيما بينها. كانت شاحبةً كالرخام، وكلّ شيء فيها كان قد نسجه الألم. أحسّت بوجودي، فنظرت لي بنظرة سائلة؛ كانت نظرتُها المشوبة بالأمل مثيرةً للشفقة؛ وماتت الكلماتُ قبل أن أنطقَ بها؛ وشعرتُ بابتسامةٍ شاحبةٍ ترتسمُ على شفتَي. فهمت إجابتي، وأطرق رأسُها من جديد، وعادت الأصابعُ تتصارعُ بلا كللٍ. أخيرًا، استعدتُ قدرتي على الكلام، لكنَّ صوتي أرعبها. فهمت المرأة المنكودة إلماحة هيأتي، ولكن لم ولن تقبل أن تصاغ مأساتها العظيمة، وتأكّد بالكلمات الجامدة. بل بدا أنّها تحاول تشتيتَ أفكاري عن ذلك الموضوع، إذ قامت من على الأرض

وقالت: "صه! نامت كلارا بعد بكاءٍ مرير. ينبغي ألّا نزعجها". قعدت على المقعد ذاته، الذي انثنَت عليه، حين تركتُها ذلك الصباح؛ لتستريحَ إلى قلب ريموند؛ لم أجرؤ على الاقتراب منها، ولكن جلستُ في زاوية بعيدةٍ، أراقبُ هلعَها. بعد حينٍ، وعلى نحوٍ مفاجئ، سألت، "أين هو؟ لا تخف، فلستُ أحملُ أيَّ أملٍ! ولكن قل لي، هل وجدته؟ كلّ ما أريد هو أن أضمَّه مرةً أخيرةً بين ذراعَي، ولا يهمُّني أيّ هيئةٍ صار عليها. ينبغي أن أجده، حتّى وإن تكوّمت القسطنطينية فوقَه كقبرٍ؛ ولا يهمُّني حينَها لو أهلتُم علينا المدينة كلَّها، ما دام يضمُّ ريموند وبرديتا قبرٌ واحد". ثم تشبثَت بي، وهي تنتحبُ، وقالت باكية، "خذني إليه يا ليونيل القاسي. لمَ تُبقيني هنا؟ لا أستطيعُ إيجادَه وحدي، ولكنّك تعرف أين يرقدُ، قُدني إليه".

ملأني عويلها المعذّب بشفقة مفرطة. ولكن، سرعان ما رحتُ أحاول تصبيرها وثنيها عن تلك الفكرة. فقصصتُ عليها ما فعلت، وكيف حاولت أن أجدَ فقيدَها، وفشلي في ذلك. نجحتُ، بأن أدرتُ فكرَها إلى قصّتي، بأن أنقذَ عقلَها من الجنون. فناقشتني، بهدوءٍ ظاهر، حول الأماكن التي يحتملُ أن يوجدَ فيها، واتفقنا على الوسائل التي سنتّخذُ لأجل ذلك. وبعد أن سمعَت عن

جوعي وإرهاقي، أحضرَت لي الطعام. استغلّيت الفرصة المواتية، وحاولت أن أوقظَ فيها شيئًا أعمقَ من الحزن القاتل. أخذني الشجونُ وأنا أتحدّث؛ فتدفّق الإعجاب العظيم والحزن، من قلبي الذي يفيض محبّةً صادقة، لكلّ ما كان ساميًا في حياة صديقي، وألهمتني تلك العاطفةُ مديحًا مسترسلًا في الثناء على ريموند.

"يا حسرةً علينا"، قلت، "نحن الّذين فقدنا آخر أشراف العالم! ريموند العزيز! التحق بشعوب الموتى؛ صار من ساكني القبور المظلمة، التي يذيع صيتُها بمَن سَكَنَها. سار على الطريق المؤدّي إليها، لاحقًا بأرواح العظماء الذين سبقوه. لا بدَّ أنّ الموت كان مريعًا، حين كان الخلق في أوله؛ إذ يفاق المرء أصحابه وعشيرته، ليسكن في وحدة غريبة وأرض مجهولة. ولكن، من يمت الآن، يجد صحبًا كثيرًا قد سبقوه، واستعدّوا لاستقباله. يحفل الموت بعظماء العصور الماضية، وبطل أيامِنا هذه على رأسهم؛ بينما تصير الحياة، صحراء خاوية. أنعم بريموند من رجل، خير رجال زماننا. ساد الجميع، بعظمة عقلِه، وجسارةِ فعلِه، وحُسن خَلقِه وخُلقِه. ولولا أن بدَّدَ الموت تلك التهمة، لألمَّ به عيبٌ واحدٌ. فقد سمعت من يقول عنه إنه متلوّن الغاية؛ بعد أن تخلّى عن حُلمه بالملك، لأجل الحُبّ، وتنازَل عن رئاسة إنجلترا، قيل إنه متقلِّب

الرأي، غيرُ ثابتٍ على غايته. الآن وقد توّج الموتُ حياته، سيذكر التاريخ إلى نهايته، أنّه كرّس نفسَه، مضحّيًا عن طيب خاطر، في سبيل مجد اليونان. كان ذلك خيارَه، وقد توقّع أن يموت. تنبّأ بأنّه سيفارقُ هذه الأرضَ الضاحكة، والسماء البهيجة، وحبَّك يا برديتا؛ بيدَ أنّه لم يتوانَ أو يتردّد، بل مضى قُدُمًا نحو غاية مجده. وستظلُّ ذكراه باقيةً، ما بقيَت هذه الأرض. ستبذُرُ عذارى اليونان الورود فوق قبره، ويملآن الجوَّ حولَه بترانيمَ وطنيةٍ، يكون اسمُه فيها ممجّدًا".

رأيتُ ملامحَ برديتا وقد بدأت ترقُّ، وتبدّل عبوسَ الحزن إلى رقّة المحبّة. وتابعت: "وهكذا، يصير واجب الأحياء أن يشرفوا اسمَه. أن نجعلَ من اسمِه قرينًا للقداسة، ونذبَّ عنه كلَّ ذمّ بِذكرِ محاسنِه، وننثرُ عليه عبقَ الحُبّ واللوعة؛ حارسين ذكراه من التلاشي، وناقلين إيّاها إلى ذرارينا، طاهرةً من الدَّنَس. ذلك واجبُ أصحابِه، وواجبُك في ذلك أجلُّ وأعظمُ، يا برديتا، يا أمَّ طفلتِه. أتذكرين نشوتَك حين كنتِ تحملين كلارا وهي في مهدِ طفولتِها، ناظرةً فيها اتحادك وريموند؛ مبتهجةً لرؤية تجلّي خلود حبّكم، في ذلك الهيكل الحيّ. لا تزال كلارا كما كانت. تقولين إنك فقدت ريموند؟ لا! بل هو حيٌّ معك، وفيك. فمنه انبثقَت

هي، لحمٌ من لحمه، وعظمٌ من عظمه؛ وإن كان ما ترين من أثره في خدّها الناعم وأطرافها الرقيقة لم يكفيكِ، كما اعتدتِ؛ فلعلّك تجدين محبوبَك الطيّبَ والعظيم، في عاطفتها المتّقدة، وفي كمال عقلِها. ليكن همُّك رعايةَ تلك الشبيهة به؛ ليكن همُّك جعلَها جديرةً بنسَبه، حتّى إذا ما أشرقت مجدًا بنفسها، لا يصيبُها خجلٌ من أصلها".

بان لي أنّ أختي لم تعد تُنصت لي، حين أتيتُ على ذِكر واجباتِها. وبدا أنّها شكّت أنّني أخطّط لأنسيَها حزنَها، فثارت عليّ، حمايةً لحزنها الوليد. وقالت، "تتحدّث عن المستقبل، بينما همّي هو الحاضر. دعني أجد مسكن محبوبي الأرضي؛ لننتشلَه من أسفل التراب المجهول، علّ الناس إذا ما مرُّوا به مستقبلًا، يشيرون إلى قبره ويعرفون مرقده؛ ولنفكّر بعد ذلك بالأمور الأخرى، أي خطّة عيش سأتّخذ، أو أيّ مصيرٍ حدّدته لي هذه الحياة المستبدّة المتوحّشة.

استعددتُ للمغادرة من عندها، بعد استراحة قصيرة، لأنفّذ رغبتَها. وفي تلك الأثناء، انضمّت كلارا إلينا، والتي بدا من شحوب وجهها ونظرتِها الفَزِعَة، مدى تأثيرِ الحُزن على عقلِها الصغير. بدت مشحونةً بشيء لا تستطيعُ التعبيرَ عنه بالكلمات؛ ولكن، لمّا

سنحَت الفرصة لها، بغياب برديتا، توسّلت إليّ أن آخذَها لترى بوّابة القسطنطينية التي دخل والدها إليها. ووعدت بألّا ترتكب أيَّ حماقة، وأن تكون طيِّعة، وتعود سريعًا. لم أستطع رفض طلبِها؛ فلم تكن كلارا طفلةً عاديةً؛ فقد حباها وعيُها وذكاؤها ما للنساء الناضجات من حقّ. هكذا، سارت أمامي ممتطيةً حِصاني، يرافقُها الخادمُ الذي سيعيدُها، واتجهنا إلى توبكابي. وجدنا مجموعةً من الجُند مجتمعين. كانوا ينصتون، فقال أحدهم "تلك صرخاتٌ بشريةٌ". أجابه آخر، "تبدو أشبه بعواء كلب"؛ وعادوا للانحناء لسماع الأنين الخافت، الذي صدر من محيط المدينة. قلت، "هذه هي البوّابة يا كلارا، وذلك هو الشارع الذي انطلق والدك فيه يوم أمس". أيًّا كانت غاية كلارا وراءَ طلبِها أن تُجلبَ إلى هنا، فقد أحبطَها وجودُ الجنود. نظرت بحدّة إلى متاهاتِ الحُطام الداخنة، ثم عبّرت عن استعدادِها للعودة. في تلك اللحظة، ضرب أسامعَنا صوتُ عُواءٍ حزين، وتكرّر ذلك العُواء؛ "أصغ!" هتفت كلارا، "إنّه هناك؛ ذلك فلوريو، كلب والدي". كان من المستحل أن تميّزَ الصوتَ، ولكنّها أصرّت على قولِها، حتّى أيّدها الناس من حولنا. على الأقلّ، سيكون إنقاذُنا للمعذّب، إنسانًا كان أو حيوانًا، من أنقاض المدينة فعلا خيرًا. لذا وبعد أن أرسلت كلارا إلى المنزل، دخلت القسطنطينية مرة أخرى. رافقني عددٌ من الجنود الذين هم

من حرس ريموند الشخصي، متشجّعين بما رأَوا من سلامتي بعد دخولي المدينة من قبلُ.

إنّه لَمنَ المستحيلِ أن يتنبّأ أحدٌ بالأحداث العجيبة التي أعادت جسدَ صديقي الميّت إلى أيدينا. ففي جانب المدينة ذاك، حيث استعرت أشدّ النيران يوم أمس، والذي كان مطفأً، أسودَ، وباردًا، الآن؛ جثم كلبُ ريموند بجانب جثّة سيّده المشوّهة. لم يكن للحزن صوتٌ في ذلك الوقت؛ كانت الرزيةُ، على عِظَمِها، خرساءَ. عَرَفَني الحيوانُ البائس، ولعقَ يدي، ثم حبا قريبًا إلى سيّده، ومات. لا بدَّ أنّ حطامًا ساقطًا طرحه من فوق حِصانه، وهشّم رأسَه، فلم يبقَ من وجهه شيء. انحنيتُ إلى الجثّة، وأخذتُ بيدي طرفَ عباءته، التي لم تشوّه كثيرًا، كالجسد الذي تلفّه. قلّبته، بينما تحلّق الجنودُ ذوي البأس حولي، وندبوا أكرم ضحايا الموت، وكأنّ البكاءَ والرثاءَ سيعيدان إليه جذوةَ الحياة التي انطفأت، أو يجمعان بيتَ الروح المحرّرة، ومحبسها اللحمي. أمس، كانت تلك الأطراف تعدل الكونَ كلَّه؛ فقد حوت حينَها روحًا متعالية، جديرٌ بأن تُدوّنَ كلماتُها وأفعالها ومقاصدها بأحرف من ذهب. أمّا الآن، فلا يهب قيمة لهذا الجسد المهشّم الجامد العاجز، والذي لم يعد يشبه شيءٌ منه ريموندَ، إلا الحبّ المعنويّ. وما حالُ جسدِه الآن إلا كالمطر،

الذي كان مسكنُه غيمةً في شاهق السماء، وَشَتها الشمسُ بنورِها، فالتفتت كلُّ الأنظار إليها، وامتلأت بهاء مفرطًا.

كذلك كان حالُه الذي صارت إليه هيئته الدنيوية، مشوّهًا وتالفًا. لففناه بمعاطفنا، ورفعنا جسده، وخرجنا به من مدينة الأموات تلك. ثار سؤالٌ، حول المكان الذي ينبغي أن يُدفن فيه. في طريقنا إلى القصر، مررنا بالمقبرة اليونانية؛ فسجيتُه هناك، فوق لوحٍ من الرخام الأسود. رفرفت أشجارُ السرو فوقَه، ولاءم منظرُها الكئيبُ، الشبيه بالموت، انعدامَ الحياة فيه. قطعنا أغصانًا من أشجار القبور، ونشرناها فوقَه، ثم وضعنا سيفَه عليها. وتركت حرّاسًا ليحسروا كنز الطين ذاك، وأمرت بأن تقام مشاعلُ حوله، وألّا تُطفأ النار.

حين عدت إلى برديتا، وجدتُ أنّ خبرَ نجاحي في مسعاي قد بلغَها سلفًا. عاد إليها محبوبها، والسيّد الأوحد لمحبّتها وعاطفتها. كانت تلك الكلمات الممسوسة التي نطقت بها، بحماسة. ما يهمّ إن لم تتحرك تلك الأطراف، أو عجزت تلك الشفاه عن التلفّظ بكلماتِ الحكمةِ والحُبّ! ما يهمُّ إن كان طريحًا للموت، كعشبة بحر مجتثّة من أصلها. إذ لم يزل هو ذلك الجسد الذي داعبت، وتلك الشفاه التي مسّت شفاهَها، وارتشفت روحُ الحُبّ من امتزاج

أنفاسهم. ذلك الصلصال الدنيوي الفاني، الذي كان لها. صحيح أنّها آمنت بحياة أخرى؛ وصحيحٌ أنّ روحَ حبّها بدت لها خالدةً لا تموت، أبدَ الدهر. بَيدَ أنّها، في ذلك الوقت، تعلّقت بحبٍّ بشريّ، بكلّ إحساس مكّنتها حواسُّها منه، لأن تكونَ جزءًا من ريموند.

كانت شاحبةً كالرخام، ووضّاءة مثله، وهي تستمع إليّ وأنا أقصُّ عليها الخبر؛ واستفسرَت منّي عن المكان الذي تركتَه فيه. زال عن ملامحها أثرُ الأسى المشوّه؛ أشرقَت عيناها، وانبسطت روحُها؛ ودلّ بياضُ بشرتَها، بل شفافيّتها، ورخامة صوتها، على الإثارة المُفرطة التي طغَت على السكون المستوطِن في ملامحِها. سألتُها عن المكان الذي ينبغي أن يُدفَن فيه. أجابت، "أثينا، بين الأثينيّين الذين أحبّهم. خارج المدينة، على منحدر هيميتوس، حيث توجد فجوةٌ أفصحَ لي بأنّه يودُّ أن يرقدَ فيها". كانت رغبتي الشخصية ألّا ينقل من المكان الذي أرقدته فيه. لكنّ رغبتَها كانت الماضية بالطبع؛ فطلبت إليها أن تستعدَّ، بلا إبطاء، للرحيل.

يحملنا الآن القطارَ الكئيبَ وهو يطوي أراضي تراقيا المستوية، ويمرّ مرّ السحاب، من فجاج مقدونيا وجبالها، ويكاتف أمواج بينوس الرائقة، ويقطع السهول اللاريسية، ويمرُّ من معبر ثيرموبيلاي، ويرقى بالتعاقب، جبلي أوتيا وبارناسوس، ثم ينحدرُ

على سهول أثينا الغنّاء. تحتمل النساء، باستكانة الطبع، بطء سير الأحزان تلك؛ أمّا الرجال عديمي الصبر، فلا طاقة لهم بسير القطار البطيء، واستراحات الظهيرة، والحضور الأبدي للنعش الملفوف بالقماش الفاخر، المشتمل على ريموند، والتعاقُب الرتيب لليل والنهار، اللذين لا يثيرهما تغيير ولا أمل بتغيير؛ كانت تلك ظروفًا لا تُحتَمل. انطوت برديتا على نفسها، وكانت قليلةَ الكلام. كانت مقصورتُها مغلقةً عليها؛ وحين كنّا نلتقي في وقت الاستراحة، كانت تجلسُ مرخيةً رأسَها على يدها البيضاء الشاحبة، ناظرةً إلى الأرض، وسابحةً في أفكار تعزلُها عن الحديث والمشاركة.

انحدرنا من بارناسوس، خارجين من طيّاته، ومررنا بلفاذيا في طريقنا إلى أتيكا. رفضَت برديتا دخول أثينا؛ واستراحت في ماراثون ليلة وصولنا. رافقتني في اليوم التالي إلى المكان الذي اختارته ليكون مرقدًا لرُفات ريموند. كانت فجوة في رأس وهد جنوبي هيميتوس. امتدّ الشقّ، العميق والمظلم، والمورّق، من رأس القمّة إلى قاع الجبل؛ ونبت فيه ريحان وزعتر برّي، قوت للعديد من قفائر النحل؛ وبرزت صخور عظيمة في الصدع، بعضُها أحـدبُ، وبعضُها مشرئب إلى الأعلى. في قاع ذلك الصدع الجليل، امتدّ وادٍ بهيج، متّصل بالبحر، ومن خلفه البحرُ

الإيجي الأزرق، متناثرة فوقه الجرز، ومتلألئة أمواجه تحت ضوء الشمس. وقفنا قريبًا من ذلك المكان، فوق صخرة متفرّدة، عالية وهرمية الشكل؛ بدت وهي مستوية باتساق من كلّ جانب، كأنّها هرم صقلته الطبيعة. كان شكل تلك الصخرة مثاليًّا، وأسفل منها، حُفر القبرُ الذي وضع فيه ريموند. وبإيجاز، كتب عليها اسمُ قاطن القبر، وسبب وفاته ومكانها.

تمَّ كلُّ شيء بسرعة، حسب أوامري. ووافقتُ على ترك إنهاء ترتيبات القبر، وحراسته، إلى رأس الكنيسة في أثينا؛ ومع نهاية أكتوبر، بدأتُ بالاستعداد للعودة إلى إنجلترا. ذكرت ذلك لبرديتا. آلمني الإحساس بأنني أنتزعُها من حضرة مَن أحبّت؛ ولكن، لم يكن من طائل من البقاء هناك؛ لقد مزّق روحي الشوق إلى آيدرس والأطفال. أجابت أختي بأن طلبت إليَّ أن أرافقها في اليوم التالي إلى قبر ريموند. وقد مرّت أيامٌ منذُ أن زرتُ ذلك الموضع آخرَ مرة. كان الممرُّ قد وسع، ونُحِتَت سلالمُ في الصخور، ممّا سهّل طريقنا عمَّا قبل. وكذلك الأرض التي قام عليها ذلك الهرم، زيد في مساحتها؛ وإلى الجنوب، في صدع تكتنفه أغصان أشجار التين البرّية المتصارعة، رأيتُ أساساتٍ تحفرُ، ودعامات وعوارض خشبية تجهز، كانت بلا شك تجهيزاتٍ لإقامة كوخ. وقوفًا على

عتبته التي لم تُنجَز بعدُ، كان القبر إلى يميننا، وأماننا الوادي بأسره، والسهل، والبحر الأزرق. أضاءت الصخور السوداء بنور الشمس المنحدرة، والتي امتدَّ نورُها ليغمرَ الوادي المحروث، وصبغت الأمواج الساكنة باللونَين البنفسجي والبرتقالي. جلسنا على ذلك الهضب الصخري، ونظرت مأسورًا إلى ذلك المشهد الساحر، ذي الألوان الحيّة المتقلّبة، والتي قلبت معها جمال الأرض والبحر وبهاءهما.

قالت برديتا، "هل أحسنتُ صنعًا بأن دفنتُ محبوبي هنا؟ سيكون هذا المكان قِبلة أنظار اليونان في الأيام القابلة. يتهاوى رعب الموت في هذا المكان، حتّى الجثمان الهامد ليبدو كأنّه يشارك البهجة في البهاء الذي يلفُّ هذا المكان. يرقدُ هنا يا ليونيل. ذلك قبر ريموند، الذي كان أول من أحببت في شبابي؛ الذي لم يفارق قلبي حتّى في أيام فراقنا وسخطنا؛ والذي لن أفارقه الآن، إلى الأبد. لن، واشهد على كلامي، أفارقَ هذا المكان أبدًا. أحسب أنّ روحَه باقيةٌ في هذا المكان، مثل جسده؛ حتّى إن كانت غير محسوسة، فهي أغلى عندي من كلّ ما ضمّت هذه الأرض الثكلى بين أحضانها. كلّ نبت الريحان، والزعتر، وبخور مريم، المنبثق من الصخور، به من روحه. والضوء الذي يحيي الجبال

والتلال، والسماء، والبحر والوادي، مشبع بعبق روحِه. سأعيشُ وأموتُ هنا! اذهب أنت إلى إنجلترا، يا ليونيل؛ عُد إلى حبّك آيدرس، وعزيزك أدريان؛ عُد وخُذ معَك فتاتي اليتيمة، وأحسن إليها مثل ابنةٍ لك. عُدَّني ميتة؛ وإن كان الموت حقًّا لا يعدو تغيّرًا في حال المرء، فأنا ميتة فعلًا. هذا عالمٌ مختلفٌ عمّا عرفت، وعمّا تعرف أنت. لا صلة لي هنا، إلّا بما كان، وما سيكون. اذهب إلى إنجلترا، واتركني وحيدة هنا، راضية بجر أيامي البائسة التي بقيت لي لأعيشها".

قطع سيل من الدموع خطبتَها. توقّعت أن يبدرَ منها طلبٌ متهوّر، فبقيتُ صامتًا فترةً من الوقت، واستجمعت أفكاري، علي أثنيها عن خطّتها الحالمة تلك. قلت، "تركنين إلى أفكار موحشة يا عزيزتي برديتا، ولست أعجب إن طغى الحزن الجارف والأفكار المضطربة على عقلك فترة من الزمن. حتّى أنا أحنُّ إلى البقاء هناك، لأجاورَ منزلَ ريموند الأخير؛ ولكن ينبغي لنا ترك هذا المكان".

صاحت برديتا، "توقّعت ذلك؛ أن تعاملني كفتاةٍ حمقاءَ مجنونةٍ. لكن لا تخدعنّ نفسَك، فقد بني هذا الكوخ بأمري، وسأظلّ هنا إلى أن تحين ساعتي، وأشاركه نُزلَه".

"عزيزتي!"

"ما الغريب فيما أنوي؟ كنت أستطيع أن أخاتلك، وأقنعك بأن أبقى هنا بضعة أشهر فقط؛ وتعود إلى وينزر مصحوبًا بالقلق عليّ؛ وأمضي بعد ذلك في خطّتي، بلا عتابٍ منك أو خصام. ولكنّي أمقتُ المكر؛ ولعلّ عزائي الوحيد في بؤسي هذا، في أن أنفض خبيئة قلبي لك يا أخي وصديقي. لن تجادلني في ذلك؟ فأنت تعلمُ عزم أختك المفجوعة المسكينة. خذ ابنتي معك، وافطم سمعَها وبصرَها عن حزني. لتكن المسرّة، الزائرة الدائمة، زائرتها الواصلة، ومنظرة وجهها؛ فخيرٌ لها أن لا تقاربني؛ وخيرٌ لكم جميعًا ألّا تروني أبدًا. أمّا أنا، فلن أطلب الموت طواعية، طالما ظلّ قياد نفسي في يدي؛ وذلك أمرٌ أُطيقُه هنا. ولكن، إن نُزعت من هذا المكان، سيطيش عقلي، ولن أستطيع كبحًا لجماحِ ألمي الذي سيقودُني لفعل ما يريد".

أجبتها، "صِغْتِ أفكارَك بكلماتٍ جليلةٍ يا برديتا، ولكنّها أفكارٌ أنانيةٌ ولا تليقُ بك. طالما وافقتني القول بأنّ هناك حلًّا واحدًا للغز الحياة؛ وهو أن نجودَ أنفسَنا، ونسهم في إسعاد الآخرين: والآن، في زهرة حياتك، تتخلَّيْنَ عن مبادئك، وتنطوين في عزلة لا طائل منها. أسيقلُّ ذكرُك لريموند في وينزر، مسرح سعادتك الأولى؟

أم ستقلُّ مناجاتُك لروحه، بينما ترعين وتنمين مواهب ابنتك الفريدة؟ أصابك بلاءٌ عظيمٌ، ولست أعجب أن ينتابَك شعورٌ نسيبٌ للجنون، ويقودُك إلى رأي منافٍ للعقل. ولكنّ منزلًا مليئًا بالحبّ ينتظرُك في بلدِك الأمّ، إنجلترا. سيهدأ حبّي وحناني من ألمك؛ وسيكون لك في رفقة أصحاب ريموند سلوان أفضل من هذه الأفكار الكئيبة. سيكون إسعادُك شغلَنا الأهمَّ والأعزَّ علينا".

هزّت برديتا رأسَها، وأجابت، "لو كان الأمرُ كذلك، فسيكونُ رفضي لعرضِك خطأً فادحًا. ولكن الأمرَ ليس في خانة الخيار؛ لا أستطيع العيشَ إلا هنا. أنا جزءٌ من هذا المكان، وكلّ بضع منه جزءٌ منّي. وليس هذا خيالًا عارضًا؛ هل هذا ما يحييني. فإحساسي بكوني في هذا المكان يفيق معي كلّ صباح، ويعينُني على المُضيّ في يومي؛ يختلط بطعامي، الذي لولاه لكان سمًّا؛ ويشاركُني ممشاي ونومي، رفيقًا أبديًّا. سأكفُّ عن التذمر هنا، وربّما أبلغُ الرضا عن حكم القَدر الذي أخذه منّي. كان ليفضلُ موتًا كذاك، يُذكَر في التاريخ إلى أبد الآبدين؛ على أن يعيش مجهولًا، إلى أن يشيخ. وكذلك لا أجد في نفسي، شيئًا أحبَّ إليها، من كوني محبوبة قلبه؛ لذا سأقضي زهرة شبابي، قبل أن يذويَ الشيبُ مشاعري وجسدي، مجاورةً قبرَه، إلى أن ألتحق به في قبره السعيد.

أكثرت من القول، يا عزيزي ليونيل، بغية إقناعك بصواب ما أقوم به. وإن لم تقتنع، فلا حجّة أخرى عندي لأضيفَها؛ لا شيء سوى إعلاني عن ثبات رأيي. سأبقى هنا، ولن أزحزح إلا بالقوة. وإن أخذتني من هنا، فسأعود؛ احبسني، اسجني، فسأهرب وأعود إلى هنا. أيفضّل أخي أن يسلِّم قلب برديتا الكسير إلى أصفاد الجنون، على أن يتركها بسلام في ظلال صحبته، في هذا الصدع المصطفى العزيز؟"

بدا لي أنّ كلَّ ذلك جنونٌ ممنهج، وهيّأ لي أنّ الواجب يحتم عليّ أن أبعدَها عن الأماكن التي تذكرها بمن فقدت. لم يخالطني شكٌّ، بأنّها ستتعافى وتعود إلى هدوئها تدريجيًّا، في سكينة حلقة عائلتنا في وينزر، إلى أن تعود إلى سعادتها في النهاية. دفعني أيضًا حبّي لكلارا، لأن أعارضَ أحلامَ الحزن هذه؛ فقد كادتُ مشاعرَها، إلى أن تبدلَ طيشَ طفولتها بالقلقِ العميق. وقد تؤدّي خطّة والدتها الحالمة والغريبة، إلى سرمدية نظرتها إلى الحياة كميدان للعذاب، تلك النظرة التي اقتحمت فكرَها مبكّرًا.

عندما عدنا إلى المنزل، جاء قبطانُ الباخرة الذي اتفقتُ على الإبحار معه، وأبلغني بأنّ أمورًا طارئةً حتّمت عليه الإبحارَ المبكّر؛ وأنّه، إن كنت أنوي السفرَ معه، فعليّ ركوب السفينة عند

الخامسة، في اليوم التالي. وافقت سريعًا، وأعددت بالسرعة نفسها خطّة لإجبار برديتا على مرافقتي. وأحسبُ أنّ معظم الناس كانوا ليقوموا بمثل ما فعلت، لو كانوا في مكاني. ومع ذلك، لم تزل هذه الفكرة، تُؤَنب ضميري. كنتُ مقتنعًا في ذلك الحين، بأنّني أقومُ بما خيرٌ لها، وأنّني على صواب، وأنّ الضرورة تُلزمني ذلك.

جلست مع برديتا، مبديًا موافقتي على خطّتها. واستقبلت ذلك منّي بسرور بالغ، وشكرت أخيها المخادع المخاتل آلاف المرّات. ومع حلول الليل، دبّت الحياة فيها، واستعادت حيويّتها التي كادت أن تفارقها إلى الأبد، لما رأت من تساهل غير متوقّع منّي. تظاهرتُ بالقلق لما رأيتُ من تورّد خدّيها؛ ورجوتُها أن تأخذَ شرابًا مهدّئًا. سكبت لها الشراب، وأخذته منّي طائعة. راقبتها وهي تشربه. ولشدة بغضي للكذب والخداع، انتابني شعور بالعار، على إيماني بأنّي فاعل للصواب. حملتُها، بعدما دخلَت في نوم عميق، تحت تأثير المخدر الأفيوني الذي أعطيتَها. وهكذا، حُملت غير واعية إلى ظهر السفينة. رُفعت المِرساة، ومع مواتاة الريح، أبحرنا مبعدين. انطلقنا بتظافُر الأشرعة المنشورة، والمحرّك، شاقّين وجه البحر الحالك، بسرعة وثبات.

أفاقت برديتا في وقتٍ متأخّر من النهار، وأخذت وقتًا طويلًا

حتّى نفضت عنها خدر الشراب الأفيوني، فأدركت تغيّر محيطها. نهضت غاضبة من أريكتها، وركضت إلى نافذة قمرتها. امتدّ البحر الأزرق الهائج حول السفينة، ولا شاطئ يحدّه. دلّها تناثر السحاب المتفرّق في السماء، ودلّتها حركته السريعة، على السرعة التي كانت تحمل فيها بعيدًا. صرير الصواري، رنين البكرات، وصوت الخطوات فوقها، كلّها أشارت على بعدها عن شواطئ اليونان. صاحت، "أين نحن؟ وإلى أين نحن ذاهبون؟"

أجابتها الخادمة التي كلفتها بمراقبتها، "إلى إنجلترا".

- "وأخي"؟

- "على ظهر السفينة يا سيدتي".

"يا لقسوته! يا لقسوته!" صاحت الضحية المسكينة، بينما نظرت متنهدة إلى البحر الأجردِ. ثم رمت نفسها فوق أريكتها، مغلقة العينين، ساكنة الحركة، من دون أن تضيف أيّ قول. ولولا تنهُّداتُها العميقة، لظنّ الناظرُ أنّها نائمة.

حالما سمعتُ بأنّها أفاقت، أرسلت كلارا إليها، علّ رؤية براءة

عزيزتها، يثير أفكارَ المحبّة الرقيقة فيها. ولكن لم يفلح حضورُ ابنتها، أو زياراتي المتكرّرة، بتهدئة نفس أختي. نظرت إلى كلارا بوجهٍ ملؤه الشفقة والحزن، ولم تنطق بكلمة. وحين كنت أظهر، كانت تشيح بنظرها عنّي؛ وتجيب أسئلتي بقول واحد، "لستَ تدري ما فعلت!" ظننتُ أنّ مثارَ عبوسِها لم يكن إلا الصراع الدائر بين خيبة الأمل والعاطفة فيها، وأنّها ستهدأ وترضى بقدرها بعد بضعة أيام.

حين جَنّ الليلُ، توسّلتْ أن تنام كلارا في غرفة أخرى. بينما بقيَت خادمتُها معها. وقرابة منتصف الليل، تحدّثَت إلى خادمتِها قائلةً بأنّها رأت كابوسًا، وطلبت إليها أن تذهب للتأكد من سلامة ابنتها، وأنها تنام بسلام. أطاعت الخادمة.

عاد النسيم الذي هدأ منذ الغروب، إلى الهبوب من جديد. وكنت على ظهر السفينة، مستمتعًا بالإبحار السريع. لم يكدر الهدوء إلا صوتُ المياه وهي تنشقُّ أمام رافدِ سفينتِنا، وحفيف الأشرعة الممتدّة عن آخرِها، وصفير الرياح الدافعة للقماش، وهدير المحرّك. كان البحر مضطربًا بعض الشيء، فتارةً يزبد، وتارة يلبس لونًا واحدًا. انقشعت الغيومَ من السماء، ولفّ الأثيرُ المظلمُ أركانَ البحر الشاسع؛ وطلعتِ النجومُ في السماء، تطلبُ

انعكاسًا ثابتًا لها في الماء، دون أن تدرك ذلك. كانت سرعتُنا لا تقلُّ عن الثمانية عُقد.

فجأةً، سمعتُ رشيشًا في البحر. هرع البحّارةُ المناوبون إلى جانب السفينة وهم يصيحون: سقط شخص من السفينة! قال قائد الدفّة، "لم يكن على ظهر السفينة، شيءٌ ما قُذف من نافذة الغرفة اليسرى". أصدر أمرًا بإنزال قارب. وهرعتُ إلى غرفة أختي؛ التي وجدتُها فارغة. توقّفت السفينة، عكس ما تشتهي، بعد أن رفعت أشرعتها وأوقف محركها، إلى أن رفع جسد مسكينتي برديتا، بعد ساعة من البحث. ولكن، لا ترياق يستطيع أن يعيد الحياة إليها، ولا طب يعيد فتح عينيها الغاليتين، والتدفّق لدمها، والنبض لقلبها. كانت إحدى يديها قابضةً على قطعة من الورق، كُتب عليها، "إلى أثينا". لتضمن عدم ضياع جثّتها، في البحر الفسيح، ربطت خصرها، احتياطًا، بطرف شال طويل، وطرفه الآخر بنافذة الحجرة. وسحب جسدها، بشكل ما، أسفل رافد السفينة، فكان غيابُها عن النظر سببًا في تأخّر العثور عليها. وهكذا، قضت الفتاة سيّئة الطالع، ضحية لتهوري وطيشي. هكذا، تركتنا في سن باكرة، لتصحب الأموات، وفضل السكنى في نزل ريموند الصخري، على مسرح الأرض ذات الألوان البهيجة، وصحبة أصدقائها

المحبين. هكذا، رحلت في سن التاسعة والعشرين؛ بعد أن قضت بضع سنوات في نعيم الجنة، متخلصة مما تعجز روحها وطبعها المحب عن تحمّله. شعرت وأنا أنظر إلى ملامح محيّاها التي أُحب بالموت، وعلى تأنيب الضمير، والندم الذي مزّق قلبي، بأنّه كان خيرًا لها أن تموت، على أن تجرّ حياة طويلة بائسة من العبوس والحزن الذي لا نهاية له. دفعنا الخوف من الجوّ إلى البحر الأدرياتيكي، ولمَّا كانت سفينتنا غير مجهّزة للأجواء العاصفة، لجأنا إلى ميناء أنكونا. وجدت هناك جورج بالي، نائبَ أمير بحر الأسطول اليوناني، صديق قديم، وأحد أشياع ريموند. أودعتُ جثمانَ أختي الفقيدة إلى رعايته، لغرض نقلِها إلى هيميتوس، ودفنها في القبر الذي يسكنه ريموند، أسفل الهرم. وتمّ ذلك وَفق ما أردت. رقدت بجانب محبوبها، وحمل شاهد القبر اسميهما معا، ريموند وبرديتا.

ثم عزمت على مواصلة طريقي إلى إنجلترا. كان قلبي مضنًّا بالندم ووخز الضمير. لقد غشيني استيعابُ عِظَم المصاب ببطء، وأنّ ريموند قد رحل إلى الأبد، وأنّ اسمه صار لصيقًا بالماضي، أبدًا، وأنّه واجبٌ مسحه من أيّ مستقبل مستشرف. لطالما أعجبت بمواهبه، ونبل مقاصده، وجلالة المجد في عينيه، وعظم شأوه،

وتوقه الشديد للمغامرة، وجرأته وجلده. أحببته في اليونان، وزادني فيه حبًّا تمرّده وإيمانه الشديد في الخرافة؛ وقد يكون ذلك من نقاط ضعفه، إلا أنّها أضداد للجبن والأنانية. ضمّ إلى تلك فقدي لبرديتا، التي أهلكها رأيي وإصراري الملعونين. تلك العزيزة، وقريبتي الوحيدة، التي رأيتها تكبر من نعومة أظفارها، مرورا بأطوار الحياة، ورأيت بلوغها تمام الشرف والإخلاص والمحبة، وجمعها لكل ما يميز المرأة الغرّاء؛ إلى أن شهدت افتراس الحبّ المفرط لها، وتعلّقها الشديد بمَن باد وهلك. خلعت عن نفسها رداءَ الجمال البهيّ والحياة، وطرحت جانبًا زيفَ العالم الظاهر في سبيل القبر الغيبي، تاركة كلارا المسكينة، يتيمة الأبوين. أخفيت عن فتاتي العزيزة أنّ موت والدتها كان انتحارًا، وحاولت بكلّ الطرق، أن أوقظَ البهجة في روحها التي طرقها الحزن.

كانت أولى أفعالي، لأستعيد هدوء نفسي، هي أن ودّعت البحر. فقد جدّدت أمواجه المتعاقبة ذكرى موت أختي، وكأنّ هديرَه ترنيمةٌ جنائزيةٌ. وخُيّل إليّ أنّ كلَّ فُلك ارتمي في أحضانه، إنّما هو تابوت يحمل كلَّ من صدَّق ابتسامته الخادعة إلى الموت. وداعًا أيُّها البحر! هلمّي يا كلارا، واجلسي إلى جانبي في هذا القارب الهوائي، الذي يطوي بسلاسة وسرعة البحر الرائق، وبنعومة

يتدرّج في التيّارات الهوائية، وإن هزّت الرياح بنيانه الرقيق، فالأرض الخضراء تحتنا، نزلنا إليها والتجأنا إلى ركن مكين. تبارينا الطيور في هذه العلياء، ونشق الهواء بجسارة ورشاقة. ولا يثقل مركبنا الخفيف هذا، ولا تصفقه الأمواج حاملة الموت؛ بل ينشق الأثير أمام قيدومه، ويظلّلنا البالون الذي يحمله من شمس الظهيرة. وأسفل منّا سهول إيطاليا، أو جبال الأبينيني الشبيه بالأمواج؛ والخصب ساكن بين جنباتها، والغابات متوّجة لقممِها. يحملُ الفلاح السعيد الحرّ، النافض لقيود النمسا، حصاده الوفير؛ ويشيّد المواطن المتأدّب بناء المعرفة في بستان العالم، بلا خوف أو وَجَل. حملنا فوق قممِ الألب، ومن وديانها السحيقة، دلفنا إلى سهول فرنسا الغنّاء، وبعد رحلة جوّية استمرّت ستّة أيام، هبطنا في دييب، فطوينا أجنحتنا، ولففنا منطادنا. إذ جعل المطر الكثيف السفر الجوي أمرًا غيرَ ممكن؛ لذا ركبنا باخرة، وبعد إبحار قصير، نزلنا في بورتسموث.

لجّ الناس بقصّةٍ هناك. فقبل عدة أيام، ظهرت أمام المدينة سفينة كانت قد تعرّضت لعاصفة. كانت السفينة في حال يرثى لها، مصدوعة الجوانب، وأشرعتها ممزقة ومهملة، وحبال صواريها المحطمة متشابكة. دفعتها الأمواج إلى الميناء، ورست على

رمال الشاطئ عن المدخل. وفي الصباح، ذهب موظفو الميناء وعدد من المتسكعين إليها. تبيّن أن واحدا فقط، من طاقمها كان قد نجا. فقد نزل منها، ومشى بضع خطوات تجاه المدينة، قبل أن يصرعه الإعياء، ويحيق به الموت، فخر على الشاطئ الأجرد. وجدوه متصلّبًا، ويداه قابضتان ومضمومتان إلى صدره. كانت بشرتُه شديدةَ الاتساخ، وشعره ولحيته الأشعثان، علامات على طول معاناته. تهامس الناس بأنّه مات بالطاعون. لم يصعد أحد على متن السفينة، وشاعت أخبار عن مناظر غريبة كانت ترى ليلًا، أجسادًا تمشي على ظهر السفينة، وتتعلّق على صواريها. لم تدم طويلاً، فسرعان ما تهاوت أجزاؤها، وأُريت المكان الذي كانت قابعة فيه، حيث شاهدت قطعًا من أخشابها تسبح فوق الأمواج. دفن الرجل الذي نزل إلى الشاطئ، عميقًا في الرمال، ولم يعرف أحد شيئًا عن تلك السفينة سوى أنّها صنعت في أمريكا، وأنّها أبحرت من فيلاديلفيا قبل عدّة أشهر، ولم يبلغ خبر آخر عنها.

الفصلُ الرّابع

عدتُ إلى عائلتي في خريف العام 2092. تاقَ قلبي للقائهم طويلًا، وشعرتُ بشوقٍ عارمٍ مع اقترابِ رؤيتِهم. كانتِ الأجواءُ لطيفةً في المنطقة التي يسكنون. سرتِ السعادة، والحُبّ والسلام في طرائق الغابة، ورققت الهواء. بعد القلق والحزن الذي تحمّلت في اليونان، أعود إلى وينزر، كالطير الذي يأوي إلى عشه من العاصفة، ليطويَ جناحَيه في سكينة.

ما أحمق المغامرين، الذين يتركون مأواهم، عاركين أنفسهم في زحمة العالم، وما يسمّيها الرجال بـ "الحياة"، متاهة الشرّ تلك التي صيغت من العذاب. وحتّى نعيش في ذلك العالم، فلا ينبغي لنا أن نراقب ونتعلّم فقط، بل أن نشعر أيضًا؛ وألّا نكتفيَ بالمشاهدة، بل ينبغي لنا الفعل، وألّا نرسم، بل نكون جزءًا من اللوحة. لا بدَّ أن يكون الحزنُ العميقُ شقيقًا لأرواحنا، وأن يكمن الخداع لنا، وأن يخدعنا الماكر؛ ولا بد أن يلون الشك المسقم، والأمل الكاذب أيامنا؛ وأن يسكرنا اللهوُ والطربُ المنشي أرواحَنا، في أحيان أخرى. من الذي يتوق إلى مزيج الحياة هذا بعد أن عرفه؟ لقد عشت، وأمضيت أيامًا ولياليَ في المرح؛ والتحقتُ بركب الآمالِ

الطامحة، وأجذلني النصر. والآن، أغلق الباب دون ذلك، في وجه العالم، وأبني سورًا عاليًا يفصلني عن معتركه المحموم. ليعش بعضنا لبعض، وللسعادة؛ ولننشد السلام في بيوتنا، بجوار خرير جداول، وظلال الأشجار الوارفة، في جمال رداء الأرض، وبهاء أنوار السماء. لنترك "الحياة"، حتّى نعيش.

كانت آيدرس سعيدة جدًّا بقراري هذا. فلم تكن حيوية طبعها بحاجة لما يثيرُها، وكان قلبُها مبتهجًا بحبّي، وسلامة أطفالها، وجمال الطبيعة من حولها. كانت غايتُها رسمَ الابتسامة على كلّ من حولها، وأن تنشرَ والسكينة على وجود أخيها الهشّ. ومع رعايتها الحانية، إلا أنّ صحة أدريان ساءت بصورة ملحوظة. فقد كان المشي أو الركوب ينهكانه؛ ولم يكن يشعر بألم، إلا أنه بدا وكأنه يرتعش، طوال الوقت، وعلى شفير الموت. بيد أنه، وإن كان على تلك الحال لأشهر طوال، لم يثر فينا هلعا؛ وعلى كثرة ما كان الموت حاضرا في كلامه، وكأنه رفيق مألوف لخاطره، إلا أنه لم يألُ جُهدًا في إسعاد الآخرين، أو في صقل ملكات عقله المذهلة. مرَّ الشتاءُ، وحلَّ الربيع الذي بعث الحياة في الطبيعة جميعها. فلبست الغابةُ اللونَ الأخضر، ورقصتِ العجولُ الصغيرة مرحًا فوق الحشائش حديثة النموّ. ومرّ السحاب المحلّق سريعًا

فوق حقول الذرة الخضراء. وكرّر طائر الوقواق تحيّته بلا كَلَلٍ للربيع. وملأ العندليب، طائرُ الحُبّ ومحبوب نجم المساء، الغابة غناء. بينما تعلّق كوكب الزهرة في دفء الغروب، ورقد الاخضرار الفتيّ، مرتاحًا على امتداد الأفق الرائق. عمّ الفرح والطرب جميع القلوب، فقد شاع السلام في جميع العالم. أغلق يانوس أبوابه، ولم يمت إنسانٌ بيد إنسان آخرَ في ذلك العام.

قال أدريان، "ليدم هذا اثني عشر شهرا فقط، وستصير الأرض جنّةً. كانت طاقاتُ الإنسان موجّهةً لإهلاك بني جنسه قبلا. أمّا الآن، فهدفُها تحريرُ الإنسان وحفظه. الإنسان كائنٌ لا يسكن، ومطامحُه المتجدّدة تلك، ستأتي بالخير بدلًا من الشرّ. ستنزع دول الجنوب نير العبودية عن رقابها؛ سيفارقنا الفقر، ومعه سيزول المرض. ما الذي تعجز عن تحقيقه قوى الحرية والسلام، والتي لم يسبق لها أن اتحدت من قبلُ، في هذا العالم؟"

"حالم أنت، أبدًا، يا ابن وينزر!" قال رايلاند، غريم ريموند القديم، ومرشح الرئاسة في الانتخابات القادمة. "كن على يقين بأن الأرض لن تكون كما قلت، ولا حتى السماء، طالما بقِيَت فيها بذورُ الجحيم. حين تتساوى الفصول، ويكفّ الهواء عن تنفّس الفوضى، وتهجر الآفات والقحط وجهَ الأرض، حينها سيزول

المرض؛ حين تموت أهواء الرجال، سيغادرنا الفقرُ. عندما تنقطعُ الصلةُ بين المحبّة والكره، حينها سيعمُّ الإخاء. لازلنا بعيدين عن ذلك في وقتنا الحالي".

"لسنا بذلك البُعدِ الذي تظُنّ"، علّق عالم فلكي كبير بعض الشيء، اسمه ميريفال، "فالأقطابُ تقتربُ ببطء، ولكن بثبات؛ وخلال مئة ألف عام..."

قال رايلاند، "سنكون تحت التراب".

تابع الفلكي، "سيقترن قطبُ الأرض، مع القطب الكسوفي، وسيعمُّ ربيعٌ كونيٌّ، يحيلُ الأرض جنّةً غنّاء.

قال رايلاند بازدراء، "وسننعمُ بلا شكٍّ بذلك التغيير".

كانت الجريدة في يدي، وكالعادة كنت أقرأ الأخبار الواردة من اليونان. قلت "لدينا أخبار غريبة هنا، يبدو أنّ دمار المدينة الكامل، وافتراض أنّ الشتاء طهّر المدينة الخربة، شجّع اليونانيين لدخولها، وبدأ إعادة البناء فيها. ولكنّهم يضيفون، بأنّ لعنة الله على ذلك المكان باقية، ذلك أنّ الطاعون مسَّ كلَّ من تجوّل بين

جدرانها؛ فانتشر الوباء في تراقيا ومقدونيا؛ ويخشى أن يستعرَّ في الصيف القريب. لقد وضع شريط على حدود ثيساليا، وطبق حجر صحيّ صارم، مدة أربعين يومًا". أعادتنا الأخبار من تصوّرات الفردوس، المنتظِر مرور مئة ألف عام، إلى حاضر الألم والبؤس الحيّين على الأرض. فتكلّمنا عن الخراب الذي أحدثه الطاعون في كلّ أنحاء الأرض، في العام الفائت، وعن النتائج المرعبة التي ستحلّ في أوبته التالية. تناقشنا حول أفضل الطرق للوقاية من العدوى، وحول المحافظة على الصحة واستمرار النشاط، في المدن الكبرى إن أصيبت؛ مثل لندن على سبيل المثال. لم يشاركنا ميريفال الحديث؛ إنما انسحب قريبًا إلى آيدرس، وشرح لها كيف أن متعة الفردوس الأرضي بعد المئة ألف عام، شوّشت لمعرفته بأن جحيمًا أرضيًّا سيعقب، بعد حين من الوقت؛ عندما ينتحي القطب الكسوفي يمينًا. انفضت جماعتنا أخيرًا؛ قال رايلاند، "جميعنا حالمون في هذا الصباح، فنقاشنا حول احتمال وصول الطاعون إلى دولتنا ذات الإدارة الممتازة، يعدل حسابنا للقرون التي ينبغي أن تمرَّ قبل أن نستطيع زراعة الأناناس هنا في الهواء الطلق".

لكن، وعلى عبثية احتساب المدة إلى وصول الطاعون إلى

لندن، لم يسعني التفكير إلا بألمٍ بالغٍ، بالدمار الذي سيجرّه هذا الشرّ على اليونان. يتكلّم الإنجليز عن تراقيا ومقدونيا وكأنّها مناطق على سطح القمر، بلا أدنى فكرة عنها. وطأت تراب تلك المناطق، ووجوه ساكنيها مألوفة لي؛ واستمتعت، إلى حد لا يوصف، بالسفر عبر بلداتها، وسهولها، وتلالها، وشعابها، في العام الفائت. راحت تبدو لي صورًا لقرية وادعة، كوخ، أو بيت جميل في تلك النواحي، يسكنه أناس طيّبون، ويطاردني السؤال، أبلغ الطاعون ذلك المكان أيضًا؟ ذات الوحش الخفيّ، الذي رفّ فوق القسطنطينية ونهشَها؛ ذلك الشيطان الأقسى من العاصفة، والأضرى من النار، طليق في تلك البلاد الجميلة، واحسرتاه. أقضَّت تلك الأفكار مضجعي.

ازدادت الحالة السياسية اهتياجًا في إنجلترا، مع دنوّ موعد انتخاب الرئيس الجديد. وازدادت إثارة الحدث، لما شاع من أخبار تقول، إنّه في حال فوز المرشّح الشعبي، رايلاند، سيطرح موضوع إلغاء الألقاب الوراثية، والممتلكات الإقطاعية، للنقاش في البرلمان. لم ينطق بأيّ كلمة متعلّقة بهذه المواضيع في الفترة الحالية. وكان كلّ شيء معلّقا بمن سيفوز بالرئاسة، في الانتخابات الرئاسية. إلا أنّ ذلك الصمت كان بالغَ الإزعاج، إذ أظهر الأهميةَ

البالغةَ لذلك الموضوع؛ فقد خشي كلّ فريق أن يفتحَ بابَ الحديث عن الموضوع في وقت خاطئ، فيجر ذلك خصومة لا تنتهي.

بيد أنه لم ينطق صوت في قاعة القديس ستيفين بما اعتلج في الصدور، ولم تكتب الصحف عن ذلك؛ بينما، كانت أحاديث المجالس الخاصّة، وإن ابتدأت بحديث بعيد كلّ البعد عن ذلك الموضوع، تدنو من صلبه، مع دنوّ الكراسي بعضها من بعض، وانخفاض الأصوات. لم يتردّد النبلاء عن إبداء خوفهم؛ بينما سعى الحزب الآخر إلى التهوين من الأمر. قال رايلاند، "عار على البلاد أن تنشغل بموضوع بالألقاب والبهرجة؛ الأمر لا يستحقّ النقاش؛ مثل الحديث عن الألوان الجديدة لليافطات، أو بالتطريز على معاطف المشاة".

ولكن، أتستطيع إنجلترا نزعَ ردائها النبيل، والرضا بديمقراطية على الطريقة الأمريكية؟ هل سيمحى الفخر بالأنساب، والانتماء للنبالة، والمنزلة الرفيعة، والإرث البهي لتلك الألقاب؟ قيل لنا بأن ذلك لن يكون، فنحن شعب شاعري بطبعنا، ويسهل سحرنا بالكلمات؛ على استعداد لأن نطرز الغيوم بالأبهة، ونخلع الشرف على التراب. تلك الطبيعة أمرٌ فينا، ولن نفقدَها؛ وأمر إقرار ذلك القانون، سيرفع تلك النبالة عن بعضهم بالنسب، لتعمّ الجميع.

أكّد لنا بأن شهادة النبالة الوحيدة هي كون المرء إنجليزيًّا، وأنّنا بذلك نكون جميعًا نبلاء. وأنّه حين يزول الإحساس بالتمايز بين من ولدوا تحت العلم الإنجليزي، تكون المنزلة الرفيعة حقًّا مع كلّ بني البلاد. وأنّه على إنجلترا ألّا تنخدع، وتظن بأنّها ستكون بلا نبلاء؛ فالنبل سجية أبنائها، الذين يفوقون علوًّا، منذ مولدهم، سائر البشر، لكونهم أعلى منهم وأجلّ. فلا خوف على عرق حر كريم ومثقّف، في بلد يسودُ العقل فيه أحلامَ الرجال، ولا حاجة لمثلنا بأن نورث ألقاب النبل. إلا أنّ القائلين بذلك، لم يبلغوا مكانة الأقلية حتى حاولوا أن يفخموا حضورهم، بيد أنّ أعدادهم كانت قليلة، فخطابهم كان يداعب ميول قلّة من الناس من ذوي الارتباطات القديمة، أو الآمال الجديدة الحالمة. وكانوا في أعين الناس، كخيال فزّاعة تمثّل كل دنيء، ووضيع في الجمهورية.

وصل الطاعون إلى أثينا. وفرّ مئات الإنجليز المقيمين عائدين إلى بلدهم. أبناء أثينا العزيزون على ريموند، أحرار ونبلاء أسمى مدن اليونان، خرّوا كعرانيس الذرة الناضجة، أمام مِنجل عدوّهم عديم الرحمة. هُجِّرت أركانها الماتعة، واستحالت معابدُها وقصورها قبورًا، والتفتت هممُها جبرًا، بعد أن كانت منصبّةً على أسمى طموحات البشر، إلى اتقاء أسهم الطاعون المهلكة.

كانت تلك الكارثة لتثير فينا تعاطفًا عظيمًا؛ إلا أنّها مرّت مرور الكرام، لانشغال كلّ بالٍ بالجدل القادم. لم يكن الأمر كذلك بالنسبة لي، فقد تضاءل أمرُ النقاش حول الألقاب في عيني، لما ارتسمت لي مناظر العذاب في أثينا. سمعت عن موت الأبناء، الذين لم يكن لأبائهم سواهم، وعن الأزواج المتيّمين بعضهم ببعض. عن انحلال العُقد المشدودة بنياط القلب، عن فقد الصديق لصديقه، عن أمهات شابّات أثكلهنّ موت أول مولود لهنّ. اجتمعت تلك المآسي في ذهني، وأخذت وجوه من أعرف، وزادتني ألمًا على حال المعذّبين. كانوا أنصارًا، وأصدقاءً، وجنودنا صحبوا ريموند؛ وعوائل رحّبت ببرديتا في اليونان، وندبوا معها موت زوجها؛ قضى عليهم الموت، ووراهم التراب، في قبور لا شواهد لها.

كان سبب الطاعون في أثينا العدوى التي جاءت من الشرق، واستمرّ الهلاك بحجم مخيف. ظلّ الأملُ حيًّا في التجّار المتصلين بتلك المناطق، بأنّ هذه ستكون السنة الأخيرة للطاعون؛ ولكن، في حيث ضرب، لم ير السكّان بارقة أملٍ، واستسلموا للموت، مدفوعين بإيمان سوداوي أعمى. وأصابت العدوى أمريكا أيضًا؛ وسواء كانت حمى صفراء أو طاعونًا، فقد انتشر الوباء بسرعة، قبل أن يدرك وجوده. لم يقتصر اجتياحه على المدن فقط، بل انتشر في

الريف؛ فمات القانص في الغابة، والفلّاح في حقل الذرة، وصيّاد الأسماك في النهر.

وردت قصةٌ غريبةٌ من الشرق، ولم يكن أحدٌ ليعيرَها انتباهًا لولا كثرةُ مَن شهدوا لصدقِها، في أماكنَ مختلفةٍ في العالم. يقال بأنه في الحادي والعشرين من يونيو، أشرقت شمسٌ سوداءُ؛ جرمٌ أسودُ، بحجم القمر، إلا أنّه أظلم، وكانت أشعّتُه ظلالًا. طلع من الغرب، وفي غضون ساعة كان في وسط السماء، وكُسفَ شمسُ النهار. عمّ الظلامُ كلَّ الدول، ليلٌ أدهمُ، مفاجئٌ، مدلهمٌ، لا ضوءَ فيه. ظهرت نجومُ السماء، وسطعَت بنورِها الذي لم يسعف، أرملة النور، الأرض. ولكن، سرعان ما مرّ الجُرمُ المعتم من أمام الشمس، وتدلّى هابطًا شرقي السماء. وبينما كان يغرب، تقاطعت أشعةٌ أصيلةٌ مع الأشعة الوضّاءة، فأخبت نورها وعكّرت نظارتها. واتخذت ظلالُ الأشياء أشكالًا غريبةً مرعبةً. فارتعبَتِ الحيواناتُ في الغابات من تلك الأشكال الغريبة على الأرض. ففرّت لا تلوي على وجهة؛ وامتلأ الناسُ برعبٍ أكبرَ، ممّا رأَوا من ارتجافِ السباع في الطرقات، وسقوط النسور، ذات الأجنحة القوية، في الأسواق، وبروز البوم والخفافيش قبل حلول الليل. رويدًا رويدا غاصَ فلك الرعب وراء الأفق، وإلى آخر لحظاته ظلّ يطلقُ أشعّته المعتمة

تلك في السماء البهية. كانت تلك القصة التي جاءت من أسيا، وأقاصي شرق أوربّا، وأفريقيا، وغربًا وصولًا إلى سواحل أمريكا. وسواء كانت تلك القصة حقيقة أم كان أثرها مؤكّدًا. ففي آسيا، من ضفاف النيل إلى سواحل البحر القزويني، ومن مضيق الدردنيل إلى بحر عمان، ضرب رعبٌ مفاجئ. فملأ الرجالُ المساجد، وانطلقتِ النساءُ المحجّباتُ إلى القبور، لتقديم القرابين للموتى، ليحفظوا الأحياء. نُسيَ أمرُ الطاعون، في حضرة الرعب الذي بثّته الشمس السوداء؛ وعلى كثرة الموت، وتكدّس الجثث التي قتلها الطاعون في شوارع أصفهان، وبكين، ودلهي، إلا أنّ الناس مرُّوا فيها وهم يحلقون إلى السماء المشؤومة، غير آبهين بالموت تحت أقدامهم. وانطلق المسيحيون إلى كنائسهم، وراحت العذارى متّشحات بالبياض، ومختمرات بخمر لامعة، في مواكب طويلة، يقصدن الأماكن المقدّسة، ويملأن الجوَّ بترانيمهنّ، وبين الفينة والأخرى تنفجر شفاه إحدى المسكينات، ممّن فُجِعنَ بقريب، بالنحيب. بينما تحلّق عيون البقية إلى السماء، علّهنّ يستبن جناح ملاك طائف بالأرض، باكٍ على ما أحاق الإنسان من كوارث.

في بلاد فارس المشمسة، ومدن الصين المكتظّة، وجِنان كشمير العَطِرة، وعلى امتداد السواحل جنوبي البحر المتوسط،

تكرّرت تلك المشاهد. حتّى في اليونان، زادت قصة شمس الظلام، خوف الناس من الهلاك الشامل. كنّا بعيدين عن الخطر في جزيرتنا الغائمة، وكان أقرب ما يصلنا منه تلك السفن القادمة من الشرق، كلَّ يوم، والمزدحمة باللاجئين، معظمهم من الإنجليز. فمع انتشار الذعر الشديد بين المسلمين، من الموت، إلا أنّهم فضّلوا البقاء معًا، حتّى يجدوا مَن يدفنهم في مقابرهم المقدّسة، التي تضمّ بقايا الصالحين منهم. وآمنوا بأنّ الموت ملاقيهم، سواء كانوا في البحر، أو إنجلترا، أو بلاد فارس. لم تشهد مكّة ازدحام حجاج مثل هذا من قبلُ؛ حتى إنّ العرب، تركوا سلب القوافل، وانضمُّوا وَجِلين عزل إلى مواكب الحجاج، وهم يصلون إلى الله ليدفع الطاعون عن خِيَمِهم وصحاريهم.

لا يسعني وصفَ نشوة السعادة التي اعترتني حين عدت إلى منزلي، بعيدًا عن مطارحات السياسة، والمصائب المحيقة بالبلاد البعيدة. إلى منزلي، منتجع المحبّة والخير؛ إلى السلام، وتبادل الرحمة السامية. لم تكن مشاعري لتكون بتلك الجِدّة، لو لم أترك وينزر يومًا. ولكنّي فعلت، وكنت في اليونان نهبًا للخوف والبؤس، وبعد ردح من القلق والحزن، شهدت رحيل اثنين كانت أسماؤهما رمزًا للعظمة والفضيلة. بَيدَ أنّ ذلك البؤس لم يجد

موطناً في هذه الحلقة التي بقيت لي. فكنّا نقضي أوقاتَنا، منعزلين، في سكينة وهناء. صحيح أنه طرأ بعضُ التغيير هنا، بمرور السنين؛ ودمغ الدهر، كعادته، هناء الفنّانين وآمالهم، بالموت. كانت آيدرس، الزوجة المحبّة، والأخت والصديقة، أُمًّا رقيقة ودودًا. ولم تكن تلك المشاعرُ إمضاءَ وقتٍ بالنسبة لها، بل شغفا. كان لنا ثلاثة من الأطفال، الأول، والثاني الذي مات أثناء إقامتي في اليونان. كان ذلك لطمة لمشاعر الفرح والأمومة، فترك فيها أثرًا من الحزن والألم. فقبل تلك الحادثة، كانت تدفع أبناءها، وورثة وجودها الدنيويّ إلى المرح، وكأنّ لهم صكًّا بعدم الموت. أمّا الآن فالخشيةُ ملازمةٌ لها، من أن يختطفَ الهادم، عديم الشفقة، بقية أعزائها كما اختطف أخيهم. فكان أدنى مرض ينبت فيها أشواك الرعب؛ وكانت في بؤسٍ طالما كانت غائبة عنهم، وكأنّها أودعت كنز سعادتها في أجسادهم الرقيقة، وقامت رقيبًا عليهم، حتّى لا ينفذ اللّصُ الماكرُ إلى جواهرِها الثمينة. لحُسن الحَظّ، لم يكن هناك الكثير ليثير مخاوفها. فألفرد، بعمر التاسعة الآن، كان فتى باسقا، ورجلًا صغيرًا، بوجه متألّق، وعينين حانيتين وأخلاق دمثة، على إبائه. أمّا صغيرنا، فكان لا يزال رضيعًا؛ إلا أنّ خدَّيه الناعمين أزهرا بحمرة الصحّة، وملأت حيويّته الدائمة القاعاتِ بالضحكات البريئة.

كبرت كلارا، وتخطّت السنَّ الذي كان مصدرَ خوفٍ لآيدرس. كانت كلارا عزيزةً عليها، وعلى الجميع. فقد امتزج فيها الذكاءُ والبراءة، والرفقُ والإحساس بالمسؤولية، والجِدّية مع الفكاهة، وجمال أخّاذ، اجتمع فيها كلُّ ذلك، فكانت مزيجًا من المحبّة والتواضع، كاللؤلؤة بين أيدينا، وكنزًا من العجائب والفضائل.

ذهب ألفرد، الذي كان بعمر التاسعة حينها، في أول الشتاء، إلى مدرسة أيتون. كانت تلك، بالنسبة له، الخطوة الأهم نحو الرجولة، لذا كان بالغ السعادة. زادته حلقات العلم واللهو تأديبًا، فجودت عزمَه الثابتَ، وكرمه، وحسن رأيه. أيُّ مشاعرَ فخرٍ تجيش في صدر الأب، حين يدرك أولَ مرّة بأنّ حبّه لابنه ليس مجرّد غريزة، بل عاطفة تليق بآخذها، وأنّ الآخرين من غير الأقربين، يشاركونه ذات المحبّة. كانت سعادتي وآيدرس لا توصف، لما رأينا يقينا بأن طلاقة وجهه، والذكاء في عينيه، والرجولة في صوته، لم يكونوا وهمًا نتوهّمه، بل علامات على فضائل ومواهب فيه، والتي ستكبر معه، وتزداد قوة بقوّته. يلجمُ الحبّ الغريزي عند تلك اللحظة، ويبدأ حبُّ الأبوة الحقيقي. لم نعد ننظر إلى عزيزنا كنبتةٍ ناعمة ينبغي مراعاتها، أو أنيس يؤنسنا في ساعة صفو. بل صرنا نعوّل على وعيه، ونبني الآمال نزعات الخير فيه. صحيحٌ أنّ صغر

سنّه يعكّر تلك المشاعر أحيانًا، وجهل حُلمه يمنع إسقاط صور الكلافة بيننا؛ إلا أنّنا بتنا نحترم رجلَ المستقبل فيه، ونسعى لتعزيز ثقته، ونعامله كندٍّ لنا. وأيّ شيء يريده قلب الأب، غير الذكرى الطيّبة عند الابن؟ لذا فالاحترام والشرف محفوظٌ في كلّ تعامل بيننا، ولا ينبغي أن يخدش. وقد تفرّق الأيام بيننا حين يبلغ نضجَه؛ إلا أنّ محبّة والديه وشرفهما، ستكونان درعَه وعزاءَه في الأخطار والصعاب، ورفاقه في طرق الحياة الوعرة.

عشنا طويلًا في أنحاء أيتون، حتّى صرنا على معرفة جيّدة بشبابها. كان العديد منهم رفاقَ لعبٍ لألفرد، قبل أن يصيروا رفاقه في المدرسة. صرنا نراقبُ اجتماعاتِهم الشبابية الآن، باهتمام أكبر، ونلاحظ فروقاتِ الشخصيّات بين الصبية، ونحاول أن نستكشف رجال المستقبل في أولئك المراهقين. لا شيء أحبّ إلى القلب من الشباب المهذّبين، الجسورين، الكريمين، ذوي الأرواح الحرّة. كان عدد من أبناء أيتون يتحلّون بتلك الصفات؛ عُرفوا بالشرف، وحبّ المغامرة. كانت أخلاق بعضهم، ممّن كانوا على مشارف سنّ الرجولة، تسوء وتنحدر إلى الوقاحة. لكنّ الصغار منهم، ومَن كانوا أسنَّ من ابننا بشيء بقليل، كانوا ينجلون عن شهامة وخلق رفيع. هناك، كان المستقبل الذي سيحكم إنجلترا، خلفنا، بعد أن

تبرد حماستُنا، وتنجح مشاريعُنا أو تفشل، بعد أن نتمَّ مسرحيتَنا، وننزع أزياءَ التمثيل، لنرتديَ ثيابَ الشيب، أو الموت الهامد. أولئك هم الرجال الذين سيدفعون قُدُمًا عجلة المجتمع العظيمة؛ أولئك هم العشّاق، والأزواج، والآباء، والسادة، والسياسيون، والجنود. كان من حماسة بعضهم أنّهم ظنوا بأنهم على استعداد، في عمرهم ذاك، للانخراط في معترك الحياة. قبل وقت غير بعيد، كنت كأولئك المُرْد الطامحين. وحين يبلغُ ابني مكاني الذي أنا فيه الآن، سأكون عجوزًا خطّ الشيبُ رأسه، وتجعّد وجهه. ما أغربه من نظامٍ! كأُحْجِيّات أبي الهول المذهلة! هكذا تحيا البشرية، بينما نفنى نحن الأفراد. وإليك أنقلُ ما صاغ أحدُ الفلاسفة، في قول بليغ: "ما الوجودُ إلا بقاءٌ دائمٌ، مكوّنٌ من أجزاء مؤقّتة؛ حيث إذا قدر لنا، أن نرى حياة البشرية في آنٍ واحد، لرأينا أنّها لم تكن يومًا مُسنّة، أو متوسّطة، أو فتية، بل في حالة استقرار ثابت لا يتغيّر، وتمضي قُدُمًا في تعاقبٍ أبديّ، انحلال، فتجدّد، وهكذا".

أتنحى لك عن طيب خاطر يا ألفرد العزيز! يا ثمرةَ الحُبّ العَذب، وابن آمالنا. امضِ جنديًّا، على الطريق نفسه الذي كنت سابقك فيه. سأشقّ طريقًا لك. طرحت عنّي رعونة الشباب، والبال الفارغ، وخيلاء الشباب، لتتزيّن أنت بها. أقدم، وسأضحي

بالمزيد لأجلك. سينزعُ الزمن عنّي زينةَ النضوج، والنارَ من عيني، ولدونةَ أطرافي، وسيسرقُ أجملَ متع حياتي، آمالي المتّقدة وحبّي الملتهب؛ ليسبغَها جميعًا، على رأسك العزيز، بضعف ما كانت لي. تقدّم! وانتفِع بما حُبيتَ به، أنت ورفاقك؛ ولا تهوّن من علمِك، وادخل في مسرح الحياة، في المعترك الذي أنت مقبلٌ عليه، ولا تتوانى في تأدية أدوارِك. لتكن نجاحاتُك محكمة، لا انقطاعَ لها؛ يا مَن ولدت في ربيع الإنسانية، قُدها، وكن جالبَ صيفِها الذي لا يعقبُه شتاء!

الفصل الخامس

خللٌ ما أصابَ الطبيعةَ، ودمّرَ الرفقَ فيها. هبّتِ الرياحُ، سيدةُ السماء، بجنونٍ في مملكتِها، جلدت البحرَ بغضب، وأخضعَتِ الأرضَ الثائرةَ إلى حدٍّ ما.

يرسِلُ الإله من عليائه طاعونَه الحانق
ومجاعةً ووباءً، فيموتون أكداسًا
ويثني ساخطًا بضربةِ انتقامٍ أخرى
تهوِي على جموعِهم، وتهدِمُ أسوارَهم المتهاوية
تُدمّرُ سفنَهم في المحيط
ويُغشَى بأسُهم بأمواج كالجبال

عصفت قوةُ الرياح المميتة بدولِ الجنوبِ المزدهرة. حتّى إنَّنا، في مخدعِنا الشمالي، شعرنا بشرّ بأسِها في الشتاء.

كاذبةٌ تلك الخرافةُ التي تعطي الشمسَ التفوّقَ على الرياح. مَن لم يرَ الأرض الطرِبَة، والجوّ الرائق والطبيعة المشمسة، تنقلب إلى ظلامٍ بارد لا يطاق، حين استيقظتِ الرياح النائمة في الشرق؟ أو حين تحجب الغيوم الحالكة السماءَ، بينما ينهمرُ المطر بلا

نفاد، حتى تلفظَ الأرضُ المترعةُ ما تسقى من ماء، ويغرق وجهُها بالبرك. وبعد أن ترتويَ شمسُ النهار، تنهضُ الغيوم شمالًا، وخلالها تنفرج فسحةٌ بينها، بفعل الرياح، وتطلّ السماء الزرقاء؟ ترقُّ الغيوم، وتظلّ في تباعد، إلى أن تجليَ عن السماء، وتسكبَ الشمسُ نورَها، يغذّيه ويحييه النسيمُ. لعظمتك هذه أيّتها الرياح، خليق بك أن تكوني على عرش قوى الطبيعة؛ سواء جئت مدمّرة من الشرق، أو حبلى بالحياة من الغرب؛ الغيوم طوع أمرك، والشمس خادمة لك، والبحور عبيدك! تطوفين الأرض، فتخضع أشجار السنديان العتيقة لفأسِك الخفِي؛ وتتناثر أكداس الثلج في قمم جبال الألب، ويهدر التيهور منحدرًا في أوديتها. بيدك مفاتيح الصقيع، وإن شئت تمسكي، أو تطلقي الجداول حرّة. وبعنايتك الحانية، تزهرُ وتألقُ البراعم والأوراق.

كيف تعصفين هكذا، يا ريح؟ أربعة أشهر طوال، تقصفين بلا انقطاع. حطامُ السفن متناثرٌ فوق شواطئ البحر، الذي صار سطحُه معجزًا للعابرين، بعد أن كان مضيافًا لهم. أخفرت الأرض جمالَها، وَجَلا منك؛ وجبُنت المناطيدُ الكسيحةُ عن التحليق في الجوّ المضطرب. طوع أمرِك الغيوم، التي تغرق الأرض بالمطر، والأنهار التي تعدو ضفافها، والسيول التي تشقُّ الجبالَ. سلبت

البهجةَ من السهول، والغابات، والأودية الخضراء، وأحلَّتِ الدمارَ على مدننا. واحسرتاه، أيَّ مصيرٍ سنلقى؟ بدتِ الأمواجُ العاتية، وأذرع البحر الهائلة، وكأنّها تبغي اجتثاثَ جزيرتنا من جذورِها، وقذفها محطّمة في غيابة المحيط الأطلسي.

أيُّ شيء نحن، سكّان هذا الكوكب، وأضعف الخلقِ الساكنِ في هذا الكون اللا متناهي؟ عقولُنا تعانقُ الأبدية، بينما تخرُّ أجسادُنا أمام أصغر الحوادث. كلَّ يوم يزيدُ إيماننا بذلك. منا من يُزلزلُ كيانه، والآخر الذي يفارق الحياة متأثّرًا بعداء الطبيعة من حوله، كلاهما مثلي في القوة، وما ينطبق عليهم من قوانين، ينطبق عليّ. وعلى كلّ ذلك، نسمّي أنفسنا سادة الخلق، مذلّلي الطبيعة، وسلاطين الموت والحياة. ونجبر غرورنا هذا بقولنا، صحيح أنّ الفرد يتلف، ولكن البشريةَ تبقى إلى الأبد. هكذا، نفقدُ فردانيتنا وهي أقربُ ما ندرك، في سبيل استمرار جنسنا، ونلقى الموت بلا خوف. لكن، حين يصير الشعب كلّه نهبًا لقوى الدمار الخارجية، يتضاءل الإنسان إلى مكانة حقيرة، إذ يحسُّ بارتخاء قبضته على الحياة، وباستئصال إرثه من الأرض.

أذكر أنّني لم أرَ نار موقد إلا وأثارت الخوف في، بعد أن رأيت بطش النار المدمّر. أحدقت النيران المتصاعدة حول المبنى وهو

ساقط، فدُمّر تمامًا. واندسّتِ النارُ في كلّ ما حولها، كلّ عائق تنحّى عن طريقها بلمسة منها. أنستطيعُ أخذَ بعض من تلك القوة، من دون أن نكون عرضةً لبطشها؟ أنستطيعُ تربيةَ شبل الوحش الضاري، من دون أن نخافَ اكتمال نموّه؟ هكذا، تسلّل الخوفُ إلينا، مع انتشار الموت، ذي الأوجه الكثيرة، في أرضنا الحبيبة. وكان الطاعون أكبرَ همِّنا. خشينا من قدوم الصيف. وبدأت الدول المجاورة للدول المصابة باتخاذ تدابير وقائية لتقيَ نفسَها من العدوّ. ولأنّنا بلدٌ تجاريٌّ، كنّا ملزمين بوضع خططٍ مماثلة. وصار الحديثُ عن انتقال المرض موضوعَ الساعة.

لم يكن انتشار ذلك الطاعون مثل الأمراض الأخرى، مثل الحمى القرمزية أو الجدري، على سبيل المثال. بل كان تفشّيًا وبائيًا مفاجئًا. إلا أنّ السؤال الأهمَّ لم يجد إجابة إلى الآن؛ كيف ظهر ذلك الطاعون؟ وما الذي يزيد انتشاره؟ فإن كان انتقال المرض يعتمد على الهواء، فالهواء عُرضة للمرض. خذ مثالَ ما حصل لمّا جاءت إحدى السفن بحمى التيفوس إلى إحدى المدن الساحلية؛ فعلى وصول المرض إلى هناك، إلا أنّ المرض لم يتفشَّ في المدينة لسبب ما. كيف لنا أن نقيمَ الهواء، ونقول بأنّ الطاعون سيموت في المدينة الفلانية، ولن ينتشر، لكن في المدينة

الفلانية الأخرى، فستضعُ الطبيعة يدَها بيده، ويحصد السكّان؟ في الوقت نفسه، قد ينجو الإنسان من العدوى تسعة وتسعين مرة، ويصاب بها في المرة المئة. ذلك أنّ جسد الإنسان يكون في حال رافض للمرض أحيانًا، ومستقبلًا له في أحيان أخرى. أحارت تلك الأفكار مشرّعينا قبل أن يستطيعوا تقرير قانون ليطبق. كان طاعونًا عضالًا واسع الانتشار، ولم يستطع أحد بأن يقطع بنجاعة علاج، أو وقاية فترتفع نسب نجاتنا به.

كانت الحيطةُ مثارَ تلك الأسئلة، فلم تكن هناك حاجةٌ لإجراء مستعجل. كانت إنجلترا في مأمن. فقد كانت فرنسا، وألمانيا، وإيطاليا، وإسبانيا، أسوارًا غير مخترقة بيننا وبين الطاعون. صحيح بأنّ سفننا كانت لعبة للرياح والأمـواج، كما كان غوليفر لعبة للبروبدنغناغيين، إلا أنّنا كنّا مطمئنين على جزيرتنا الراسخة، ولم يمسّنا ضررٌ أو خدشٌ من هيجان الطبيعة ذاك. لم يكن هناك داعٍ للخوف، فلمْ نخف. بَيدَ أنّ مشاعر من الصدمة، والذهول الحابس للأنفاس، والألم على تدهور حال البشرية، تسلّلت إلى قلوبنا. أمُّنا الطبيعة، وصديقتُنا، انقلبت علينا وأجهمت وجهها تتوعّدنا. أجْلَت لنا بوضوحٍ بأنّها وإن سمحت لنا بأن نطوع قواها الظاهرة، إلا أنّها لو حركت إصبعًا واحدًا ستزلزلنا. بوسعِها أن تجمعَ كوكبنا

المحفوف بالجبال، والمحاط بغلافه الجويّ، بما فيه من عوامل بقائنا، وكلّ ما يستطيع عقل الإنسان اختراعه أو إنجازه، وتكوّرنا في قبضتها، ثم تقذفنا في الفضاء؛ حيث يكون الهلاك شرابَنا، والإبادةُ النهائيةُ مصيرَ البشرية.

تملّكت الهواجس الجميع، إلا أنّ ذلك لم يمنعنا من أداء أعمالنا اليومية، والاستمرار في مشاريعنا التي يتطلّب إنجازُها أعوامًا عديدة. لم يُسمع صوتٌ يُنادي بالإمساك عن العمل! وعندما تصلنا مخاوفُ الدول الأخرى، عن طريق تعاملنا التجاريّ معهم، كنّا نسلّي أنفسَنا عن تلك المشاعر. سُنّت قوانينُ للاجئين، والتجّار الذين أعلنوا إفلاسَهم إثر انهيارِ التجارة. نهضتِ الروحُ الإنجليزيةُ إلى أوج حيويّتها، وكدأبِها الدائم، عزمت على مجابهةِ الشرّ وتحمّل القسط الأكبر من تلك المواجهة.

مع بداية الصيف، شعرنا بأنّ الأذى الواقعَ في البلاد البعيدة كان أكبرَ وأشدَّ ممّا ظننّا. دُمّرت كيتو بزلزال، وتواطأ الطاعون والعواصف والمجاعة على مكسيكو فصارت خرابة. فاضت أوربّا الغربية باللاجئين، وحتّى جزيرتِنا صارت ملجأً للآلاف. في أثناء ذلك، تمّ انتخابُ رايلاند ليكون رئيسًا. كان طامحًا لهذا المنصبِ برغبةٍ شديدة، مدفوعًا بفكرة تسخير كلّ طاقاته لاجتثاث طبقة

ذوي الامتياز من مجتمعنا. لكنَّ خططَه تعطّلت بسبب الأحوال الطارئة. فقد كان كثيرٌ من اللاجئين في فاقة، وتعسّر الاعتماد على وسائل الإغاثة المعتادة، لكثرة أعدادهم وازديادها. وتعطّلتِ التجارةُ لانقطاع التبادل التجاري بيننا وأمريكا، والهند، ومصر، واليونان. تعطّلت وتيرةُ حياتِنا المعتادة فجأةً. عبثًا، حاول الرئيس وأشياعَه أن يستروا تلك الحقيقة. عبثًا، خصص فترة مناقشة يوميّة لوضع القوانين الجديدة المختصّة بالألقاب المتوارثة ومزاياها. عبثًا، سعى إلى تصوير الخطر القادم، كأمرٍ عارضٍ مؤقت. بَيدَ أنّ تلك الكوارثَ أصابت بيوتًا كثيرة. ولمّا كانت مرتبطة بالتجارة، كان مصابُها ممتدًّا إلى كلّ طبقات المجتمع، فصارت الموضوع الأهمّ، والذي ينبغي أن يحوّل اهتمامنا إليه.

أيعقلُ أن يكون ذلك حقًّا؟ سأل كلٌّ منّا الآخر. أن يكون الخرابُ عمّ دولًا بأسرها، وأنّ شعوبًا بادت عن بكرة أبيها، جرّاء هذا الخلل الذي ألمّ بالطبيعة؟ مدن أمريكا الضخمة، أراضي الهند الغنّاء، وبلاد الصين المكتظّة بالسكّان، جميعًا كانت على شفير الخراب الشامل. لم يعد يسمع إلا عويل البائسين في الأماكن التي كانت تؤمُّها الجموع للبهجة أو التجارة. كان الهواءُ مسمومًا، وتنفّس كلُّ إنسان الموت، حتّى من كانوا في ريعان شبابهم وصحّتهم، وكانت

أحلامهم في زهرتها. استذكرنا طاعون عام 1348، لمَّا قُدر أنّ ثلث البشرية قد باد. إلى الآن بقيت أوربّا الغربية غير ممسوسة، أسيظلُّ الحال كذلك؟

نعم، بالطبع سيظلُّ كذلك. لا تخشوا يا أبناء بلدي! فأيُّ عجبٍ في أن يضافَ الطاعون إلى فُتّاك أراضي أمريكا البكر! وفي الشرق، ما الطاعون إلا مقيمٌ عتيقٌ، وأخٌ مألوفٌ للأعاصير، والزلازل والسموم. سيموتُ ابنُ الشمس، وربيب المناطق الاستوائية في مناخنا. له أن يعبّ من دماء سكّاني الجنوب، ولكن أبدًا لن يولم من لحم الكِلْتيِّين بيض الوجوه. وإن صادف وحلّ بيننا آسيوي مصاب به، فسيموت الطاعون معه، غير عادٍ ولا ضارّ. قفا نبك على حال إخواننا، وإن كنّا لن نقاسيَ ما قاسوا. لنرثيَ بؤسهم، ونغيثَ أبناءَ جنّة الأرض. في الأمس كنّا نغبطُهم على أرضهم، بساتينهم كثيرة التوابل، سهولهم الغناء، وفرط الجمال. بَيدَ الآن الأضداد شقائق في هذا العالم، فالشوك ينبت مع الورد، وأغصان نبت القرفة تتشابك مع النبات السام. بلاد فارس، بملابسها المذهّبة، وقاعاتها المرخمة، وثرواتها اللا متناهية، صارت قبرًا الآن. خيمة العربي معفرة بالتراب، وحِصانه يضرب الأرض، بلا عِنان ولا سرج. يضجّ وادي كشمير بأصوات الثكالى. ولوّث

الموت شعابه، وغاباته، ونوافيره، وحدائق وروده. وروح الجمال، جورجيا وأرض الشركس، تبكي حزنًا على فناء نسائها.

ازداد قلقُنا وانزعاجُنا مع تضخّم المشاكلِ التجارية. وأفلس المصرفيّون والتجّار والمصنّعون، لاعتماد تجارتهم على الواردات والمعاملات المالية. كانت تلك أمورًا ذات أثرٍ محدود، عندما تحدث مرة واحدة؛ أمّا الآن، فقد اهتزّ رخاءُ الأمة الاقتصادي كلُّه، نتيجة تعاقب تلك الخسائر الفادحة. انحدرت عائلات من رغد العيش إلى التسوّل. صار الأمان الاجتماعي، الذي كان مفخرة لنا، عُرضة للزوال. فلا سُبلَ لتشغيل العاطلين، أو إرسالهم للعمل في الخارج. حتّى المستعمرات، نضبت خيراتُها، ذلك أنّ الطاعونَ استشرى في أستراليا، تزامنًا، ورأس الرجاء الصالح. أَمَا مِن تِرياقٍ يطهّرُ الأرضَ من خبثِها، ويعيدُها إلى سابقِ عافيتِها؟

كان رايلاند رجلًا ذا ذكاءٍ حادٍّ، ورأي صائبٍ حازمٍ في الأحوال العادية، إلّا أنّ تكالبَ المصائب علينا جعله يقفُ ذاهلًا. أيرفع الضرائب على الأراضي ليسندَ التجارة؟ إن أراد ذلك، فعليه أن يفوزَ بتأييد ملّاك الأراضي، نبلاءِ البلاد، وأولئك هم خصومُه الألدّاء. لاستمالتهم، عليه أن يتخلّى عن هدفه في المساواة، وأن يقرّ لهم بحقوقهم الإقطاعية. عليه أن يبيعَ غايته الأغلى، ليشتريَ

نجاة بلاده. ينبغي له أن يكفَّ عن طموحِه العزيز عليه، وأن يسلمَه طائعًا للوأد. جاء إلى وينزر لاستشارتنا. كان كلّ يوم يزيد من صعوباته، بسفنه الجديدة الممتلئة باللاجئين، وانقطاع التجارة التامّ، والجماهير الجائعة المحتشدة حول القصرِ الرئاسي. كانت ظروفًا لا تحتملُ الخطأ. قُضِيَ الأمرُ، وفاز النبلاءُ بما أرادوا، وبالمقابل وافقوا على ضريبة بنسبة عشرين بالمئة، على جميع الإيجارات، مدة اثني عشر شهرًا. عاد الهدوء إلى العاصمة والمدن الكبرى، بعد أن كان القنوط وجهتها. وعدنا إلى النظر في حال المآسي البعيدة، متسائلين إن كان المستقبل يحملُ فرجًا من تلك الشرور. كنّا في شهر أغسطس حينها، لذا لم يكن هناك أملٌ كبيرٌ بارتفاع الطاعونِ في الصيف. استعر الطاعون في انتشاره، وقام الجوعُ بفتكِه المعتاد. مات آلاف لا راثي لهم. فقد كان الموت مُخرِسًا للنادبين، الذين خرّوا بجانب الجثث التي لم يفارقها دفئها بعدُ.

في الثامن عشر من ذلك الشهر، وصلت الأخبار إلى لندن بأن الطاعون قد بلغ إيطاليا وفرنسا. كانت تلك الأخبار تتناقل همسًا في المدينة، إذ لم يجرؤ أحد على الإعلان جهرًا بتلك الأخبار التي تسّم الأبدان. وحين كان يلقى أحدٌ صديقًا في الشارع، كان

يهتفُ وهو عجلة في أمره، "تعلم الأمر!" بينما يجيب الآخر صائحًا بصوتٍ مِلؤُه الخوفُ والرعب، "ما الذي سيحلُّ بنا؟" أخيرًا، نُشرتِ الأخبار في الصحف. أُدرج الخبر في زاوية معتمة: "يؤسفنا أن نؤكّدَ بأنّه لم يعد هناك من شكٍّ بأنّ الطاعون قد حلَّ في ليفورنو، جنوة، ومرسيليا". لم يزدِ الخبرَ كلمة واحدة، إنّما زاد كلّ قارئ كلمات من خوفه. كنّا كمَن سمع خبر احتراق منزله، فانطلق يجري، وفي صدره أملٌ ضئيلٌ بأن يكونَ الخبرُ كاذبًا، إلى أن دخل شارعَه ورأى النيرانَ تلتهمُ مسكنَه. كان الأمرُ إشاعةً أول الأمر، إلا أنّه صار حقًّا مثبتًا بكلماتٍ لا تُمحى، وحبر لا يكذب. جعل الظلامُ المحيطُ بتلك الكلمات حروفَها أكثرَ وضوحًا. فكبرت الحروفُ في أعين الناظرين، وبدت وكأنّها نقشت بقلم من حديد، وسمت بميسم من نار، نسجت من غيوم في السماء، ومُهرت على وجه الكون.

تقاطَرَ الإنجليز، المسافرون منهم والمقيمون عائدين إلى البلاد في سيلٍ واحدٍ، وبينهم جموعٌ من الإسبان والإيطاليين. امتلأت جزيرتنا الصغيرة إلى حدّ الانفجار. ظهرت عملات غريبة جاءت من اللاجئين في أول الأمر. بَيدَ أنّ أولئك الناس افتقروا إلى وسائل تعويض ما كانوا ينفقون. مع مُضيّ الصيف، واستمرار

الطاعون، نضبت أموالهم، وعجزوا عن دفع الإيجارات. كان مستحيلًا أن ترى جموعُ أولئك البائسين المعذّبين، الذين كانوا في رغدٍ من العيش قبل ذلك، من دون أن تمدّ لهم يد العون. ولمّا كانت عادة الإنجليز فتح أبوابهم، منذ أواخر القرن الثامن عشر، لضيافة الفارّين من ديارهم بسبب الثورات، لم يتردّدوا الآن بتقديم العون لضحايا تلك الكارثة الجليلة. كان لنا العديد من الأصدقاء الأجانب، الذين بحثنا مباشرة عنهم، وأنقذناهم من الفاقة. صارت قلعتنا ملاذًا للحزانى. وسكن قاعاتها حشد صغير. أمّا أموال صاحبها، الذي كان الإسراف عادته المتوافقة مع طبعه الكريم، فقد حفّت بحرص شديد الآن، علّها تنفع عددًا أكبر من الناس. لم تكن المشكلة في المال، بل في ضرورات الحياة التي صارت شحيحة. لم يكن من حلّ عاجل لتلك المشكلة. فقد انقطعت الواردات المعتادة بالكامل. في ظلّ ذلك الظرف الطارئ، اضطررنا إلى فلاحة حدائق استجمامنا، لنطعم الناس الذين أوينا. هوت أعداد الماشية في البلاد بصورة ملحوظة، بسبب الطلب الكبير للسوق. حتّى الأيل المسكين، الأقرن المصون في بلادنا، أبيح صيدُه لينتفعَ الناسُ بلحمه. وسدّت الحاجة للعمّال لفلاحة الأراضي، بالعاطلين عن العمل بعد انهيار الصناعات، فكانت عملًا ومعاشًا لهم.

لم يقنع أدريان بالجهود التي بذلها بما يملك فقط. فقصد بنفسه أثرياء البلاد، وطلب منهم المساعدة، ولم تخب رجاءاته الحارّة وبلاغته. لم يكن من السهل عليهم أن يهبوا حدائق راحتهم للفلاحة، وأن يتنازلوا عن أكثر خيولِهم، التي كانت تُستخدَم للتنزّه المترف في البلاد. وعلى تلكّئهم أول الأمر، لما في النفس من كراهة غريزية لترك الترف، إلا أنّ كرمًا متحمّسًا نهض فيهم، لمّا رأوا سوءَ أحوال إخوتهم في الإنسانية. ليذكر التاريخ ذلك الشرف للإنجليز. كان أكثر الناس ترفًا أول من بادر بالتنازل عن الزائد على حاجتهم. وسرى البقية على إثرهم مقلّدين. قالت النبيلات من النساء إنّه من العار عليهنّ التمتّع براحة العربات الفارهة، بعد أن كانت تلك ضرورة بالنسبة لهنّ. واستعاضتِ المتردّدات منهنّ بالمحفّات، كما في العصور الغابرة. إلا أنَّ مشهدَ النساء النبيلات وهنّ يمشين قاصدات منتزهاتهنّ، لم يعد أمرًا غريبًا. ألف الناس رؤية الأثرياء من ذوي الأراضي يجمعون أعدادًا كبيرة من المحتاجين، ويسوون أشجار غاباتهم، ليبنوا مساكن مؤقتة لهم. ويقسمون حدائقهم وبساتين زهورهم لتسدَّ حاجة الأسر المعوزة. ترى كثيرًا من أولئك الذين كانوا نبلاء في ديارهم، يعزقون الأرض بأيديهم. كان من الضروري أن تضبطَ روحُ التضحية تلك. وأن يذكر أولئك الذين بادروا بكرم باذخ، ألّا يتلفوا كلّ ما لديهم، وإلا

لكانت الأمورُ ستظلُّ على ما هي عليه الآن من خراب، وذلك احتمال بعيد. أظهرت تجاربنا السابقة أنّ الطاعون لا يستمرُّ أكثر من عامين. لذا ينبغي لنا ألّا نهلكَ خيولنا الأصيلة، أو نغيّر وجه البلد كلّه.

ظنَّ بعضهم بأنّ الحال كان أسوء ممّا هو عليه، قبل أن تنهض روح فعل الخير. انتقلت تلك الروح إلى فرنسا، وبلغت أنحاءها الجنوبية. إلا أنّ تلك البلاد كان فيها الكثير من الموارد الزراعية، لذا لم تشعر بوطأة الهجرة الداخلية، وتزايد أعداد اللاجئين فيها كما شعرنا نحن. كان الخوفُ السائدُ خوفًا من الجوع وإهانة السؤال، لا خوف الموت من الطاعون.

أثبت الشتاءُ أنّه طبيبٌ لا يخيبُ. رحّب الناسُ بحرارة الغابات وقتامتها، وفيضانات الأنهار، وضباب المساء وصقيع الصباح. أحسَّ الناسُ سريعًا بأثر تطهير البرد، وكانت أعداد الوَفَيَات تقلّ أسبوعيًّا. غادرنا كثيرٌ من اللاجئين. وسافر الذين جاؤوا من أقصى الجنوب فرحين لفراق شتائنا الشمالي، قاصدين أوطانَهم التي جاؤوا منها مذعورين. تنفّسنا من جديد. لم ندرِ ما الذي يحمله لنا الصيف القادم، إلا أنّ أمالَنا بانقطاع الطاعون كانت مرتفعة.

الفصلُ السادس

جلستُ طويلًا على ضفاف البحر، كحُطامٍ مسجَى في جدول الحياة، يداعبُ خيالَ الموت. أودعت قلبي وقتًا طويلًا في مهاد ذكريات السعادة، وأيام كان يحدوها الأمل. لم لا أظلُّ هكذا إلى الأبد؟ لستُ بخالد، وسأقضي تاريخي بانقضاء أيامي. لكنّ المشاعر ذاتَها التي قادتني إلى استذكار أيام الهناء تلك، دفعتني الآن إلى الاستعجال. ذات الحنين الدافئ الذي ملأ نبضَ قلبي، ودفعني إلى تدوين صباي المشرّد، وسنّ رجولتي الهانئ، ومشاعر روحي، استحثّني للاستعجال. ينبغي أن أنهي ما بدأت.

ها أنا ذا أقف مجانبًا بحرَ السنين الفائتة، ومن مكاني أنطلق. فـاردًا أشرعتي، ومـادًّا مجاديفي، أوشك أن أهوِي في جرف حادّ، يفوق سوءًا حالي الذي بلغت. لكن، قبل أن أدلفَ في تلك المهلكة، دعني أستذكر -ولو برهة- أيامي في عام 2094، ومسكني في وينزر. لأغلق عيني، وأحلم بأغصان أشجار السنديان تظلّلني، بالقرب من أسوار القلعة. لترسم ذاكرتي صور البهجة في العشرين من يونيو، كما يذكرها قلبي إلى الآن.

جرّتني بعض الأعمال إلى لندن، وهناك سمعت بأنّ بعض

أعراض الطاعون ظهرت في مستشفى المدينة. عدت إلى وينزر بقلب حزين ووجه كئيب. دخلت حديقة القلعة من بوّابة فروجمور، كعادتي، متّجهًا إلى القلعة. إذ إنّ كثيرًا من أجزاء تلك الحديقة قد حولت للفلاحة، فانتشرت فيها مزارعُ البطاطس والذرة، هنا وهناك. نعقت الغربان بعلوّ صوتها في الأشجار، واختلط نعيقُها بألحان راقصة. كان يوم ميلاد ألفرد. أقام الشباب من أيتون، والنبلاء من جيراننا حفلًا تنكّريًّا، ودعوا إليه كلَّ سكّان الريف. انتشرتِ الخيامُ في الحديقة، ورفرفت فوقها رايات وأعلام بهيّة تحت أشعّة الشمس، فزادت المشهد بهجةً. وعلى مسرح نُصبَ أسفل الشرفة، قام شبّانُ الحفل يرقصون. استندت إلى شجرة لأشاهدهم. عزفت الفرقة لحنًا شرقيًّا راقصًا لفيبر، من أوبرا أبي حسن. وجعلت ألحانها السريعة أقدام الراقصين تطير في الهواء، أمّا الجالسون، فكانوا يضربون الأرض طربًا، بغير وعي منهم. أطرب العزف روحي أول الأمر، ولحين من الوقت، تبعت عيني دوران الراقصين. إلا أنّ الفكرة عادتني، ونفذت من قلبي نفوذَ النصل. قلت لنفسي، ستموتون جميعا. قبوركم تحفر من حولكم. تحسبون هنيهةً أنكم أحياء لما وهبتم من قوة ورشاقة. واهٍ عريش أجسادكم، الحافظة للحياة. منحلّة خيوط العاطفة التي تربطكم بها. تساق الأرواح الطروب من لذّة إلى لذّة راكبة عربةَ ذلك

الجسد الرشيق، ذي الأطراف الفاتنة. قبل أن تفاجأ بتلفِ أجزائها، ومصيرها إلى التراب. لن ينجوَ منكم أحدٌ، يا مَن قضي أمركم! ولا حتى أحبائي، آيدرس وأبنائي! يا لَلرعب والبؤس! أرى حلقة الرقص وقد انفضت، الجثث تملأ الأرض الخضراء، والسماء الزرقاء منتّنة بأنفاس الموت. صيحي أيّتها الأبواق! وانفخي بعلوّ صوتك! أُتلِي ترنيمةَ الموت، تلوَ الأخرى. لتقم قيثارة الجنائز، وليعزف الهواء نحيبًا كئيبًا. ليضربَ التنافر أجنحة الهواء! أسمعُ ملائكة الموت الموكلة بالبشرية، تنشد لحنًا سقيمًا يعلن رحيلها، محلّقة بعيدًا بعد أن أتمّت مهمّتها. خطرت لي وجوهٌ لا يليقُ الحزنُ بها، فاستحالَ عليّ إغلاقُ جَفني. ورويدًا رويدا، أخذت تلك الوجوهُ تزدادُ، محلّقة حولي، تبدو عليها كلُّ صنوف البؤس. فاختلطت وجوهٌ من آلف بصور شوَّهها الخيالُ. جلس ريموند وبرديتا بعيدًا، بلونٍ رماديّ شاحبٍ، ينظرون إليّ بابتسامة حزينة. مرَّ بي وجهُ أدريان، وقد دنَّسَه الموتُ. رأيت آيدرس، توشك أن تندسَّ في قبر، مغلقة العينين مزرقَة الشفتَين. زاد التشوُّش، وتحوّل حزنُهم إلى سخرية، وصاروا يرقصون برؤوسهم على الألحان التي دفعتني إلى الجنون. شعرت بالجنون يتابُني، فانطلقتُ راكضًا لأطرحَه عنّي، ودخلتُ وسط المحتفلين. رأتني آيدرس، فتقدّمت إليّ سريعًا. شعرتُ بأنّ العالمَ بين يدي وأنا احتضنتُها.

بَيدَ أنّه كان عالمًا ضعيفًا، كقطرة الماء التي تمتصُّها شمسُ الظهيرة من كأس زنبقة الماء. فملأت الدموع عيني اللتين أبتا البكاء. زاد وَهَني ترحيب الأطفال البهيج، وتهنئة كلارا العذبة، ويد أدريان. أحسستُ بقربهم وسلامتهم، إلا أنّ نفسي حدثتني بكذب ذلك. مادت الأرض بي، وترنّحت الأشجار أمامي، وغشيني الدوار، ثم خررتُ. فزع أحبّائي، وكان فزعُهم شديدًا إلى درجة أنّي لم أجرؤ على ذكر كلمة الطاعون التي كانت ترفّ فوق شفتَي، خشيةَ أن يظنُّوا أنَّ ما أصابني عرض منه. بالكاد تعافيتُ، وأعدتُ البسمةَ إلى المجتمعين حولي بمرحٍ متكلّف، حتّى رأينا رايلاند قادمًا.

كانت هيئة رايلاند تشبه الفلّاحين إلى حدّ ما. فقد كان جسدُه وعضلاتُه كَمَن قضى حياتَه بالأعمال الشاقّة، تسفعه عوامل الطبيعة. وكانت تلك حاله فعلًا. فعلى كونه مالكًا كثيرًا من الأراضي والمصانع، ورئيسًا للبلاد، إلا أنّه كان يقضي وقتَه في قصره الخاصّ بأعمال الفلاحة. عندما عيّن سفيرًا في الولايات الشمالية الأمريكية، نوى الهجرة إلى تلك البلاد. وقطع عديدًا من الرحلات في عرض تلك القارة الفسيحة، ليختارَ مكانًا ملائمًا لسكنِه. بَيدَ أنّ الطموحَ غيّر خططَه تلك. ذلك الطموحُ الذي قاده إلى ذروة آماله، ثانيًا دونه المشاقّ والصعاب، ليصير رئيسًا

لإنجلترا. كان وجهُه خَشنَ الملامح، إلا أنّه ينمّ عن ذكاء. وعيناه الرماديّتان الوقادتان، أسفل جبينه العريض، بدتا كأنّهما تنظران أبعدَ ممّا يصبو إليه، وأبعدَ من عداوة خصومه. كان صوتُه جَهْوَريًّا، مع يديه الممتدتين أثناء خطابه، وكأنّهما في ضخامتهما تنذران سامعيه بأنّ الكلمات ليست سلاحه الوحيد. قلّة من الناس عرفوا شيئًا من الجبن فيه، وضعف حزم الرأي، تحت إهابه المهيب ذاك. لا يستطيع إنسان إنجاز أمرٍ لا طاقةَ له به. كان ذلك سرَّ انعزاله في الفترة التي تلت انتخاب ريموند. يستطيع المرء أن يستشفَّ ضعفَه، بشكلٍ ما، من نظرته المرتعشة، شغفه بمعرفة آراء الآخرين فيه، وخطّ يده المرتبك. إلا أنّ ذلك لم يكن معروفًا للجميع. هو رئيسنا الآن. وقد طاف لجمع الأصوات بحماسة كبيرة. نوى أن يميزَ فترةَ رئاسته بإزالة نظام النبلاء. بَيدَ أنّ هدفه ذاك قد تبدّل إلى مواجهة الدمار الذي سبّبته اضطراباتُ الطبيعة. كان عاجزًا عن مجابهة ذلك الخراب بنظام فعّال. لجأ إلى حيلة تلوَ الأخرى، ولم يقتنع بضرورة اتخاذ إجراءات وقائية إلا بعد فوات الأوان. قطعًا لم يحمل رايلاند الماشي تجاهنا في تلك اللحظة، ملامح المرشّح الجسور الذي كان يطوف بالرجال الإنجليز لجمع الأصوات. بدا أنّ سنديانة الأمّة، كما يسمّيه أنصاره، قد تعرّض لنزلة بردٍ شديدة. لم تكن قامتُه مفرودةً كالعادة، وكأنّه محلولُ الأوصال، وبالكاد

تحملُه ساقاه. ممتقع وجهه، وعيناه حائرتان، مجتمع في ملامحه وهنُ العزيمة وجبن القلب.

كان جوابُه على أسئلتنا القلقة كلمةً واحدة، قالها وكأنّه ذاهلٌ عمّا يقول، نطقت شفتاه المرتعشتان: "الطاعون". "أين؟". "في كلّ مكانٍ. ينبغي أن نهرب جميعًا، ينبغي أن نهرب، لكن إلى أين؟ لا أحد يدري. لا ملجأ لنا على الأرض. أحدق الطاعون بنا كألف قطيع من الذئاب. ينبغي أن نهرب، لكن إلى أين؟ أين يمكننا الفرار؟"

خرجت تلك الكلمات متقطّعة مرتعدة من شفاه الرجل الحديدي. قال أدريان، "فعلًا، أين يمكننا الفرار؟ من الأفضل أن نبقى هنا، ونبذلَ جهدَنا في مساعدة إخوتنا في الإنسانية".

ردّ رايلاند، "نساعد! لا مجال للمساعدة! يا إلهي، عن أيّ مساعدة تتحدّث! أصاب الطاعون كلَّ أرجاء العالم!"

عقّب أدريان، مبتسمًا بلطفٍ، "إذن، ينبغي أن نترك العالم".

تأوّه رايلاند متفجّعًا، والعرق البارد يتفصّد على جبينه. لم يكن

من طائل في اعتراض نوبة ذعره الشديد تلك؛ إلا أنّنا هدّأنا من روعه، وشجعّناه، حتّى تسنّى له بعد حين، من الوقت أن يشرح لنا أسباب فزعِه ذاك. بلغ الطاعون بيته. فقد خرّ أحدُ خدمِه ميّتًا، بينما كان قائمًا على خدمته. وأعلن الطبيب أنّه مات بالطاعون. حاولنا تهدئته، إلا أنّ الهلع أصاب قلوبنا أيضًا. رأيت عينَي آيدرس تنتقل بيني وبين الأطفال، طالبةً منّي أن أقولَ شيئًا. غاص أدريان في التفكير. أمّا أنا، فظلّت كلمات رايلاند ترنّ في أذني. أصاب الطاعون كلَّ أرجاء العالم. أي بقعة لم يدنّسها الطاعون، لأودع فيها كنوزي الأحباء إلى أن ينقشع غمامُ الموت عن وجه الأرض؟ غرقنا في الصمت، وأثار صمتُنا ريبةَ ضيوفِنا. انسحبنا من الحفل، وصعدنا الدرج داخلين إلى القلعة. صعق زوال الفرح من وجوهنا أقرب الناس إلينا. وسرعان ما انتشر الخبر بأنّ رايلاند فرَّ من الطاعون في لندن، بقولٍ من خدمه المرافقين. انفضّت الحلقات المرحة، واجتمعت حلقات هامسة. غابت روحُ البهجة، وانقطعت الموسيقى. ترك الشباب ما بين أيديهم واجتمعوا معًا. بدا وكأنّ السرور الذي ألبسهم أزياءهم التنكرية، وزيّن خيامَهم، وجمعهم في حشدٍ بديع، بدا وكأنّه خطيئة تستفزّ العقاب، في حضرة المصير المروّع الذي وضع يده القاتلة على الحياة وآمالها. كان طرب الحفل، سخرية آثمة من آلام البشرية. رأى الأجانب الذين لجؤوا

إلينا فرارًا من الطاعون ملاذهم الأخير يستبيحه الطاعون. فألقى عليهم الخوف سحرَه، وصاروا يهذرون للسامعين المنصتين عن المآسي التي خلّفوها وراءهم في المدن التي نزل الطاعون بها؛ وذكروا قصصًا مرعبة عن مكر الطاعون واستحالة علاجه.

دخلنا إلى القلعة. قامت آيدرس إلى نافذة مطلّة على الحديقة، وراحت عيون الأم ترعى أطفالها بين الجمع. جذب فتى إيطالي المستمعين إليه، وأخذ يصف لهم مشاهد الرعب بتعابير نابضة بالحياة. وقف ألفرد متسمّرًا أمامه، مأخوذًا به. حاول إيفيلين الصغير سحب كلارا للعب معه، إلا أنّ سرد الإيطالي أسرها، فزحفت قريبًا منه، وأولته عينيها اللامعتين. خيّم الصمت علينا، وانشغلنا إمّا بمراقبة الجمع في الحديقة، أو بالتفكير المعذّب. وقف رايلاند وحيدًا عن كوّة أحد الشبابيك. ذرع أدريان القاعة يقلّب فكرة جديدة طغت عليه، ثم توقّف وقال فجأة: "توقّعت حدوث ذلك منذ زمن؛ فهل يُعقل أن نظنّ أنّ جزيرتنا ستستثنى من وصول الطاعون الذي ألمَّ بالعالم؟ نزل الخطر بساحتنا، وينبغي ألّا نفرَّ من قدرنا. ما خططُك لأجل بلدنا، يا سيدي الرئيس؟

هتف رايلاند، "بحقّ السماء! لا تسخر منّي بذلك اللقب يا ابن وينزر. لا يفرق الموت والطاعون بين الناس. لست أدّعي كوني

حاميًا أو حاكمًا للمستشفى، فذلك ما ستصير إنجلترا إليه سريعا".

"أتنوي إذن، حين دهمنا الخطر، أن تتنصّلَ من واجباتك؟"

"واجبات! كن عاقلًا يا سيّدي! أي واجبات ستبقى لي حين أصيرُ جيفةً ملوّثةً بالطاعون؟ كلّ امرئ مسؤولٌ عن نفسه! لتذهب الرئاسةُ إلى الجحيم إن كانت ملقيتي إلى التهلكة!"

صاح أدريـان: "رجل رعديد! وثق أهل بلدك فيك، وأنت تخونهم!"

قال رايلاند، "أخونهم! الطاعون قاتلي. رعديد! لك أن تتحدث عن الشجاعة، وأنت في قلعتك، بعيدًا عن الخطر. ليأخذ الرئاسة من يشاء، أنا متنازل عنها، والله شاهدي!"

ردّ أدريان بحماسة على ندّه، "وأنا آخذها، والله شاهدي! لن ينافس أحد على ذلك الشرف الآن، فلا أحد يحسدني على ما سألاقي من وصبٍ أو تعب. ادفع سلطتَك إلى يدي. صارعت الموت، وقاسيت (مدّ يدَه الهزيلة) كثيرًا في ذلك الصراع. لن نغلبَ العدوَّ بالفرار، بل بالمواجهة. إن كان هذا قتالي الأخير،

وكنت سأهزم فيه، فليكن ذلك! لكن، عد إلى رشدك يا رايلاند! طالما رآك الناس شهمًا حكيمًا، أترضى طرح تلك الألقاب عنك؟ فكّر بالذعر الذي سيتسبّب إن تركت لندن. عد إلى لندن. سأذهب معك. شجّع الناس بحضورك. سأكون في وجه الخطر. يا لَلعار! يا لَلعار! إن كان أعلى رجال إنجلترا منصبًا أول من يتخلّى عن واجباته".

أثناء ذلك، ذوت مظاهر الاحتفال بين ضيوفنا في الحديقة. فرَّق الحزنُ والكآبة جمعَهم، كما يفرّق المطر ذباب الصيف، فراح كلٌّ منهم يمشي مبتعدًا. ومع غروب الشمس، وتزايد قتامة الأصيل، كانت الحديقة شبه خاوية. كان أدريان ورايلاند لا يزالان في نقاش محموم. كنّا قد أعددنا مأدبةً للضيوف في قاعة القلعة السفلى، فذهبت وآيدرس إلى هناك لاستضافة القلّة التي بقيت منهم. لا شيء أكثر كآبة من انقلاب لقاء فرح إلى الحزن. غشيت مهابة الجنائز زينة الحفل، وبدت فساتينه ذاوية الفرح. إن كان ألمَّ ذلك التبدُّل العظيم في الأحوال العادية، فسيكون هذا التبدل أشدَّ وأعظمُ لعلمِنا بأنّ الشيطان الأكبر، ومدمّر الأرض، قد قفز بخفّة متخطّيًا حدودَنا واحترازاتنا، وتوّج نفسَه فجأةً سيدًا في قلب دولتنا. جلست آيدرس في قاعة شبه خالية شاحبة الوجه، ودامعة العينين،

وكادت أن تنسى واجب ضيافتها. لم تحد نظرها عن أبنائها. أظهر مزاج ألفرد الجدّي أنّه لا يزال يقلّب قصص المآسي التي تلاها الفتى الإيطالي. كان إيفيلين الكائن المرح الوحيد. فقد جلس في حضن كلارا، وراح يضحك بصوت عالٍ، على ما نسج له خيالُه من أمور مضحكة، وردّد السقف المقبّب صدى ضحكاته. قامتِ الأمُّ المسكينة، التي كتمت ألمها وقتًا طويلًا، واحتضنت طفلها، وانطلقت باكية خارج القاعة، فتبعها كلارا وألفرد، بينما تمتم الحضور بصوت خافت ما لبث أن علا، متحدّثين عن مخاوفهم.

تجمّع الشباب حولي لطلب النصيحة. وكان أولئك الذين لهم أصدقاء في لندن، أشدّهم قلقًا، وطلبًا لمعرفة مدى انتشار الطاعون في المدينة. فشجّعتهم بما خطر لي من القول. قلت لهم بأنّ الوَفَيَات التي حدثت بفعل الطاعون لا تزال قليلة، على أقصى تقدير، وأمَّلتهم بأنّه قد يكون الطاعون فقد كثيرًا من قوة فتكِه، إذ إنّنا آخرُ من يصلهم. وأنّ نظافة مدنِنا، وحسن ترتيبها، وتفوق تخطيطها المعماري، كلّها أمور تصبُّ في صالحنا. ولمَّا كان الطاعون يعتمد في انتشاره على المواد الضارة في الهواء، فعلى الأرجح لن يكون فتكُه شديدًا لأنّ هواءَنا نقيٌّ صحيٌّ. كنت أحدث الشبّان القريبين منّي أول الأمر، إلا أنّ الحضورَ كله تحلّقوا حولي،

فوجدت الجميع مستمعًا إليّ. قلت، "يا أصدقائي، خطرنا مشترك، لذا ينبغي أن تكونَ إجراءات وقايتنا مشتركة أيضًا. إن كانت الشجاعة والمجابهة كافيتين لإنقاذنا، فأبشروا بالنجاة. سنقاتل عدوًّنا لآخر إنسان فينا. ينبغي ألا يجدَنا الطاعون فريسة مستسلمة. سنقاتل على كلّ شبرٍ من الأرض، وسنضع العوائق بشكل منهجي؛ لنعطّلَ تقدُّم عدوّنا. سنكون البلد الذي يجدُ فيه الطاعون مقاومة منظمة، وعزيمة لا تفلّ. فلا بلد محميّ طبيعيًا مثل بلدنا، وسنكون أكثرَ من يعين الطبيعة بسواعدهم. لن نيأس. لسنا جبناء أو كافرين بالقضاء، إنّما نؤمن بأنّ الله زوّدنا بسبل نجاتنا، وسنستخدم تلك السبل لنستفيد منها أقصى استفادة. تذكّروا بأنّ النظافة، والاعتدال في الأكل، والبهجة، وحبّ الخير أفضل ما نملك من علاج".

لم يكن هناك أمر لأضيفَه على تلك الإرشادات. فلم يبلغنا الطاعون، على كونه في لندن. هكذا صرفت الضيوف، فذهبوا متفكّرين، أكثر من كونهم حزينين، لانتظار ما ستبدي الأيام لنا.

ذهبت بعد ذلك إلى أدريان، راغبًا بمعرفة نتيجة نقاشه من رايلاند. كان له ما أراد، نسبيًّا. فقد رضي الرئيس بأن يعودَ إلى لندن بضعة أسابيع. وأثناء ذلك، سترتب الأمور لتقليل الذعر الناجم عن تركه للمدينة. كان أدريان وآيدرس معا. تلاشى الحزن

الذي استقبل به الأول خبر وصول الطاعون إلى لندن. مدّت غايته جسده بالنشاط والقوة، وأشرق وجهه بالإصرار وبسرور مهيب. بدا أنّ ضعفَ جسدِه يغادره، كما غادرت هيئة البشر، عشيق سيميلي السماوي، في أساطير الأوّلين. كان يحاولُ تشجيعَ أختِه، وأن يريَها أمرَ نيّته بطريقة أقلّ مأساوية ممّا رأته عليه. فكشف لها عن خططه ببلاغة وحماسة. قال، "في بادئ قولي، دعيني أريحك من مخاوفك عليّ. لن أحمّلَ نفسي فوقَ طاقتِها، ولن أقصدَ الخطرَ بغير داعٍ. أشعرُ بأنّي عارفٌ لما ينبغي فعلُه، ولأنّ وجودي سيكون ضروريًّا لإتمام تلك الخطط، سأعتني بنفسي بوضعٍ خاصّ. سأنزلُ الآنَ في منصب يليقُ بي. لستُ أطيقُ العمل، وشقّ طريقي، وسط متاهة أهواء الرجال ورغباتهم. لكنّي قادرٌ على جلبِ الصبرِ والحنانِ، كما تؤثّر بنا الفنون، إلى فراشِ المرضِ. أستطيعُ إنهاضَ اليتيمِ المعدم من الأرض، وإيقاظ الأمل في قلوب الثكالى. باستطاعتي تقييدُ حركةِ الطاعون، وحدّ مدة بقاء الكارثة. سأتسلّح بالشجاعة، والحُلم، واليقظة، لأنجزَ عملي هذا. أوه، سيكون لي شأنٌ الآنَ! منذُ نعومةِ أظفاري، كنتُ أحلّقُ كالنَّسر. بَيدَ أنّ أجنحتي خذلَتني، خلافًا للنسر، وأعمي بصري. هكذا، غلبني المرضُ وخيبةُ الأمل. استبدَّ هذان التوءمان بي، وظلّت إرادتي وقولي «لسوف»، مقيدة بـ «لن». حتى بلغ رويعيُّ أغنامِ

في الجبالِ مكانة، في سُلّمِ المجتمعِ، أكبر من مكانتي. هَنِّئِيني؛ لأنّي وجدتُ فرصةً تلائمُ قدراتي. لطالما فكّرت بعرض خدماتي على مدن فرنسا وإيطاليا التي أصابها الطاعون. لكن كان يمسكُني خوفي من إيلامكم، وتوقّعي لهذه الكارثة. لإنجلترا، وللإنجليز، أكرّس نفسي. لن تكون حياتي سُدًى، إن استطعت أن أنقذَ نفسًا من أرواحها العظيمة من رمح الموت، أو أدفع الطاعون عن أحد أكواخها البشوشة".

ما أغربَه من طموحٍ! لكن، كذلك كان أدريان. تراه غارقًا في التأمّل، مبغضًا للإثارة، تلميذًا متواضعًا، رجلًا حالمًا، لن قرب له موضوعًا جديرًا، وستراه...

كالقنبرة مع انشقاقِ النهارِ
مُحلّقًا من وجهِ الأرضِ العابسِ
لِيَتَرَنّمَ عِندَ بَابِ السمَاءِ

كذلك قام من فتوره وفكره العقيم، إلى أعلى مراتب العمل الفضيل.

راحت معه الحماسةُ، والرأيُ السديدُ، والعينُ التي لا ترفُّ في وجه الموت. وبقي لنا، القلق، وانتظار لا يُطاقُ لوقوعِ الشرّ.

يقول اللورد بيكون، إنّ الرجلَ ذا الزوجة والأطفال، رهينٌ للدهر. كلُّ تفكير فلسفي، وجَلَد وتفاؤل بالخير، صار هباءً. قد أرقى سُلّم المنطق، والشجاعة والعزم؛ ولكن ما إن يدخل خوفي على آيدرس والأطفال من باب آخر، حتى أهوي من علي.

حلّ الطاعون في لندن! وما أشدَّ حمقَنا لأننا لم نرَ المصيبة قادمة. بكينا حزنًا على بلدان الشرق الفسيحة، وعلى خراب العالم الغربي. بينما خُيّل لنا أنّ القناةَ الصغيرةَ بينَ جزيرتِنا وبقيةِ العالم عاصمة لنا، وأنّها ستبقينا أحياء بين الأموات. لا أحسب الأمر يحتاج إلى قفزة هائلة من كالي إلى دوفر. فالعين ترى بسهولة الضفّة الأخرى. كانتا أرضًا واحدة من قبلُ، والشقُّ المائي الصغير بينهما يبدو على الخريطة كمسلك أقدام على العشب. لكن ظنّنا بأنّ ذلك الفاصل منقذُنا، وأنّ البحرَ سيقومُ جِدارًا صُلبًا، لا يُجَاوزُه البؤسُ والمرضُ، مَلاذًا من الشرّ لنا، وزاوية من الجنّة على الأرض، أرضًا سماوية لا يقوى الشرُّ على وطئِها. ما أغفلَنا من جيل، لتخيّلنا ذلك!

ها قد استيقظنا الآن. الطاعون في لندن، هواء إنجلترا قد لوّث، وأبناؤها وبناتها يسيحون في أرضها الموبوءة. والبحر، حارسنا السابق، صار الآن سجّاننا. سنموت محاصرين بخلجانه، كما

يموت أهل المدينة المحاصرة جوعًا. غيرُنا من الشعوب آخى الموتُ بينهم. أمّا نحن فمعزولون عن جيراننا، سندفن موتانا لتصير إنجلترا قبرًا كبيرًا.

صار حزني على العالم أشدَّ وأكثرَ وطأةً حين نظرت إلى زوجتي وأبنائي، وتملّكني الخوف من مسّ الضرّ لهم. كيف لي أن أنقذَهم؟ قلبت آلاف وآلاف من الخطط. لا ينبغي لهم أن يموتوا، لن يبلغ المرض أحباب روحي إلا بعد أن أصير إلى العدم. سأقطع العالم حافيًا، لأجد مكانًا لم يدنّس. سأبنى منزلًا على طوف، وأنطلق في المحيط الأجرد. سآخذهم معي إلى عرين وحشي، وأذبح ساكنيه وأشباله الذين ربوا أصحاء هناك. سأرقى الجبال إلى علوّ أوكار النسور، وأعيش سنينَ في شقٍّ على منحدر مقبل على البحر. لا عمل يعجزُني، ولا خطّة تهولني، إن كانت تعد بالحياة لهم. آه يا نياطَ قلبي، أما لك أن تتمزّقي، حتّى لا أقضي حياتي أبكي دمًا من شدّة الحزنِ!

استعادت آيدرس شيئًا من جلدها بعد الصدمة الأولى. أغلقت نفسها، عامدةً، عن أيّ أفكار مستقبلية، وانثنى قلبُها على نعم الحاضر. لم يغب أطفالها عن ناظرها ولو للحظة. إذ ظلّت السعادة والأمل في قلبها، طالما ظلّوا يلعبون حولَها وهم بصحّتهم. ألمَّ بي

قلقٌ جامحٌ، وزادَ من فرطِه أنّني أُجبرت على كتمانِه. كان خوفي على أدريان ملازمًا لي. جاء شهر أغسطس وزاد انتشارُ أعراض المرض في لندن بصورة سريعة. هجرها كلّ من كان له القدرة لفعل ذلك. بينما ظلّ شقيق روحي في مواجهة الخطر الذي فرّ منه الجميع، ما عدا العبيد الذين قيَّدتهم الظروف. ظلَّ ليواجه الشيطان، غير محروس الجانب، وبلا مُعين على المشقّة. قد تصيبه العدوى في أيّ لحظة، فيموت وحيدًا لا راعي له. طاردتني تلك الأفكار ليلًا ونهارًا. عزمت على زيارة لندن لرؤيته لأرتاح من تلك الأفكار المبرحة، بعلاج من الأمل أو بمخدّر اليأس.

لم أعرف حجم التغيير الذي طرأ على البلاد حتّى بلغت برينتفورد. كانت المنازل الفخمة مغلقة، والتجارة النشطة للبلدة مشلولة. خيّم مزاجٌ من القلق على المسافرين القلّة الذين قابلت على الطريق. كانوا ينظرون باستغراب إلى عربتي، أول عربة يرونها متّجهةً إلى لندن منذ أن نزل الطاعون بها وطاف بشوارعها المكتظّة. قابلت عددًا من الجنائز، حضرها عددٌ قليلٌ من الباكين، وكانت في أعينهم نذيرُ شؤمٍ لكارثة رهيبة مقبلة. نظر بعضهم إلى تلك الجنائز بشوق عارم، وبعضهم ابتعد خلسة، بينما بكى بعضهم بحرقة.

كان هدف أدريان الرئيس، بعد مساعدة المرضى، هو إخفاء أعراض المرض ومدى تفشّيه عن ساكني لندن. كان على يقين بأنّ الخوف والتشاؤم كانا أقوى معينين للطاعون، وأن القنوط والركود يزيدان من فرص إصابة الإنسان بالعدوى. لذا لم تبد أيّ مظاهر غريبة. كانت المحالُّ مفتوحةً على العموم، والسيّارة جائلون في الطرق. لكن، ومع أنه تمّ تلافي منظر المدينة المصابة بالطاعون، إلا أنه بالنسبة للرائي، مثلي، بدت المدينة مختلفة جدًّا. لم يكن هناك عربات ركّاب، وطال العشب في الطرقات. بدتِ البيوتُ وكأنّها مهجورة، ومعظم النوافذ كانت مغلقة، وعلت وجوه الناس الذين قابلت نظرة من الهلع والشحوب. كان منظرهم مختلفًا جدًّا عن منظر أهل لندن المهندم. أثارت عربتي الوحيدة الانتباه، بينما راحت تقعقع على الطريق إلى القصر الرئاسي. تسربلت الشوارع المؤدّية إليه منظرًا مهملًا كئيبًا. وجدت غرفة الانتظار ممتلئة في مكتب أدريان، كانت تلك ساعته المخصّصة للقاء الناس. شئت ألّا أعطّل أعماله، لذا انتظرت، مراقبًا دخول وخروج الملتمسين. كانوا من الطبقة الوسطى والدنيا من المجتمع، ممّن أُعدموا موارد العيش مع انقطاع التجارة، وجفاف كلّ ما يتعلّق بها من الأعمال المدرّة للربح، خاصّة في بلدنا. كان القلق والذعر أحيانًا مزاج الملتمسين، والذي اختلف بشدّة عن هيئة المنصتين إليهم، الهادئة

الواثقة. كان في وسعي أن أرى أثر صاحبي عليهم، في حركتهم السريعة ووجوههم المبتهجة. دقّتِ الساعةُ الثانية، ولم يأذن لأحدٍ بالدخول بعدَها. فراح أولئك الذين لم يحصل لهم اللقاء، حزانى أو غاضبين، بينما دخلت أنا الغرفة.

دهشت للتحسُّن الذي بدا على صحّة أدريان. لم يعد منحني الجسد، كزهرةٍ ربيعيةٍ تطاولت فوق طاقتِها، فانثنت مثقلة بتاجِها المزهر. كانت عيناه لامعتين، ووجهه متألّقًا، وتوهّج كامل شخصه بطاقة عالية، خلافًا لما كان عليه وهنه. جلس إلى طاولة مع عدد من المساعدين الذين كانوا يرتّبون الالتماسات، ويدوّنون الملاحظات التي ذكرت في لقاءات اليوم، وكان لا يزال اثنان أو ثلاثة من الملتمسين حاضرين. أُعجِبت بعدلِه وصبره. وجَّه من كان لهم قدرةٌ على العيش خارج لندن إلى تركها من فوره، ووفّر لهم سبلَ الخروج. أمّا الآخرون، الذين كان وجودهم نافعًا للمدينة، إمّا لحرفة مطلوبة يجيدونها، أو لعدم امتلاكهم لمسكن خارج المدينة، فقد وجّه لهم إرشادات تساعدهم بتجنّب العدوى. فساعد العوائل المثقلة، وأعان مَن أفقدَهم الموتُ مُعيلهم. تحسّن النظام والإغاثة، بل والصحّة أيضًا، تحت إدارته، وكأنّه مسَّها بعصا سحرية.

قال لي لما صرنا وحدنا أخيرًا، "سعيد لأنّك أتيتَ. ليس لديّ

إلا بضعُ دقائق، وينبغي أن أخبرك بالكثير فيها. الطاعون في انتشار -لا جدوى من إغماض أعيننا عن الحقيقة- وأعداد الموتى في ازدياد. ما القادم؟ لا أستطيع التخمين. أما وقد صرت نظيرًا لمحافظ المدينة، حمدًا لله، فسيكون تركيزي على الحاضر. طلب رايلاند منّي، بعد أن أطلت في المقام، بأنّ آذن له بترك المدينة قبل انقضاء الشهر. مات النائب المُعيَّن من قبل البرلمان، لذا ينبغي أن يعين شخص آخر. قدّمت طلبي لشغل المنصب، ولا أظنُّ أنَّ أحدًا سينافسني. سيحدّد الأمر الليلة، فقد نودي البرلمان للاجتماع لهذا الأمر. ينبغي أن ترشّحني يا ليونيل، فرايلاند لا يستطيع إظهار وجهه، لشعوره بالعار. أستفعل ذلك لأجلي يا صديقي؟"

ما أجمل إخلاصه! ها هو ذا سليل الملك وربيب الترف، من تأنف نفسه طبيعة عن الأعمال الدنيا، يضحّي بنفسه في سبيل الشعب. حين دهمنا الخطر وصار أقصى أمل الناس البقاء على الحياة، وأدبروا، تقدّم أدريان العزيز البطل. كانت الفكرة نبيلة بحدّ ذاتها، إلا أنّ طبيعتَه الكريمةَ وغير المرائية، جعلت وقعها أشدّ في النفوس. كنتُ لأرفض طلبه، لولا أن رأيت الأمور التي أنجزها. شعرت بأنّ عزمه لن يتثنيَ، لذا وافقت على طلبه بقلب حزين. أمسك بيدي وقال بمودة لي، "شكرًا. أرحتني من مشكلة عويصة.

كنت ولا زلت، أفضل أصدقائي. إلى اللقاء! سأتركك الآن بضع ساعات. اذهب وتحدّث مع رايلاند. فعلى فراره من منصبه في لندن، إلا أنّه قد يكون أعظمَ عون لنا في الشمال، عن طريق استقبال المسافرين إلى هناك، وإمداد العاصمة بالطعام. أرجوك، أيقظ حسّ الواجب فيه".

تركني أدريان، ليتمّ زيارته اليومية للمستشفيات، وليتفقّد أحياء لندن المكتظّة، كما علمت لاحقًا. وجدت رايلاند وقد تغيّر كثيرًا، حتّى عن حاله حين جاء إلى وينزر. فقد خيّم خوفٌ ملازمٌ على ملامحه المصفرة، وبرى جسدَه. أبلغتُه بما سيتمّ الليلة، فارتسمت ابتسامة راحة على وجهه المتقلّص. كان راغبًا بالرحيل، لتخوّفه من الإصابة بالطاعون في أيّ لحظة، وكان كلّ يوم أصعب عليه في قبول البقاء لأجل أدريان. سيترك المدينة طلبًا للسلامة في اللحظة التي يُعيّن أدريان فيها نائبًا رسميًّا له. استمع إلي كلّ ما قلت له وهو على حاله تلك. مسّه شيءٌ من الفرح، ونمى إلى أن انفرجت أساريره لقرب رحيله. راح يتحدّث عن الخطط التي ينبغي أن يتّخذَها في مقاطعته، ناسيًا للحظة عزمَه أن يقطع اتصاله بالبشر وأن ينغلق على نفسه في قلعته.

في المساء ذهبتُ وأدريان إلى ويستمينستر. أثناء سيرنا، أخذ

يذكرني بما ينبغي أن أفعل وأقول. مع ذلك، ولسبب غريب، دخلت القاعة من دون التفكير ولو للحظة بما سأفعل. ظلّ أدريان في غرفة القهوة، بينما اتخذتُ أنا مقعدي في قاعة القدّيس ستيفين ملبّيًا رغبتَه. خيّمَ صمتٌ غيرُ معهودٍ على القاعة. لم أدخلها منذ أن انتخب ريموند رئيسًا. كان زمنًا لا ينسى لأغلب أعضاء البرلمان، لبلاغة المتحدّثين وحرارة النقاش. كانت المقاعد شبه خالية. وخلت المقاعد التي كان يشغلها النبلاء في العادة من أهلها. حضر بعضٌ من ممثّلي المدن الصناعية، وملّاك الأراضي، الذين لم يدخلوا البرلمان لأجل امتهان السياسة. كان أول موضوع للنقاش هو طلب الرئيس من المجلس تعيين نائب له، ليحلَّ في محلّه أثناء غيابه. ساد الصمت، إلى أن جاء أحد الأعضاء إليّ ليخبرني بأن إيرل وينزر يبلغني بأنه حان دوري لترشيحه، في غياب الشخص المنوط بهذه المهمّة. أدركت حينها، وأول مرة، حجم المهمّة الموكّلة إليّ فارتبكت في الموقف الذي وضعت نفسي فيه. تخلّى رايلاند عن موقعه مخافة الطاعون، والخوف نفسه هو ما منع وجود منافس لأدريان. والآن سأقوم أنا، أقرب الناس إلى إيرل وينزر، بترشيحه إلى ذلك المنصب. سأدفع هذا الصديق الذي لا مثيل له إلى قلب الخطر. مستحيل! سأقدّم نفسي مرشّحًا، قُضي الأمرُ.

حضر الأعضاء القلّة هذه الجلسة لغرض حَسْمِ الأمر قانونيًّا، بالنصاب الأدنى، لا ليشهدوا جدالًا حول الأمر. نهضت بلا وعي وركبتاي ترتعشان. علقت الحيرة في صوتي لما نطقت بالكلمات عن أهمية اختيار شخص مناسب لمثل هذه المهمة الجليلة. ولكن، لما قدمت فكرة شغلي للمنصب بدلًا من صاحبي، زال الثقل والألم عنّي. انسابت كلماتي بعفوية وسرعة وحزم. أشرت إلى ما أنجز أدريان، ووعدت بأن أُبدي حرصًا أكبرَ لإتمام ما بدأ. رسمت صورة بليغة لتذبذب صحّته، ثم فاخرت بقوّتي. رجوتهم أن ينقذوا ابن أعرق عائلة في إنجلترا، حتّى من نفسه. أقسمتُ بقرابتي له على أن أكون مخلصًا. وأقسمتُ بزواجي من أخته وأبنائي، ورثتِه المفترضين، على أن أكون عند وعدي.

نُقل خبر هذا التحوّل غير المتوقّع إلى أدريان. فهرع إلى القاعة وشهد إنهائي خطابي المتّقد. لم أنتبه إليه، فقد كانت روحي في كلماتي، ولم يبد أمام ناظري إلا صورة جسد أدريان المصاب بالطاعون والموت يبتلعه. أخذ بيدي بينما كنتُ أختتم وهتف، "يا لَفظاظتك! لقد خنتني!". ثم ركض مسرعًا إلى مقعد نائب الرئيس، متصرّفًا وكأنّه صاحبُ الأمر والنهي. قال بأنه اشترى ذلك المنصب بتحمّل المشاق والمخاطر. وأنّ ذلك المنصب أقصى طموحاتِه.

تساءل، أبعدما كرّس نفسَه لخدمة بلده آتي أنا لأجنيَ ثمارَ تعبِه؟ ذكرهم بالحال الذي كانت لندن عليه حين أتاها، كيف غلب الذعر عليهم، وحلّت المجاعة، وانحلّت عُرى الأخلاق والقانون. أعاد إحلال النظام، وتطلب ذلك إصرارًا وجهدًا وصبرًا. لم يكن نومُه ولا يقظتُه إلا في خدمة بلده. أيجرؤ أحدٌ على تكذيبه؟ أسيمنعون عنه مكافأتِه المستحقّة التي عمل بكدٍّ لأجلها، ويهبونها لآخر لا عهد له بالسياسة ولا أمورها. أيقدّمون الغِرّ على الخبير؟ طالبَ بمنصب النائب على أنّه حقّ له. أظهر رايلاند تفضيلَه له. لم يسبق لوريث الملك أن طلبَ من أقرانه معروفًا أو فضلًا. أقرانه الذين كانوا ليصيروا رعاياه في حال آخر. أيرفضون طلبه الآن؟ أيُبعدون وريث ملوكهم العريقين عن درب الرفعة والطموح، ويهيلون خيبة أخرى على ذلك النسل المتهاوي.

لم يسمع أحدٌ من قبلُ ذكرًا من أدريان لحقّه الوراثي. لم يظنّ أحدٌ يومًا أنّ السلطة ستصيرُ عزيزةً عليه. بدأ خطابه بحدّة شديدة، واختتمه برقّة غيرِ مصطنعة. قدّم طلبَه ذاك بتواضع شديد، كأنّما كان يطلب، بغير حقّ، أن يُقدم على الناس بالثراء، أو الشرف، أو أن يعلوَ على الإنجليز. لا وكأنّه كان يطلب أن يبوء كريه الأعمال والموت المحتّم. علت همهماتُ الاستحسان بعد خطابه. هتفت،

"لا تستمعوا إليه، كلامه خاطئ. خاطئ في حقّ نفسه"، قوطعت. فُرض الصمت، ثم أُمرنا كما جرت العادة بأن نخليَ القاعةَ أثناءَ اتخاذ القرار. خُيّل إليّ بأنّ الترددَ أصابَهم وأنّ هناك بعضًا من الأمل لي. بَيدَ أنّي كنتُ مخطئًا، فبالكاد تركنا القاعة حتّى استُدعي أدريان ونصّب نائبًا للرئيس.

عدنا إلى القصر معًا. قال أدريان، "لماذا يا ليونيل، ما الذي كنتَ تنويه؟ لم يكن هناك أملٌ بفوزِك، ومع ذلك منحتني هذا النصر المؤلم على صديقي العزيز".

أجبت، "هذا أمرٌ مقبولٌ. أنت تلقي بنفسك، يا أخ آيدرس الحبيب وأحبّ الخلق إلى قلبي، تلقي بنفسك إلى التهلكة العاجلة. كنت لأمنع ذلك، ولن يكون في موتي بلاءٌ عظيم؛ ولست أسعى للموت. أمّا أنت، فلا فرصة لك بالنجاة".

قال أدريان، "أمّا بالنسبة للنجاة، فأرجو أن تشعّ النجوم الجافية فوق قبورنا بعد عشرات السنين. أمّا بالنسبة لإصابتي بالمرض، فأستطيع أن أثبت لك نظريًّا وعمليًّا بأنّ فرصي في النجاة في البيئة الموبوءة أفضل من فرصك. هذا أنا، ولدت لهذا الأمر؛ لأحكم إنجلترا في الفوضى وأنقذها من الخطر. لأكرّس نفسي لها. دمُ

أسلافي يصيحُ عاليًا في عروقي، ويأمرُني بأن أكونَ أولَ رجال بلدي. أو لأقل، وإن كان هذا القول مستفزًّا لك، بأنّ والدتي المكلّلة الفخورة زرعت فيّ حُبَّ التميّز. إلّا أنّ ضعف الصحة وغرابة الآراء التي كنتُ أعتنقُ صدّتني طويلًا عن المطالبة بإرث أهلي المسلوب. أمّا الآن، فقد استيقظَت فيّ والدتي، أو لنقل دروسَها. لستُ أقوى الحرب، ولن أنصب العرش الملكي فوق روح الشعب الإنجليزي مرة أخرى بالمكائد والدسائس. لكن، بوسعي أن أكون أولَ من يهبُّ لحراسة بلدي، وقد حاقت بها يد الكارثة والدمار المريع. لم يعد لي إلا هذه البلاد وأختي الحبيبة. أمّا الأولى، فسأحميها، والثانية فأعهد بها إليك. إن نجوت، وهلكت هي، فلا خير لي بالعيش بعدها. أوصيك بحفظها، وأعلمُ أنّك ستفعل. وإن أردت أمرًا آخرَ يحثّك على حفظِها، فاعلم بأنّك تحفظُني بحفظك لها. طباعُها الكاملة التي لا تشوبها شائبة محاطة بمشاعرها، فإن مسّ الضرر قلبَها ذوت كزهيرةٍ مُنع عنها الماء. وأدنى جرح لعواطفها، جرح لا شفاء له. لقد ألمَّ بها الخوف علينا. تخشى على الأطفال الذين تحبّهم، وعليك والد أطفالها وحبّها وزوجها وحاميها. ينبغي أن تكون قريبًا منها لتسندَها وتشجّعها. عد إلى وينزر يا أخي. فأنت أهلٌ لما بيننا من صلةٍ لأن تملأ الفراغ الذي تركته لك. ودعني في شقائي هنا، لألتفت إلى ذلك المعتزل العزيز وأقول: هناك السلام".

الفَصلُ السابع

مضيت إلى وينزر ولكن ليس بنيّة البقاء هناك. لم أذهب إلا لأخذ موافقة آيدرس على عودتي إلى المدينة لملازمة جانب صديقي أدريـان. لأشاركَه أعباءَه وأفتديَه بحياتي إن استلزم الأمر. لكنّي لم أقوَ على التفكير بالوجعِ الذي سيجرّه عزمي هذا على آيدرس. فقد أقسمتُ بحياتي على ألّا ألقيَ بالحزن على محيّاها. أأحنث بقَسَمي في ساعة الشدّة هذه؟ انطلقتُ في رحلتي مستعجلًا، والآنَ أودُّ لو أَبطَأت لتستغرق أيامًا، بل أشهرًا. تمنّيتُ لو أمكنني تجنّب الأمرِ الذي لا محيد عنه. جاهدت، بلا جدوى، أن أهربَ من التفكير في المستقبل المظلم. بَيدَ أنّ تلك الكوابيس ظلّت تطغى حتّى أحاطت بالعالم كلّه.

حثّني أمرٌ ما على تغيير طريقي المعتاد واتخاذ الطريق المارّ عبر إغام وبوّابة الأسقف. ترجّلت عند كوخ برديتا القديم، وأرسلت العربة قُدُمًا، عازمًا على قطع طريقي عبر الغابة مشيًا إلى القلعة. كانت تلك البقعة الممتلئة بأجمل الذكريات وذلك المنزل المهجور وحديقته المهملة خير مكان لاحتضان حزني. في أيّام سعدِنا زيّنت برديتا كوخها بكلّ حُسن متاح، ولم تبخل الطبيعة

عليها بذلك. ولمّا كان الغلوُّ سمةً فيها، فقد كان حدث فراقها وريموند سببًا في هجرها الأبديّ لهذا المكان. صار المكان خربةً الآن فتسوّرت الأيائل السياج وسكنت فوق الأزهار. نمى العشب على العتبات، وأذِن صريرُ الباب للريح أنّ عمَّنا الهجر. كانت السماءُ زرقاءَ والهواءُ عبقًا بعطر الأزهار القليلة التي نبتت بين الأعشاب. اهتزّت أعالي الأشجار مطلقة لحن الطبيعة المفضّل؛ بَيدَ أن منظر الممرّات المختنقة والأزهار المحفوفة بالأعشاب أفلت كلّ بهجة في هذا المشهد الصيفي. ولىَّ زمانٌ كان جمعنا يزهى فيه في هذا الكوخ آمنين سعيدين. قريبًا ستلحق ساعات الحاضر بالماضي، وتنهض ساعات المستقبل من رَحمِ الزمانِ، مهدها ونعشها، حالكة متوعّدة. أوّل مرة في حياتي أحسدُ الموتى، وأفكّر بلذّة بمتكئ المرء أسفل التراب، حيث لا سطوة للخوف ولا للحزن. عبرتُ من إحدى الفجوات في السياج مسرعًا إلى عمق الغابة، فشعرت باشمئزاز لمّا أحسست بتدافُع الدموع. آه أيّها الموت وأيّتها الصروف، يا سادة الحياة، أين أنتم لأصارعكم! أيُّ شيء في بهجتنا أثار حسدَكم حتّى تسعَوا في خرابِها؟ كنّا سعيدين نحِبّ ونحَبّ، لم تبقَ من نعمة في قرن أمالثيا إلا وأسبغت علينا، لكن وا أسفاه!

أيُّها القدرُ المتعوس، والآلهة البربرية، اليوم جيفة وبالأمس زهرة، ولا دوام!

بينما كنت أمشي مشغولًا بأفكاري، مرّت بي مجموعة من أهل الريف بدَوا مهمومين. دفعتني بعض الكلمات التي بلغتني من حديثهم إلى الاقتراب منهم والسؤال. وفدت مجموعة من الفارين من لندن، وهو أمر أعتيد في تلك الأيام، بقارب في نهر التايمز. ولمّا لم يقدم أحد في وينزر مسكنًا لهم انطلقوا شمالًا وباتوا ليلتَهم في كوخٍ مهجورٍ بالقرب من هويس بولتر. انطلقوا في طريقِهم في اليوم التالي مخلّفين أحدهم، وقد أصابَه الطاعون. وما إن انتشرَ هذا الخبرُ حتّى جفل الناس عن الاقتراب مسافة تقلّ عن نصف الميل من الحيّ الموبوء. ترك المريض البائس وحيدًا ليصارع الطاعون والموت والوَحدة بكلّ ما يستطيع. دفعتني الشفقة إلى الإسراع إلى الكوخ، لأتحقّق من الخبر ولأعتني به.

قابلت زُمَرًا من أهل الريف أثناء سيري، وكانوا في حديثٍ محمومٍ عن ذلك الخبرِ. وعلى بعدهم عن قبضةِ العدوى، كان الهلعُ باديًا على وجوههم. مررتُ بمجموعةٍ من أولئك الخائفين على الطريق المباشرة المتّجه إلى الكوخ. أوقفني أحدُهم مخمنا بأنّي على جهل بالخبر، وقال لي بألّا أمضيَ في ذلك الاتجاه، فغير

ذي بعيدٍ رجلٍ مصاب بالطاعون.

أجبت، "أعرف، وأنا ذاهب لأرى حال ذلك الرجل المسكين". سرت غمغماتٌ ورعب بين الجمع. فتابعت:

"هُجر ذلك البائس المسكين ليحتضرَ بلا مُعينٍ في هذه الأوقات التعيسة. والله أعلمُ متى سيكون أحدُنا في حالٍ مماثلٍ. سأفعلُ ما أحبُّ أن يفعل لي".

"لكنّك لن تستطيعَ العودةُ إلى القلعة والسيدة آيدرس والأطفال". طرقت أذني تلك الكلمات من بين حديث مشوّش.

قلت، "ألا تعلمون يا أصدقاء بأن الإيرل، رئيسا الآن، يزور يوميًّا، ليس فقط أولئك المحتمل أصابتهم بالمرض، بل حتّى مستشفيات الأمراض الوبائية، مقتربًا، بل وحتّى لامسًا أولئك المصابين؟ ومع ذلك لم يكن في صحّة أفضل من قبل ممّا هو عليه الآن. تصوّركم عن طبيعة الطاعون خاطئ بالكامل. ولكن لا تخشوا، فلست أطلب إلى أحد منكم أن يرافقني أو أن يصدّقني، إلى أن أعود سالمًا معافًا من عند المريض".

تركتهم هكذا وانطلقت مسرعًا إلى أن وصلت الكوخ، وكان الباب مفتوحًا جزئيًّا. دخلت وأكّدت لمحةٌ واحدةٌ بأنّ ساكنَه لم يعش. كان مسجًى على كومة من القشّ باردًا متصلّبًا. بينما مُلأتِ الغرفة برائحة كريهة، وبينت البقعَ والعلاماتِ المختلفةَ شدّة تمكّن الطاعون.

لم أرَ من قبلُ شخصًا ميّتًا بالطاعون، بينما كان الجميع يجفلون من أعراضه. قادتني الرغبة بالإثارة إلى قراءة يوميّات ديفو ورواية أرثرميرفين التي صوّرها كاتبها أيّما تصوير. كانت الصور المرسومة في هاذين الكتابين دقيقة للغاية إلى درجة شعرنا فيها بأنّنا عشنا الأعراض المذكورة. لكنّ تلك المشاعر التي أثارتها تلك الكلمات، على شدّة وقعها، ومشاهد موت الآلاف وعذابهم، كانت شيئًا لا يذكر مقارنة بما شعرت به وأنا أنظر إلى جثّة ذلك الغريب التَّعِس. كان ذلك الطاعون بلا ريب. رفعت أطرافه المتصلّبة، وبدت لي ملامحُ التشوّه على وجهه وعيناه المتحجّرتان الخاليتان من الحياة. أثناء انهماكي جمّد الرعبُ دمي، وأسرى بي رعشة أوقفت شعرَ جسدي. فتحدّثت إلى الميت، وقد أوشكت على الجنون. "قتلك الطاعون إذًا"، تمتمت. "كيف حصل ذلك؟ هل كانت الإصابة به مؤلمة؟ تبدو وكأنّ العدوَّ قد عذبّك قبل أن

يذبحك". ثم قفزتُ مُسرِعًا وهربتُ من الكوخ قبل أن تبطلَ الطبيعة قوانينها، وتنطق شفاه الميت بالكلمات مُجيبة.

أثناء عودتي على الطريق رأيتُ على بُعد المجموعة نفسها التي تركت. ما إن رأوني حتّى هربوا مسرعين. وأضاف الاضطراب الظاهر على محيّاي خوفًا إلى خوفهم من الاقتراب من شخص دخل في حمّى العدوى.

حين يُغيّبُ المرءُ عن الحقائق يتّخذُ أحكامًا يحسبُها معصومة من الخطأ، ولكن ما إن توضع تحت اختبارِ الواقعِ حتّى تتلاشى كالأحلام. سخرت من خوف أصحابي الريفيين لمّا نابهم ما ناب الآخرين. ولكن لمّا دهمني ذلك الخوفُ جفلت. شعرتُ بأنّني تخطّيتُ نهر الروبيكون، وأنّه ينبغي لي أن أفكّرَ بما ينبغي أن أفعلَ على هذا الجانب من المرض والخطر. حسب المعتقد الشائع ملابسي، وشخصي، والهواء الذي أتنفّسه كلّ ذلك يحملُ خطرًا مميتًا عليّ وعلى الآخرين. أينبغي أن أعودَ إلى القلعة، إلى زوجتي وأبنائي، بهذه العدوى؟ لستُ متأكّدًا إن كنت قد أُصبت بالعدوى أم لا، ولكنّي حتمًا لم أشعر بالمرض. بضع ساعات ستكون كفيلةً بمعرفة الإجابة. سأقضيها بالغابة مفكّرًا بما سيأتي وأيّ فعلٍ سأتخذ في المستقبل. لما غلبت المشاعر التي اجتاحتني من رؤية

الميت بالطاعون نسيت الأحداث التي أثارتني في لندن. وبرزت لي أفكار أكثر وضوحًا، وإيلامًا، بعد أن زال عنها الحجاب الذي كان يغشاها. فلم يعد السؤال عمّا إن كان ينبغي لي مشاركة أدريان مشاقَّه ومخاطره، بل كيف لي أن أنهج نهج حماسته وتعقّله اللتين أنتجتا النظام والوفرة الغذائية في لندن. وكيف لي، وقد انتشر الطاعون على قدر واسع، أن آمن صحّة عائلتي؟

بسطت وجه الأرض كخارطة أمامي. بَيدَ أنّي لم أستطع أن أجدَ بقعةً أشير إليها بإصبعي لأقول: هنا المأمن. ففي الجنوب أباد الطاعون جنسَ البشر تقريبًا، بشدّة وانعدام طبّه. وزادت الطوفاناتُ والعواصف والآفات الزراعية والرياح المحمَّلة بالسموم عذاب البشر هناك. وكان الأمرُ أسوأَ في الشمال، فعددُ السكّان القليل كان يتضاءل شيئًا فشيئًا، وأحدقت المجاعة والطاعون بالناجين عديمي الحيلة، الذين كانوا متأهّبين للموت على يديهم. قلّبت رأيي حول إنجلترا. كانت مدينتها الكبرى وقلب بريطانيا العظيمة خالية من النبض. التجارة ميتة، وانقطع كلّ أمل وبهجة. نمتِ الحشائشُ في الشوارع وخلتِ البيوتُ، وبدا أنّ مَن أبقتهم الضرورة قد وسموا بالطاعون الذي لا مفرَّ منه. في المدن الصناعية الكبرى كانت المأساة على نطاق أصغر، وأكثر سوءًا مع ذلك. فلم يكن هناك

أدريان ليشرفَ ويوجّهَ بينما فُتك بجموع المساكين. إلا أنّنا لم نكن لنموت جميعًا. صحيح أنّ عددَنا قد انخفض إلا أنّ جنس الإنسان سيبقى، وهذا الطاعون العظيم سيصيرُ تاريخًا للتأمّل في قادم السنين. لم يسبق أن حلَّ طاعون كهذا من قبلُ بلا شكّ، لذا كان علينا أن نعمل بجدّ لنوقفَ انتشارَه. قبل ذلك كان البشر يذبحون بعضهم بالآلاف بل بعشرات الآلاف في سبيل اللّهو. أمّا الآنَ، فصار الإنسان كائنًا ذا قيمة، فحياة الواحد منهم باتت أغلى من كنوز الملوك. تأمّل محيّاه المكسوّ بالعقل، أطرافه الرشيقة، جبينه الأغر وبناءه العجيب. ليس جديرًا بأحسن ما خلق الإله أن يُرمى جانبًا كوعاء مكسور. بل حري به أن يبقى وأن يحمل أبناءه وذراريهم اسمه وهيئته إلى آخر الزمان.

الأهم أنّه ينبغي لي أن أحرس أولئك الذين أوكلوا إلى رعايتي الخاصّة بحكم الطبيعة والقدر. ولا ريب أنّه لو كان لي أن أختارَ من بين بني جنسي أشخاصًا ليكونوا مثالًا للعظمة والخير، لما اخترت إلا أولئك الذين ارتبطت بهم بأقدس رباطٍ. لا بدَّ أن ينجوَ بعضٌ من بني البشر، ولا بدَّ أن يكون أولئك من الناجين. ستكون تلك مهمّتي، وما حياتي إلا تضحيةٌ صغيرةٌ في سبيل تحقيقها. هناك إذًا في تلك القلعة، قلعة وينزر، مكان ولادة زوجتي وأطفالي

سيكون ملاذ حطام معشر البشر وملجأهم. ستكون غابتُها عالمَنا، وحديقتُها مطعمًا لنا. وبين أسوارها سأنشئ عرشًا مرتعشًا للصحة. كنت منبوذًا ومشرّدًا لما ألقى أدريان بحنان عليّ شباك الحبّ والتحضُّر، ووصلني بطريقة لا فكاكَ منها ببرّ الإنسانية وشمائلها الحَسَنة. كنت متطلّعًا للخير ومحبًّا للحكمة، إلا أنّني لم أكن في قائمة من قوائم الشرف، لما اختارتني آيدرس سليلة الملك، التي كانت تجسيدًا لكل ما هو إلهي في المرأة، التي مشت الأرض كحُلم شاعر، كتمثال إلهة وهبت الحياة أو كقديسة خطّت خارجة من قماش لوحة. اختارتني وهي أكرم الناس، ومنحتني نفسها، هدية لا تُقدَّر بثمن.

هكذا قضيت عددًا من الساعات بالتأمُّل، إلى أن نبهنيَ الجوعُ والتعبُ إلى الوقت، ثم نبهني طولُ الظلال إلى انحدار الشمس. همتُ حتّى وصلت إلى براكنيل، غرب وينزر. أكّد لي الشعور بتمام الصحّة أنّني لم أُصب بالعدوى، وتذكّرت أن آيدرس لم تعلم بالأحداث التي جرت معي. قد تكون سمعت بوصولي من لندن وذهابي إلى هويس بولتر، وقد يثير ذلك هلعَها إن اتصل غيابي. عدت إلى وينزر عن طريق الشارع الكبير، ولمّا مررتُ بالبلدة في طريقي إلى القلعة وجدتُها في حال من القلق والاضطراب.

قال السير توماس براون، "فات الأوان على الأمل. لا نستطيع أن نأملَ أن نعيشَ بأسمائنا بقدر ما عاش بعضهم بأشخاصهم. لا تشابُه بين أحد وجوه يانوس والآخر". استنادًا على ذلك النصّ ظهر الكثير من المغالين المتنبّئين بأنّ نهاية العالم قد حانت. تولد الخرافاتُ من حطام آمالنا، وتطيش الدلالات بشكل جامح وخطير في مسرح الحياة. بينما يتضاءل المستقبلُ ليصير نقطة في عين المنجّمين. خرت واهنات الأرواح من النساء ميتات وهنّ يستمعن لكلامهم. أمّا الرجال الذين بدت عليهم القوة، فقد انحدروا إلى العته والجنون، مصعوقين بالرعب ممّا هو قادم. كان أحد أولئك الرجال يخطب بيأسه البليغ بساكني وينزر. انتشر خبر ما حدث في الصباح وزيارتي للميت، وأثاروا هلع سكّان الريف، فصاروا أدواتٍ ملائمةً ليتلاعبَ بهم مجنون ما.

فقد ذلك البائس زوجته الشابّة وطفله الرضيع بسبب الطاعون. كان ميكانيكيًّا، ولمّا عجز عن مزاولة مهنته التي كانت توفّر له احتياجاته، أضيفت المجاعة إلى مآسيه الأخرى. ترك الغرفة حيث كانت زوجته وطفله، اللذان لم يعودا زوجة وطفلا، بل "ترابًا ميتًا فوق التراب"، ودفعه الجوع، والحزن وفقدان عقله إلى الإيمان بأنّه مُرسَل من السماء ليبلغَ العالم بأنّ نهاية الزمان قد حلّت. دخل

الكنائس وتكهّن للمُصلّين بقرب رحيلهم إلى القبور. ظهر وكأنّه شبحُ الزمن المنسي في المسارح، آمرًا المشاهدين بالذهاب إلى منازلهم والموت. ألقي القبضُ عليه وحبس، إلا أنّه فرّ من حبسه، وخرج من لندن يتجوّل بين البلدات المحيطة. عرَّى بإيماءاته المهتاجة وكلماته المثيرة مخاوف الجميع، وصار صوتًا للأفكار الصمّاء التي لم يجرؤوا على النطق بها. وقف أسفل قنطرة بلدية وينزر، ومن ذلك المكان المرتفع خطب بالجمع المرتعد.

صاح، "أنصتوا يا ساكني الأرض، أنصتي أيّتها السماء المُطّلِعة على كلّ شيء، ويا أشدَّ الأشياء قسوة! أنصت أيضًا أيّها القلب المرمي وسط العاصة، يا من تتنفّس هذه الكلمات وتصعق لمعانيها! الموت محدّق بنا! الأرض جميلة ومزيّنة بالورود، لكنّها قبرنا! سُحب السماء تبكينا، وما النجوم البرّاقة إلا مشاعلُ لجنازتنا. يا بيض الرؤوس من الرجال، أملتم بمزيد من السنين في مساكنكم التي ألفتم، إلا أنّ العَقد قد انقضى ووجب عليكم الرحيل. أيّها الأطفال، لن تعيشوا لتبلغوا رشدَكم، فقبورُكم الصغيرة تحفر الآن. أيّتها الأمهات، ضمّوهم إلى صدوركنّ ليأخذكم موت واحد!"

بسط يديه مرتعشًا وعيناه إلى السماء، وقد بدتا توشكان على القفز من محجريهما. وأخذ يتتبّع في الهواءَ أشكالًا لا نراها. صاح،

"ها هم الموتى! يرتقون بأكفانهم ويمضون في موكب صامت إلى أرض هلاكهم البعيدة. شفاههم الشاحبة لا تنطق وأطرافهم النحيلة خالية من الحركة، بينا ينسلون قُدُمًا". هتف وهو يقفز إلى الأمام، "نحن قادمون. فلأي شيء ينبغي أن ننتظر؟ عجّلوا يا رفاق، اكتسوا بثياب بلاط الموت. سيكون الطاعون حاجبكم إلى حضرته. لم التباطؤ إذًا؟ وقد هلك الطيّب والحكيم والحبيب. قبلوا قبلتكم الأخيرة أيّها الأمهات. ويا أيّها الأزواج، لم تعودوا حماة، فقودُوا شركاءَكم في الموت إليه! هلمُّوا هلمُّوا! فقريبًا سينصرف الأعزاء، ما داموا في مرمى البصر، ولن نلئم معهم شملا أبدا".

كان يعودُ هادئًا فجأةً بعد هذيانه ذاك؛ ليرسم أهوال الزمان بكلماتٍ غيرِ مبالغٍ فيها لكنّها رهيبة. فيصف بتفصيل دقيق آثار الطاعون على جسد الإنسان، ويروي قصصًا تفطر القلب عن انتزاع الموت للأقارب الأعزاء، وعن شهقات الرعب واليأس عند موت الحبيب، حتّى يصدر الأنين وصرخات الذعر من المستمعين. كان هناك رجلٌ على وجه الخصوصِ واقفٌ في المقدّمة، ثبتت عيناه على المتنبّئ، وقد فتح فمَه وجمُدَت أطرافُه- بينما تقلّب وجهه بألوان مختلفة، أصفر فأزرق فأخضر، مع خوف شديد. تنبّه المهووسُ إلى نظرة الرجل فالتفت إليه. فكان كما

سمعنا من قبلُ عن تحديقة الأفعى المجلجلة، التي تغري الضحية المرتعبة إلى أن تصير بين فكّيها. هدأ المهووس وانتصب واقفًا، برقت عيناه بالسلطة. نظر إلى الفلاح الذي بدأ بالارتعاش، بينما استمرّ بالتحديق. اصطكّت ركبتاه وتخبّطت أسنانه. أخيرًا، خرَّ متشنّجًا. قال المهووسُ بهدوء، "الرجلُ مصابٌ بالطاعون". انطلقت صرخةٌ من شفاه الرجل البائس، ثم حلّت عليه السكينة فجأة. كان جليًّا للجميع أنّه قد مات. ضجّ المكانُ بصرخاتِ الرعبِ، فأسرعَ الجميعُ بالهروبِ وأُخليَ السوقُ في دقائق. كانت الجثّة ممدّدة على الأرض وبجنبها جلس المهووس ساكنًا منهكًا، مريحًا خدَّه الكالح على يده النحيلة. سرعان ما جاء بعض الذين أرسلهم المدير لإزالة الجثّة. إلا أنّ المهووسَ المسكينَ خالهم سجّانين فأسرع هاربًا، بينما مضيت في طريقي إلى القلعة.

دخل الموت المحموم عديم الرحمة هذه الأسوار الغالية. خادمة مسنّة رعت آيدرس في طفولتها وعاشت بيننا مثل قريبة مبجّلة لا خادمة، ذهبت قبل عدّة أيامٍ لزيارة ابنتِها المتزوّجة، وسكنت في لندن. مرضت بالطاعون في ليلة عودتِها. قامت تلك المرأة مقامَ الوالدة لآيدرس، وكان ضعفُ تعليمها ومعرفتها اللذان جعلاها متواضعة ومسالمة الطباع أسبابًا لزيادة محبّتها

عندنا. كانت المفضّلة عند الأطفال. وجدت فتاتي المسكينة بحزنٍ وخوفٍ فظيعين، ولا أبالغُ بذلك. قامت على المريضة والأسى يأكلُها، ولم يخفّف ذلك عنها جموح أفكارها إلى أطفالها الذين خافت عليهم من العدوى. كان وصولي كمصباح منارة لبحارة وسط عاصفة مهلكة. بثّت إلي مخاوفها المروعة واطمأنت إلى حكمي، فاستراحت لمشاركتي إيّاها أحزانها. سرعان ما قضت خادمتنا المسكينة. وتحوّل ضيقُ القلق إلى ندم عميق، والذي على شدّة ألمِه في أول الأمر إلا أنّه أفسح مجالًا لعزائي وسلواي. غشّي سلطان النوم آيدرس وسُكب النسيان على عينيها الباكيتين.

نامت وغلب الصمت على القلعة التي سكت ساكنوها للنوم. كنت مستيقظًا فأشتغل عقلي أثناء ساعات الليل البهيم الطويلة بالتفكير، وكأنّ به عشرةَ آلاف عجلة طاحون تهوي مسرعة بلا قياد. نام الجميع، نامت إنجلترا بأسرها. رأيتُ من نافذتي المشرفة على البلاد المنبسطة أسفل النجوم المضيئة، البلاد تنعمُ بالسكينة. كنتُ يقظًا حيًّا، بينما كان أخو الموت ينهشُ بني جنسي. ماذا لو أنّ أحدَ الآلهة الطيّبة سيطر عليه؟ رنّ صمتُ الليل في أذني. لم أعد أطيق الوَحدة، وضعت يدي على قلب آيدرس النابض وانحنيت لأستمع نبضها، لأؤكدَ لنفسي أنّها ما تزال حيّة. تردّدت لحظة

بشأن إيقاظها، سرى بي خوفٌ رهيبٌ. يا ربَّاه! أيُعقلُ أن يحدث ذلك في أحد الأيام؟ أن يفنى الجميع يومًا ما، وأسيرَ وحيدًا في الأرض؟ أكانت تلك الأصوات المنذرة ذات الوحي المبهم هي ما غرس الإيمان بي؟

لكن لن أنادي أصوات النذر التي تعلن لنا المحتوم
وكما الشمس التي ترسم صورتها قبل الشروق في الأفق
تفعل أشباح الأحداث الجِسام، إذ تخطو في الغد وهي في اليوم

الفصل الثامن

بعد انقضاء فترة طويلة ها أنا أعود إلى سرد قصّتي مدفوعًا بقلق روحي المستمرّ. لكن، أجدني ملزمًا بتغيير الصيغة التي اتبعت حتّى الآن. قد تبدو التفاصيل المذكورة في الصفحات القادمة تافهة، إلا أنّه أصغرُها ثقيل في ميزان المحنة الإنسانية. هذه الإقامة المسئمة بين أحزان الآخرين، بينما كانت أحزاني تكفيني. هذا التعري البطيء من جراح روحي. مذكّرات الموت وذلك الطريق المفصّل والمعذّب الذي يقودني إلى محيط من الدموع التي لا تنفد، كلّها توقظ فيَّ حزنًا معوّلا. استخدمت ذلك التاريخ كمخدّر. فبينما كنت أصف أحبّائي وهم ينبضون بالحياة ويشعّون بالأمل، فاعلين مؤثّرين في القصة، كنت أنال راحة من ذلك. ستكون لذّة وصف نهاية كلّ شيء ذات طعم كئيب. لكن الخطواتِ الوسيطةَ بين ما كان وما هو كائن، والتفاتي للماضي بلا قدرة على استكناه الصحراء المستترة خلفه، أمر يفوق طاقتي. بوّأني الزمن والخبرة فوق ربوة أستطيع منها فهم الماضي جملة، وسيكون وصفي له بذلك الشكل. مبيّنا الأحداث المؤثّرة، وملقيًا بالأضواء والظلال لأرسم صورة متناغمة في ظلمتها.

لن يكون هناك حاجةٌ لسرد الوقائع المشؤومة، التي سنجد مثيلاتٍ لها في أيّ لمحةٍ لكارثتنا العظيمة. أيحبّذ القارئ أن يطّلع على مستشفيات الأوبئة، حيث الموت هو المسكن؟ عن مسير عربة الموت الحِدادي؟ عن بلادة مشاعر السفَلَة، وحزن القلب المُحبّ؟ عن الصرخات المعذّبة والصمت الرهيب؟ عن أطوار الطاعون والفرار والمجاعة والقنوط والموت؟ هناك كتب عديدة تشبع الفضول لتلك الأمور. ليقرأ من شاء إلى ما كتب بوكاتشيو وديفو وبراون. هذا العدم الكاسح الذي ابتلع كلّ شيء، والعزلة الخرساء على هذه الأرض التي كانت تضجُّ من قبل، والوَحدة التي تطوّقني، نزعت الألم من تلك التفاصيل. بل أضفت على ألم الماضي الشاحب صبغةً شعريةً. أستطيعُ الهروبَ من فسيفساء الواقع بأن أستغرقَ وأتأمّلَ في ألوان الماضي الممتزجة.

عدتُ من لندن مشغول البال والقلب بتأمين حياة عائلتي، إيمانًا بأنّ ذلك واجبي الأهمّ، ثم العودة للوقوف إلى جانب أدريان. إلا أنّ الأحداثَ التي أعقب وصولي إلى وينزر مباشرة غيّرت نظرتي. لم يعد الطاعون في لندن وحدَها، بل في كلّ مكان. هجم علينا، كما قال رايلاند، كقطيع من ألف ذئب عاوٍ كالح ضارّ في ليلة شَتَوية. ما إن دبَّ الطاعون في الأرياف حتّى تبيّن أنّه أشدُّ فتكًا وفظاعةً

وأصعبُ علاجًا منه في المدن. فقد كانت هناك صحبة في الألم في المدن، وكان الجيران يطلّ دائمًا بعضهم على بعض. وبإلهام من أفعال أدريان الطيّبة، كان العون يقدم دائما ممّا هوّن المصاب. أمّا في الريف وبيوته المتناثرة وأكواخه المتنحية، وحقوله وحظائره، فقد كان الطاعون يفتك بـالأرواح بلا سميع ولا بصير. كان الحصول على المعونة الطبّية أصعب، وكذلك الطعام. ولمّا زالت سلطةُ العار عن البشر، بعد أن مات عنهم رفاقُهم، راحوا يُقدِمون على أفعال بالغة الشناعة، وبعضهم استسلم لمخاوفه كلّها.

حضرت أفعال من البطولة أيضًا. أفعال يكفي ذكرُها لأن تملأ القلب فخرًا وتجري المآقي بالدمع. هكذا هي طبيعة الإنسان، قريب فيها الجمال من البشاعة. فحين نقرأ التاريخ يدهشُنا الكرمُ والتضحيةُ البالغان اللذان يتبعان الجرائم، لافّة لطخات الدم بإكليل من الزهور السماوية. لم تكن تلك الأفعال تهدف إلى تزيين موكب الطاعون الجاهمِ المتأهّب للانتشار.

كان سكّان بركشير وباكينجهام شاير على علم سابق بأنّ الطاعون بلغ لندن، وليفربول، وبريستول، ومانتشستر، ويورك؛ باختصار، في كلّ المدن ذات الأعداد السكّانية الكبيرة. ومع ذلك أصابتهم الدهشة والكآبة حين وصل الطاعون إليهم، وغلب

عليهم الضيقُ والسخطُ في غمرة الخوف. عزموا على فعل أيّ شيء ليطرحوا ذلك الشرَّ المتشبّث عن أنفسهم، وخالَ لهم أنّهم وجدوا الحلّ. ترك سكّان البلدات الصغيرة بيوتهم، ونصبوا خيامًا في الحقول، مبتعد بعضهم عن بعض وغير آبهين بالجوع وشدّة الطقس. كانوا بظنّهم قد تجنّبوا الوباء المميت. أمّا الفلاحون وسكّان الأكواخ، فكانوا على المقابل من ذلك، إذ دبَّ فيهم خوفٌ من العزلة ورغبة شديدة بالحصول على الرعاية الطبّية، لذا اندفعوا إلى المدن. لكن، كان الشتاء قادمًا، ومع الشتاء الأمل.

في أغسطس ظهر الطاعون في إنجلترا، وفي سبتمبر عاث فسادًا. تضاءل شره نحو نهاية أكتوبر واستبدل إلى درجة ما بحمّى التيفوئيد، وكانت بالكاد أقلَّ فتكًا منه. كان الخريفُ دافئًا ومطيرًا. مات المرضى والواهنون لحُسن حظّهم. أشحب المرض كثيرًا من الشباب متورّدي الخدود بالعافية والصحّة، وأحالهم من سكّان القبور. تَلِفَت المحاصيلُ وزادت حدّةُ المرض بسبب سوءِ الحنطة وشحّ النبيذ. قبل أعيادِ الميلاد كانت نصفُ إنجلترا غارقةً بالمياه. استأنفت عواصف الشتاء الفائت هبوبها. بَيدَ أنّ انقطاع الملاحة هذا العام أراحنا من التأثّر بعواصف البحر. جلبت العواصف والفيضانات خرابًا أكبر على قارة أوربّا منا، لتكون آخر

ما يُضاف إلى الكوارث التي دمّرتها. ففي إيطاليا غابت المتابعة عن الأنهار بعد أن هلك المزارعون، فانقضّت الأنهار كما تنقض الوحوش من عرائنها لمّا يغيب الصياد، وتسارع التيبر، وأرنو، وبو إلى السهول مدمّرين خصوبتها. جرفت قرى كاملةً. غمرت المياه روما وفلورنسا وبيزا، واهتزّت أساسات قصورها الرخامية التي كانت صورة للسكينة من قبل ببأس الشتاء. أمّا ألمانيا وروسيا، فكان المصابُ فيهما أفدح.

لكنّ الصقيع قادمٌ، ومعه تجديدٌ لبقائنا على الأرض. سيثلم الصقيع سهام الطاعون ويصفّد عناصر الطبيعة الحانقة. وفي الربيع ستطرح الأرض عن نفسها ثوب الشتاء، بعد أن تحرّرت من خطر الدمار. لم تظهر علامات الشتاء المرجوّة إلا في فبراير. تساقط الثلج ثلاثة أيام، وجمّد الجليد الأنهار الجارية، وحلّقتِ الطيورُ مبتعدةً عن أغصان أشجار الغابة المبيّضة. في اليوم الرابع تلاشى كلُّ شيء. جاءت ريحُ جنوبٍ غربيةٍ بالمطر، ثم أشرقت الشمسُ بحرارة صيفية، وكأنّها تسخر من قوانين الطبيعة. لم يسرنا إزهارُ البنفسج في الطرقات مع أول نسائم شهر مارس، ولا نبوت الذرة وظهور الأوراق إكراهًا بسبب الدفء غير الموسمي. خفنا الهواءَ المعتدل، والسماء الصافية، والأرض المتشحة بالأزهار والغابات

النظرة. فلم نعد ننظر إلى نسيج الكون هذا كمستقرّ لنا، بل كقبرٍ. وبدت رائحة الأرض العَطِرة للنفوس المرعوبة كرائحة مقبرة فسيحة.

يمشي الإنسان بلا انقطاع
على هذه الأرض الصُّلبة
وكلّ خطوةٍ يخطوها
إنّما هي على قبره.

على تلك المساوئ كان الشتاء وقتًا للتنفّس، وقد بذلنا جهدًا للاستفادة منه قدر الإمكان. قد لا يعود الطاعون في الصيف، لكن إن عاد ينبغي أن يجدنا مستعدّين. التكيّف عن طريق الاعتياد، حتّى مع الألم والحزن، جزء من الطبيعة البشرية. بات الطاعونُ جزءًا من مستقبلنا ووجودنا. شيئًا ينبغي الاحتراسُ منه، كفيضانات الأنهار، أخطار المحيطات، وقسوة طقس السماء. قد يكتشف علاج ما بعد طول العناء ومرارة التجربة. صحيحٌ أنّ كلَّ مَن أصيب بالطاعون مات، ولكن لم يصب الجميع به. صار واجبًا علينا أن نرسّخَ القواعد ونرفعَ ستارًا عاليًا بين المرضى والأصحاء. وأن نقيمَ نظامًا يحرصُ على سلامة الناجين، ويحفظ بعضًا من السعادة لمَن ظلّوا شهودًا إلى الآن على تجدّد المأساة. قدّم أدريان أنظمة

ليعملَ بها في المدن، وإن كانت لم تنجح في كبح انتشار الطاعون، إلا أنّها منعت وقوع شرور أخرى كالفساد والتخريب، والتي كانت لتزيد من عظم الكارثة. حاولت أن أحاكيَ نظامَه، بيدَ أنّ الناس طبعوا على التحرُّك جماعة، إن تحرّكوا. فلم أستطع أن أجدَ السبلَ لجمع سكّان المدن والقرى المتناثرة، الذين نسوا كلماتي ما إن غابت سمعهم، وتقلبوا مع كلّ ريحٍ هبّت من تغيّر في الأحوال.

اتخذت خطة أخرى. وصف الكتاب، الذين تخيّلوا حلول السلام على الأرض بالعموم، بلادًا ريفية، حيث يسيّرُ مجموعةٌ من الشيوخ والحكماء أمرَ كلّ بلدة. كان ذلك مفتاحَ خطّتي. فكلُّ قرية مهما كانت صغيرةً تشتملُ عادة على زعيم لها؛ شخص مبجّل بينهم يفطلب توجيهه في وقت الشدّة، ويَلقى رأيه الحصيف تقديرًا كبيرًا. أخذت مباشرة في تدوين ملاحظاتي بما أذكر من الأحداث.

في قرية ليتل مارلو كانت الزعامة لامرأة مُسنّة. عاشت في مأوى للفقراء بضع سنين، وفي أيام الأحد الرائقة كانت عتبتها تغصُّ بالجموع الطالبة نصحَها والمستمعة لتوبيخها. كانت زوجة لجندي وجابت العالم. تمكّن الإجهاد منها قبل أوانه بسبب ما نالها من الأمراض في بعض المناطق غير الصحية، لذا كانت نادرًا ما تخرج من كوخها الصغير. ولمّا وصل الطاعون إلى القرية،

وأطاش الخوف والهلع أحلام الناس، برزت مارثا وقالت، "عشت في مدينة دخلها الطاعون من قبل". "وهربت منها؟" سأل الناس. "لا، بل شفيت". ومنذ ذلك الحين رسخت مارثا أكثر في كرسي الزعامة، وعلت بالمحبة والتوقير. دخلت أكواخ المرضى ولبّت احتياجاتهم بيدها. لم تخذل خائفًا، وألهمت من رآها بقبسٍ من شجاعتها. ذهبت إلى الأسواق، وأصرَّت على أن تزوّدَ بالطعام للمعوزين الذين لا طاقة لهم بشرائه. أرتهم كيف أنّ سلامة كلّ فردٍ تعني الخير للجميع. لم تسمح بإهمال الحدائق ولا حتّى للأزهار بأن تذبل من قلّة العناية. قالت بأنّ الأمل خيرٌ من وصفات الأطباء، وأنّ كلَّ شيء يعين الروح ويبثّ الحياة فيها أفضل من العقاقير والأدوية.

كان ما رأيت من ليتل مارلو وحديثي مع مارثا الأمور التي حدتني للخطة التي رسمت. كنت قد زرت من قبلُ بيوتَ أصحاب الأراضي والسادة، وغالبًا ما وجدت ساكنيها مدفوعين بحبّ فعل الخير، ومستعدين لبذلِ أقصى ما يستطيعون لأجل الساكنين في أراضيهم. لكنّ ذلك لم يكن كافيًا. كانت الحاجةُ الماسّةُ هنا إلى الاشتراك في الآمال نفسها والمخاوف وعيش ذات التجربة. فقد تصوّر الفقراء أنّ الأغنياءَ كانوا يمتلكون سبلًا أخرى للسلامة

غير التي يتقاسمها الفقراء؛ مثل الانعزال، وعدم الحاجة للعناية للمرضى، إن سمحت الظروف. لذا لم يعتمدوا عليهم، بل التفتوا بالغالب إلى طلب المعونة والنصح من أقرانهم. هكذا عزمت على المُضيّ من قرية إلى أخرى، قاصدًا شيوخَها لتنظيم جهودهم وتثقيفهم، لتعلوَ مكانتُهم ويستفيد منهم أهل منطقتهم بشكل أكبر. طرأت الكثير من التغييرات أثناء تلك الانتخابات العفوية للزعامة. فخُلع بعضٌ وتنازل بعضٌ آخرُ، وفي محلّ المسنّين المتوخّين، حلّ الشباب المتحمسين، ماضيين للفعل غير آبهين للمخاطر. وكثيرًا ما كان الموتُ يخرسُ الصوتَ الذي أصغى له الجميعُ فجأةً، ويبردُ يد المعين، ويغمض العين الحانية. كان خوفُ القرويين يزدادُ من الموت الذي اقتنصَ تلك الضحية، وعفر ذلك القلب الذي كان ينبض لأجلهم، وأحال العقل الذي كان مشغولًا بمشاريع لصالحهم إلى العدم المريع.

من يزرع خيرًا للناس كثيرًا ما يحصدُ نكرانًا سُقِيَ بالخِسّة والحقارة. كان الموت في الماضي في الأرض كاللّص المختلس ليلًا. أمّا الآن، فقد نهض غازيًا من فجّه السفلي، متحزّمًا بالبأس ورافعًا رايةً سوداءَ خفّاقة. رأى فيه الكثيرون قضاءً علويًّا وخليفةً لعرش سماوي، مسدّدًا رماحَه وموجّهًا تمدّده؛ فأحنوا رقابَهم

مستسلمين، أو طائعين على الأقلّ. وآخرون عدُّوه مصابًا عابرًا. وسعَوا في إبدال الخوف بالطيش، منغمسين بالمجون علّهم يتفادون عذاب الجزع. هكذا، بينما كان العاقل والطيّب والحصيف مشغولين بفعل الخير، كان لهدنة الشتاء تأثير آخر على الشباب الطائش الفاسد. خفت الأرجلُ إلى لندن في الأشهر الباردة بحثًا عن المتعة. انحلّت الآدابُ العامّة مع اغتناء الكثير من الفقراء سابقًا، وفقدان آخرين لوالديهم وقدواتهم، حرّاس الفضيلة والأدب. لم يكن هناك من جدوى في محاولة صدّ رغباتهم تلك، إذ كان ذلك ليدفعهم لطلب الملاهي الضارّة. فُتحتِ المسارح وغصّت بالناس وكثر الرقص وحفلات منتصف الليل. انتُهكت الحشمةُ في كثير من تلك الحفلات، وشاعتِ الفواحشُ التي كانت مستترة من قبل أمام القانون. تَرك الطالبُ كتابَه وتخلّى الفنّان عن لوحته. هُجرت مشاغلِ الدنيا وبقيت الملذّات؛ ومدّ في المتع إلى حافّة القبر. زال كلُّ تصنّع. نهض الموتُ كالليل وتحت ستاره طُرحت حمرة الحياء، وحمشة المتزمّتين كأخمِرة غير ذات جدوى. لم يكن ذلك حال الجميع. فبسبب ذوي الحياة، كان خوف بعض الناس من ألم الفراق الأبدي، ورهبة الكارثة التي لم يعهد مثلها سببًا في زيادة قربهم من أهلهم وأصدقائهم. تمسّك الفلاسفة بمبادئهم في وجه طوفان الخلاعة واليأس، وكانت متراسُهم الوحيدُ ليحموا

بها مالم يُنتهك من حياة الإنسانية بعدُ. أمّا المتديّنون الآملون بالجزاء فتشبّثوا بعقائدهم تشبّث الغريق بحطام الفلك في لجّة بحر من العذاب، علّها تحملهم بسلامة إلى ميناء الأمان في أرض الغيب. وأغدق القلب المحبّ محبّته أضعافًا على القلّة الذين بقوا له. ولكن حتّى بالنسبة إلى هؤلاء، كان الحاضر هو الزمن الوحيد الذي جرؤوا على أن يطلقوا سفينة أملهم فيه.

علمتنا تجاربُ الزمن أن نقيسَ سعادتنا بالسنين، وأن ننظر إلى الحياة على أنها فترة ممتدة من التعاقب والانحلال. وما طريق الحياة الطويل إلا متاهة عظيمة، ينتظرنا وادي الموت في نهايتها بما يعترضنا من أشياء. بَيدَ أنّ زلزالًا غيّر المشهد. تثاءبت الأرض من تحت أقدامنا، انشقّت من تحتِنا عميقةً سحيقةً لتبلعَنا، وأسرعت بنا عربة الزمن نحو ذلك الشقّ. لكنه كان فصل الشتاء الآن، ولن يقضّ أمننا قبل مرور أشهر عدّة. صرنا كائنات سريعة الزوال، يعدل في عيننا الوقت ما بين الشروق والغروب عامًا كاملًا ممّا تعدّون. لن نرى أبدًا أطفالنا وهم يبلغون نضجهم، أو نبصر وجناتهم الندية تخشوشن، أو قلوبهم المرحة تخشع للحبّ أو للهمّ. لكنّهم كانوا بين أيدينا الآن، أحياء بيننا ونحن أحياء، فأيَّ مزيدٍ نريدُ؟ بمثل هذه المواعظ كانت آيدرس المسكينة تحاول

طرد الخوف المتكالب، وقد نجحت إلى حدٍّ ما. فلم يكنِ الحالُ مثل فصل الصيف حيث قد تجيء أي ساعة بالقدر المرهوب. شعرنا بالأمان إلى حين الصيف. وكان ذلك الشعور، على قصر أمده، كفيلًا بتهدئة مشاعرِ أمومتها الرقيقة. لست أدري كيف أعبّر أو أصف ذلك الشعور المركز والعارم، سريع الزوال، الذي اكتنفنا في ذلك الحين. كانت بهجتُنا أغلى علينا لأنّنا رأينا نهايتها. كانت أشدَّ لأنّنا شعرنا بقيمتها إلى أقصى حدّ. وكانت أطهرَ لأنّ أصلها كان الحبُّ. وكما أنّ الشهابَ أشدُّ بريقًا من النجم، اشتملت مسرّة ذلك الشتاء على خلاصة بهجات حياة طويلة جدا.

يا لَجمال الربيع! بينما كنّا ننظر من شرفات وينزر إلى المقاطعات الغنّاء الست عشرة الممتدة أسفل منا، والمزارعين السعداء المنبثّين فيها ومدنها البهيّة، بدا كلُّ شيء كحاله في السنين الخالية، خلّابًا ومطربا للقلب. حُرثت الأرض وهوت سنابل القمح على التربة الداكنة، واكتست أشجار الفواكه بالبراعم. قام الرجال في الحقول، ومشت الفتيات عائداتٍ إلى منازلهنّ بدلاء مترعة بالحليب. ضربت طيور السنونو والخطاب صفحات البرك المشمسة بأجنحتها المدبّبة، وسكنت الحملان الوليدة على المراعي الرقيقة الفتيّة.

رافعة رأسَها الجميلَ في الهواء
لترعى حيث لا ينقطع النماء.

بدا وأنّ الإنسانَ ذاته كان في تجدّد، إذ نحى الشتاء عن تجدد دافئ لدن. حدثنا العقل بأن الهم والأحزان ستعود مع افتتاح العام؛ ولكن كيف لنا أن نصدق صوت الشؤم الذي نطق بخَبث الطاعون من كهف الرعب المظلم، بينما كانت الطبيعة تضحك ويتفتّق حضنُها الأخضر عن زهر وفواكه وماء رقراق، داعيةً إيّانا للانضمام إلى تمثيلية حياة الصبا التي كانت نجمتها على المسرح؟

أين كان الطاعون؟ "هنا، وفي كلّ مكان!" هتف صوت في هلع وكآبة، حين كان هادم الإنسان مرة أخرى على وجه الأرض في أيام مايو الرائعة المشمسة، مكرِهًا الروحَ على مفارقة خادرتها الحية، لتدخل طورًا لم تعهده من قبلُ. بضربة واحدة من سلاحه المهلك خر كل احتراس ودفاع. جلس الموت على موائد العظماء، وتمدّد على فرش ساكني الأكواخ، أخذ الجبان الفارّ، وسحق الشجاع المقاوم. دخل القنوط كلَّ قلب، وأظلم الحزنُ كلّ عين.

صارت مشاهد الويل مألوفة عندي، ولو سردت كلّ الألم والعذاب الذي شهدت، من أنّات المسنّين اليائسين وابتسامات

الأطفال المروعة في حضن الرعب، سيعجب قارئي وهو مرتعش الأطراف منتصب الشعر. كيف لم يغشني الجنون لأُلقي نفسي من شفا جرف، مغلقًا عيني إلى الأبد عن نهاية العالم الحزينة. لكن قوى الحب والشِعر والخيال الخلاق كفيلة بإسكان جانب المصاب بالطاعون، بل حتى الأراذل والموتى. أنشاني شعور رفيع وثابت الغاية بالتفاني والواجب، فسرت لذّة غريبة في قلبي. وفي غمرة أشدّ الأحزان كمن يطأ الهواء محلّقًا، بينما أحاطتني روح الخير بغلاف مجاور للطبيعة، لطّف ألم المشاعر وأخلى الجوَّ من الزفرات. لو ذبل قلبي المتعبُ في مسعاي، كنت أفكّر بنزلي العزيز، وبالتوابيت التي ستحوي أحبّابي، بقبلة الحبّ ولمسات الأبوة، فيغمر طاهر الدمع عيني ويعود قلبي منتعشًا برقة مثيرة للعواطف.

لم تجعل مشاعر الأمومة من آيدرس امرأةً أنانية. ففي أول حلول الكارثة كرّست نفسَها بتفانٍ وإخلاص لرعاية المرضى ومن ليس لهم معين. منعتها فأذعنت لحكمي، إذ أخبرتُها بأن خوفي عليها من الخطر شالٌّ لجهدي، وأن معرفتي بأنها في مأمن تشد في عضدي، فعرضت عليها المخاطر التي سيتعرض لها أبناؤها في غيابها، حتى وافقت أخيرًا على ألّا تتجاوز حدود الغابة. كان لدينا

بين أسوار القلعة عددٌ غفيرٌ من البائسين الذين هجرهم أهلُهم، وممّن لم يكن لهم معين في الأصل. كانوا كافين لشغل وقتها وانتباهها. وعلى محاولاتها للكفّ عن القلق حول سلامتي وصحة أطفالها، إلا أنّ ذلك القلق ابتلع كلّ أفكارِها وأذبل صحّتها. كان شغلُها الثاني، بعد الإشراف عن المرضى والعناية بهم، هو إخفاءُ ألمِها ودموعها عنّي. ففي كلّ ليلة كنت أعود فيها إلى القلعة كنتُ أجدُ السكينةَ والحُبَّ في انتظاري. كثيرًا ما كنتُ أنتظرُ بجانب سرير محتضر ما إلى منتصف الليل، لأقطعَ أميالًا عديدة في بُهمة الليالي الماطرة المعتمة، ولا يعينني إلا معرفتي بسلامة أحبائي. وإن أرعد خوف عظيم جسدي وأسخن جبيني، كنت ألقي برأسي في حجر آيدرس، فيذهب النبض العاصف ويستحيل دفق الدماء معتدلًا. كانت ابتسامتها تنتشلني من اليأس، وحضنها يغمس قلبي الحزين بالسكينة. تقدم الصيف، فأطلق الطاعون المتوّج بأشعّة الشمس الناجعة حرابه التي لا تخيب في أنحاء الأرض. أحنتِ الأممُ رؤوسَها بأثر منها، وماتت. الحنطة التي كانت قد نبتت بوفرة، تناثرت على الأرض في الخريف متآكلة بالعفن. بينما تمدّد البائس التَّعِس الذي خرج ليجمع الطعام لأطفاله في الحقل، متصلّبًا مقتولًا بالطاعون. ماجت خمائل الغابات بمهابة بينما تمدّد المحتضرون أسفل منها، مجيبين صوتَها الكئيبَ بصرخات

نشاز. حلّقت الطيور الجميلة بين الظلال، واستلقى الأيل غير الآبه بسكينة فوق العشب. ضلّت الثيران والخيول بعيدًا عن حظائرها غير المحروسة، راعية القمح؛ فلم يصب الموت إلا الإنسان.

ازدادت مخاوفنا مع الصيف والوَفَيَات. نظرت وحبيبتي المسكينة بعضنا إلى بعض وإلى أطفالنا. قلت، "سأنقذهم يا آيدرس، سأنقذهم. سنقصّ عليهم بعد سنين من الآن أخبار مخاوفنا. سيظلّون أحياء على وجه البسيطة، لن تشحب خدودهم ولن تهن أصواتهم". فهم أكبر أبنائنا ما كان يدور من حوله إلى حدّ ما، وكان أحيانًا يسألني بجدّية عن أسباب ذلك الخراب الواسع. لكن لما كان في العاشرة من عمره فقط، كان مرح الشباب يبدّد الهمَّ عن محيّاه سريعًا. أمّا الملاك الضاحك والرضيع اللعوب إيفلين، الجاهل بالألم والحزن، فكان يزيح شعره الناعم عن عينيه ويملأ الردهات بمرحه، ويدير انتباهنا إليه بألف طريقة بريئة. كلارا الرقيقة الحبيبة، كانت سندَنا وسلوانًا وبهجتنا. ألزمت نفسَها العناية بالمرضى، ومواساة المحزونين، ومساعدة المسنّين، وشاركت باللعب وإيقاظ السرور في الشباب. حلّقت بين الغرف كروح طيّبة مرسلة من مملكة السماء لتنيرَ ساعة الشدّة بنور سماوي. كان التقدير والمديح أثرها في كلّ مكان وطأته قدمُها.

كانت تقف أمامنا في تواضع غير متكلّفة وهي تلاعب الأطفال، أو تؤدّي بعض المهام لآيدرس باجتهاد بناتي، تجعل المرء يتساءل؛ كيف لقسمات جمالِها الأخّاذ، وصوتها الناعم المثير أن تحويا كلّ تلك البطولة والفطنة والحب المتّقد للخير.

مرّ الصيف ثقيلًا لإيماننا بأنّ الشتاءَ سيوقفُ انتشارَ الطاعون على الأقلّ. أمّا أن يختفيَ الطاعون بالكلية، فذلك كان أملًا عظيمًا وأجلّ من أن ينطق. وحين يتحدث أحدٌ برعونة بتلك الفكرة، كانت دموع ونشيج السامعين شاهدًا على عظم خوفهم وضئيل أملهم. بالنسبة لي، فقد أتاحت أعمالي لمصلحة العامة، أن ألاحظ أقرب من معظم الناس حدة انتشار وفتك عدوّنا الخفيّ. شهر قصيرٌ دمّر قرية، ففي مايو مرضَ أولُ شخص، وفي يونيو كانت طرقاتُها مليئةً بالجثث غير المدفونة. كانت البيوت خاليةً ولا دخان من المداخن. لقد أشارت ساعة سيدة المنزل فقط إلى الوقت التي غلب فيها الموت. كنت أحيانًا أنقذ رضيعًا من مثل تلك المواقع، وفي أحيان أخرى أبعد أمًّا شابّة مفجوعة عن جثّة طفلها البكر، أو أجر عاملًا شديدًا البأس أثناء نواحه الطفولي على عائلته التي هلكت.

مرّ شهر يوليو، ولا بدَّ من مرور أغسطس لنصلَ إلى منتصف

سبتمبر حيث بعض الأمل. عُد كلّ يوم باهتمام، وانغمس سكّان المدن الذي ودّوا لو أنّهم قفزوا فوق هذا الزمن المميت بالخلاعة. رجوا الالتهاء عن اليأس بالشغب، أو أيّ شيء عدّوه متعة. لم يستطع سوى أدريان أن يكبح جماح أهل لندن؛ الذين انطلقوا كالخيول غير المشكومة إلى مرعاهم، طارحين كل خوف عن كاهلهم أثناء عملية التعالي على الخوف. حتّى أدريان كان ملزمًا بتقديم بعض التنازلات، ليتسنّى له توجيه أو على الأقلّ وضع حدود لأوقات اللهو. بقيت المسارح مفتوحة، وسرتِ الأرجل إلى كلّ منتجع عام. حاول أدريان أن يحسّنَها لتكون أقلَّ تهييجًا للجماهير، وفي الوقت نفسه، حتّى لا تترك أثرًا بالحزن الشديد بعد انقضاء الإثارة. كانت المسرحيات المأساوية السوداوية الأكثر تفضيلًا. وقدّمت الكوميديا تباينًا صارخًا لليأس الداخلي. فلم يكن نادرًا في تلك المسرحيات أن يجد الكوميديّ، وسط تهريجه، كلمة أو فكرة تجترّ بؤسه فينفجر باكيًا بعد أن كان يمثل البهجة. بينما ينتحب الجمهور المأخوذ بالتعاطف، وينقلب العرض الضاحك إلى عرض لمشاعر البؤس.

لم يكن من طبيعتي أن أجد عزاء في تلك الأماكن. في المسارح التي كانت ضحكات الابتذال فيها تثير سخطي، وتسخر

فيها الدموع المصطنعة وصيحات النحيب من الحزن في القلوب. أو في المهرجانات الحاشدة حيث ينبثق المرح من أحط المشاعر في الطبيعة، ويظهر بعض القوم جمالًا وسحرًا كاذبين عمادهما الطلاء الزائل. لم أجد عزاء في جمع النادبين المتنكّرين بالمرح. إلا أنّني شهدت في إحدى المرّات حدثًا فريدًا في أحد المسارح، غلبت فيه الطبيعة الفنّ كما يمزّق شلال هادر شلالًا صناعيًّا تافهًا صنع سخرية منه.

جئت إلى لندن لرؤية أدريان. لم يكن في القصر. وعلى جهل الخدم بمكانه، إلا أنّهم لم يتوقّعوا عودتَه قبل وقت متأخّر من الليل. كان الوقتُ بين السادسة والسابعة في عصر صيفي رائق. أمضيتُ وقتَ فراغي هائمًا على وجهي في شوارع لندن الخالية؛ منعطفًا مرةً لأتجنّب جنازة قادمة، أو مدفوعًا بالفضول لتفقُّد حال منطقة معيّنة. سيط تجوالي بالألم، فقد كان الصمت والخواء سمةَ كلّ مكان طرقته زائرًا، وكان الشحوب والهلع مرتسمَين على وجوه الناس القلّة الذين قابلت. هكذا مشيت عائدًا إلى منزلي، محفوفًا بالحرص ومكتئبًا بالخوف جرّاء ما رأيت من بؤس.

كنت في هولبورن حين مررتُ بحانة مكتظّة بحشد صاخب، وكانت ضحكاتهم وغنائهم وصيحاتهم أشدَّ بعثًا للأسى من

شاحبي الوجوه الصامتين. كانت إحدى أولئك الشاحبين تجول حول الحانة. أظهر حال فستانها التعيس فقرها. كانت شاحبة بشكل مروع. استمرت بالاقتراب من الحانة؛ عند النافذة أولا، ثم الباب، وكأنها تتوق إلى الدخول وتخشى من ذلك في آن الوقت. انفجر الجمع بالغناء فجأة وبدا أن ذلك أثار فيها ألمًا. تمتمت قائلةً، "هل يُأخذ القلب؟"، ثم خطت إلى داخل العتبة مستجمعةً جأشَها. قابلتها ربّة الحانة عند الباب، وسألَتها المرأةُ البائسةُ، "هل زوجي هنا؟ هل أستطيع أن أرى جورج؟"

هتفت ربّة الحانة، "ترينه! حتمًا سترينه إن ذهبت إليه. أصابه الطاعون ليلة البارح وأرسل إلى المستشفى".

ترنّحتِ المرأةُ المسكينة إلى جدار وفرّت صرخةٌ واهنةٌ من فمها.

ثم قالت، "أبلغت بكم القسوة أن ترسلوه إلى هناك؟"

ابتعدت ربّة الحانة مسرعة في تلك الأثناء. إلا أنّ عاملةً تعاطفت معها وأخبرتها بالتفاصيل. اختصار الأمر أنّ زوجَها مرض بعد ليلة صاخبة، فأرسله رفاقه في المرح بسرعة إلى مستشفى بارثولوميو. راقبت ما جرى فقد كان في تلك المرأة

المسكينة رقة أثارت انتباهي. ابتعدت مترنحة عن الباب، ومشت قدر استطاعتها إلى ربوة هولبورن. لكن سرعان ما خارت قواها، فاستندت إلى جدار وأرخت رأسها، وزاد شحوب وجهها. ذهبت إليها عارضًا المساعدة. ردّت وقد رفعت رأسها بصعوبة، "لن تستطيع مساعدتي. ينبغي أن أبلغ المستشفى؛ هذا إن لم أمت قبل ذلك".

كانت بعض عربات الأجرة لا تزال تقف في الشوارع، بدافع العادة لا العمل. وضعتها في إحداها وركبت معها، علّي أُسهل دخولها إلى المستشفى. لم يكن طريقنا طويلًا، وكان حديثها مقتضبًا، إلا من فضفضة توبيخ لكونه تركها، وتعجّب من قسوة أصحابه، وأمل بأن تجده حيا. كان مثار اهتمامي بمصيرها ذلك الإخلاص الطبيعي فيها، خاصة عندما ذكرت لي أن زوجها كان من أحسن الناس. كان كذلك حتى ساقته الحاجة إلى العمل في هذه الأيام المشؤومة إلى أصحاب السوء. قالت، "لم يحتمل العودة إلى المنزل والنظر إلى أطفالنا وهم يحتضرون. ليس للرجال صبر كالذي للأمهات، حين يتعلّق الأمر بالأطفال، فالذرية لحمها ودمها".

نزلنا في حيّ القديس بارثولوميو، ودخلنا الحرم البائس لبيت

المرض. تشبثت المرأةُ المسكينةُ بي لمّا رأت سرعةَ إخراجهم للموتى من الأجنحة، وإدخالهم إلى غرفة كشف بابها المفتوح جزئيًّا عن عدد من الجثث. كان منظرًا مروّعًا لمن لم يعتد تلك المناظر. أُرشدنا إلى الجناح الذي أخذ إليه زوجها حين وصوله، والذي سيكون فيه إن كان حيًّا، كما قالت الممرضة. نظرت رفيقتي بتوقٍ من سريرٍ إلى آخرَ حتّى توقّفت لمّا لاحَ لها سريرٌ بائسٌ في آخر الجناح، يحمل رجلًا هزيلًا يتلّوى ألما من عذاب المرض. هرعت إليه واحتضنته، وحمدت الربَّ على سلامته.

أعمتها النشوة الناتجة من تلك البهجة الغريبة عن الفظائع من حولها، والتي كانت شديدة الهول علي. امتلأ الجناح برائحة كريهة أثارت فيّ غثيانا شديدا. كان الموتى يحملون خارجا، والمرضى يجلبون داخلا من دون أيّ مبالاة. كان بعضهم يصرخ ألمًا، بينما كان آخرون يطلقون الضحكات تأثّرًا بهذيان مريع. تحلّق حول بعضهم أقرباء يائسون، بينما نادى آخرون بصوتٍ مثيرٍ للشفقة أصحابهم الذين تخلو عنهم. تنقّلت الممرضات بين الأسرة التي حملت صور البؤس، والهجر والموت. أعطيت ذهبًا لرفيقتي التعسة، وتركتها في عهدة الممرضات ثم خرجت مسرعًا، بينما انشغل خيالي المعذّب بتصوير أحبابي ممدين على تلك الأسرة.

لم أر في الريف فظائع بهذا الحجم، فقد كان المساكين يموتون فرادًا في الحقول. كنت أجد ناجيًا أو يزيد في القرى الخالية، يكافحون الجوع والمرض. أمّا حفلة الموت الكبرى، ومأدبته العظيمة فقد كانت في لندن.

همتُ على وجهي، معذّبًا ومهمومًا بأفكار مؤلمة. فجأة وجدت نفسي أمام مسرح شارع دروري. كانت المسرحية المعروضة ماكبث. وكان أشهر نجم في ذلك الوقت على المسرح، ليخدّر الجماهير بحسن أدائه. ولمّا كان ذلك أمرًا تتوقُ نفسي إليه، دخلت. كان المسرحُ ممتلئًا إلى حدّ معقول. لم يفقد شكسبير، الذي أكدت أربعة قرون على شعبيته، تأثيره في زمن الخوف هذا. بل كان لا يزال الساحر المتربع على قلوبنا والمالك لأخيلتنا. دخلت أثناء فترة الاستراحة بين الفصل الثالث والرابع. أجلت عيني بين الحضور. كانت أغلب النساء من الطبقات الدنيا، بينما كان الرجال من مختلف الطبقات؛ جاؤوا جميعًا لينسوا الشعور غير المنقطع بالتعاسة، والذي كان ينتظرهم في بيوتهم البائسة. أزيحت الستارة وقدم المسرح مشهد كهف المشعوذات. احتوت مسرحية ماكبث المشبعة بالألم والخرافة على شيء من الارتباط المباشر بوضعنا الحالي. بُذل جهدٌ كبيرٌ لجعل المشهد المستحيل

حقيقة. لم يُنر عتمة المسرح الحالكة إلا ضوء نار المِرجل، وحفّ المكان ضباب طاف، فكانت أجساد الساحرات أخيلة لا يبدو منها إلا القليل. لم تلتف ثلاث عجائز شمطاوات حول المرجل لترمين مقادير سحرهنّ الضارّ، بل كانت ثلاث ذوات بهيئة مرعبة وغريبة. نقلنا إلى عالم آخر مع دخول هيتاكي والموسيقى المصاحبة. شكل الكهف على المسرح، الصخور الناتئة، الأشكال الضبابية التي مرّت بين الحين والآخر، والموسيقى الملائمة لمزاج الشعوذة، أمور جعلت الخيال يجد متعة بالغة في التصديق، بلا خوف مناقضة من العقل، أو تكذيب من القلب. لم يحطم دخول ماكبث خدر الخيال، فقد كان مدفوعًا بنفس المشاعر التي كانت تحرّكنا. وبينما كانت أعمال الشعوذة مستمرّة، شاركناه تساؤله وجسارته، مستسلمين كلية إلى تأثير وهم المسرحية. شعرت بالنتائج المفيدة من تلك الإثارة لِما وجدت من تجدد في نشاط الخيال، بعدما غاب زمنًا طويلًا. نقل مشهد التعويذة بعضًا من قوة تأثيره إلى المشهد الذي تُلي. فنسينا أنّ مالكوم وماكدف كانوا بشرًا يتصرّفون بدافع من نفس المشاعر التي تدفئ صدورنا. بتدرّج وبطء سُحبنا إلى غرض المشهد. سرت رعشةٌ في المسرح، كَمَرّ الكهرباءِ في الجسد، حين أجابَ روس على السؤال عن أحوال اسكتلندا قائلًا:

واحسرتاه على البلد المسكين؛
إذ يكاد أن يخشى النظر إلى نفسه!
لا يستحقّ أن يقالَ عنه أمنا، بل قبرنا.
لا يفرح فيه إلا المجنون.
حيث تملأ التنهُّدات والصرخات والأنين هواءه،
ولا ملتفت لها. وحيث يرتدي الحزن والقتل
رداء النشوة. وإن طرق الموت رجلا
لم يسل الناس عن اسمه. وتذوي أرواح الرجال الصالحين
أسرع من ذبول الأزهار في قبّعاتهم،
يموتون قبل المرض.

ضربت كلُّ كلمة أحاسيسنا، وكأنّها ناقوس عمرِنا المارّ. خشينا من النظر إلى بعضنا، فثبتنا أبصارنا على المسرح، متوخّين النظر إلى غير ذلك. أدرك الممثّل المؤدّي لدور روس فجأة خطورة الأرض التي وطأها. كان ممثلًا مغمورًا إلا أنّ الحقيقة التي نطق بها جعلته فذًّا. وبينما راح يروي لماكدف خبر ذبح عائلته، انتابه خوفٌ من الحديث، خشية أن ينفجرَ أحد الحضور، لا زميله الممثّل، بالنحيب. نطق كلّ كلمة بصعوبة، وارتسم ألمٌ شديدٌ على ملامحه، تارةً يرفعُ بصرَه برعبٍ مفاجئ، وتارةً أخرى يحدّق إلى

الأرض بهلع. زاد منظر الفزع ذاك من رعبنا، فشهقنا مع شهيقه، واشرأبت الأعناقُ وتلوّنت الوجوه مع تلوّن وجه الممثّل. أخيرًا صاح ماكدف، الذي غاب عن ألحاظنا، بعبرة ممثلة بامتياز:

كلّ أطفالي؟

أقلّت جميعهم؟ آه يا بومة الجحيم! جميعهم؟

ماذا! كلّ أفراخي وأمّهم،

دفعة واحدة!

اعتصر ألمٌ جامحٌ كلّ قلبٍ وانفجرَ اليأسُ مدوّيًا من كلّ شفة. ابتلعني ذلك الشعور العام، وغمرني رعب روس. ردّدت صيحات ماكدف، فانطلقت كالفار من جحيم العذاب، لأجدَ الهدوء في الهواء الطلق والشارع الخالي.

لم يكن الهواء طلقًا ولا الشارع خاليًا. آه كم اشتقت حنان الطبيعة الأم، فلم يزل قلبي يتألّم من منظر البهجة الجاحدة في الحانة، ومنظر السكارى المترنّحين إلى منازلهم، الناسين طريقهم في نشوة الفسق. ومن تحيات الكائنات الكئيبة الذين إن سألتهم عن منزلهم حسبوك ساخرًا. ركضت بأقصى سرعتي حتى وجدت نفسي، ولست أدري كيف، قريبًا من دير ويستمنستر

مجتذبًا بصوت الأرغن العميق والعالي. دخلت المذبح الوضّاء بطمأنينة ووقار، واستمعت إلى الترانيم الدينية المهيبة التي بشرت التعساء بالأمل. دوّت النغمات المشحونة بأخلص أدعية الإنسان في أرجاء الكنسية، ورتقت جروح الأرواح ببلسم سماوي. على البؤس المتسلّط الذي لم أفهمه، وخمود دفء لندن العظيمة، وتناثر الجثث في حقول بلدي، وكلّ أنواع المشاعر المفجعة التي اخترت في ذلك المساء، شعرت بأنّ الخالق استجاب إلى تضرّعاتنا ونظر إلينا بعين العطف والرحمة، واعدًا إيّانا بالخلاص. كانت أنغام الموسيقى السماوية خليقة ببلوغ العلا. ثار الهدوء في نفسي من صوت الموسيقى ولرؤيتي كثيرًا من الخلق وهم يتضرّعون بخشوع معي. بعد أن أسلمت نفسي بالكامل إلى رعاية سيّد الكون غمرني شعور مدان للسعادة. لكن للأسف، لمّا انتهت تلك الأنغام الجليلة عادت روحي المرتقية إلى الأرض. فجأة مات أحد المغنّين في الجوقة. حمل من مكانه إلى قبو فتح على عَجَلٍ، وشيع إلى القبو المظلم بصلوات متمتمة. ذلك القبو الذي حوى آلاف ممّن رحلوا، فغر فاه متثائبًا ليبتلعَ كلَّ مَن شارك في التشييع. حاولت عبثًا أن أديرَ وجهي عن ذلك المشهد المكتنف بأنغام التسبيح، إلى صفّ مقاعد مظلم أو إلى قبّة عالية. لم أجد الراحة إلا في الهواء الطلق بين بدائع الطبيعة، حيث شعرت بأن

خالقها عاد ينظر إليّ برحمة، وعاد إلي الإيمان بأنّ رافع الجبال ومنبت الغابات ومجري الأنهار سيعلي البشرية المنحطّة في عالم جديد، حيث تحيا قلوبنا مليئةً بالحبّ والسعادة والإيمان.

لحُسن حظّي كانت الظروف الدافعة لزيارتي للندن قليلة الحصول، وأنّ شغلي كان مقصورًا على الجانب الريفي الذي أشرفت عليها قلعتنا. في الريف حلّ العمل محلّ الفراغ، حين كان المرض يغيب عن الناس. كان مسعاي أن أحثّهم إلى الانشغال المعتاد بمحاصيلهم، وأن يعيشوا وكأنّ ليس للطاعون وجود. كان صوت جزّ المحصول يسمعُ أحيانًا. وكان التبانون المثبطون يلفّون التبنَ بغيرِ حماسة، ثم يتركونه في مكانه. وكذلك الراعي الذي يجزّ صوف غنمِه، كان يتركُه على الأرض لتبعثرَه الرياح، قائلًا إنّ صناعة الملابس للشتاء القادم عبثٌ لا طائلَ منه. إلا أنّ روح الحياة كانت تنهض أحيانًا بتلك الأعمال. فقد كانت الشمسُ والنسيم ورائحة التبن الزكية، والأوراق المتطايرة وثرثرة الجداول أمورًا تبعث السكينة في الصدر القلق، وتسبغ شعورًا قريبًا من السعادة على الناظرين. ومن غريب الأمور أنّ تلك الأيام لم تكن خالية من البهجة. فالمحبّون الذين كانوا في عَلاقة طويلة لا أملَ منها، اغتنوا فجأةً بموت أقربائهم، فزالت العقبات من طريقهم،

وكان الموت مقرّبًا لهم، ودفعهم الخطرُ المحدّق إلى اغتنام الفرصة بسرعة. فأقبلوا بشغفٍ طالبينَ تجربةَ بهجة الحياة، قبل أن يصرعَهم الموت، وانتزعوا متعهم بتوقٍ شديدٍ، وأنشؤوا الحياة من قضبان الحديد. تحدّوا الطاعون الفاتك أن يهلكَهم، أو أن يمحوَ المحبّة والسعادة من قلوبهم بعد أن ذاقوها.

اجتذبت حادثة من ذلك النوع انتباهنا، حيث وهبت فتاة من النبلاء قلبها وصباها إلى شابّ من أصل وضيع. كان زميل دراسة وصديقًا لأخيها، واعتاد أن يقضيَ جزءًا من العطل في بيت والدها الريفي. كانوا زملاء لعب في الطفولة، وموضع أسرار بعضهم، والعون والسلوى للآخر في الشدّة والحزن. دبّ الحبُّ بينهما بهدوء وبلا وجلٍ، إلى أن أيقنوا أنّ حياة كلّ واحدٍ معلّقة بالآخر، وفي الوقت نفسه أنّ الفراق بينهم محتم. ولمّا كان سنّهم صغيرًا والحبّ بينهما طاهرًا، خضعوا لسلطان الظروف بغير كثير كفاح. فرق والد جولييت الجميلة بينهما. وأقسم الشابّ العاشق ألا يعودَ حتّى يجعلَ من نفسه كفؤًا للفتاة التي أقسمت بألّا يدخلَ غيره، إلى أن يعود ليظفر بها. جاء الطاعون مهدّدًا بهدم خطط الطامحين وآمال المحبّين. لطالما سخر الدوق من فكرة أن يطاله المرض وهو في معزله الحصين. وقد نجح في احتمائه ذلك إلى أن جاء

الصيف الثاني، حين طوّح هادم اللذّات بضربة واحدة باحتياطاته وسلامته وحياته. رأت جولييت المسكينة والدها وأمّها وإخوتها وأخواتها يمرضون ويموتون، واحدًا تلو الآخر. فرّ أغلب الخدم حينما ظهر الطاعون، أمّا الذين بقوا فقد أصابَهم وأهلكَهم. لم يقترب جار أو مقيم في الأرياف من محيطها. نجت جولييت وحدَها بقَدَرٍ غريبٍ، فقامت على آخر فردٍ من أسرتها تنتظر موته المحتوم. أخيرًا، ضرب الموت آخر أفراد أسرتها، فجلست الشابّة الفارّة من الموت وحيدة بين الموتى. لم يكن من حيّ قريبٍ ليعزّيَها، أو ليأخذَها من بين تلك الصحبة المشؤومة. مع انخفاض حرارة شهر سبتمبر هبّت الرياح العاصفة وهدر الرعد، وقعقع البردُ حول المنزل، غنّت الطبيعة في تناغُمٍ بين تلك العناصر ترنيمة جنائزية لعائلتها. جلست على الأرض وقد ابتلعها قنوط صامت، لما ظنّت أنّها سمعت صوتًا ينادي باسمها بين الرياح العاصفة. من صاحب ذلك الصوت المألوف يا ترى؟ ليس فردًا من أسرتها، فجميعُهم على الأرض ينظرون إليها بأعين متحجّرة. نودي اسمُها مرة أخرى فجفلت وسألت نفسَها، هل أصابني الجنون أم مت وصرت أسمع نداء الموتى؟ مرّت فكرة أخرى في رأسها مرور السهم. أسرعت إلى النافذة ورأت في ضوء البرق ما توقّعت. كان حبيبها بين الأشجار في الأسفل. أعانها الفرح على نزول السلالم

وفتح الباب، ثم أغمي عليها بين ذراعيه.

وبّخت نفسَها ألفَ مرة، وكأنّها ارتكبت جرمًا، على شعورها بالسعادة معه. إلا أنّ ميلَ الإنسان الطبيعي للحياة والبهجة كان في أوج طاقته في قلبها الشابّ. فأسلمت نفسها باستعجال إلى ذلك السحر وتزوّجا. رأيت في قسماتهما، للمرة الأخيرة، روح الحب ونشوة العاطفة، التي كانت سمة الحياة في العالم من قبلُ.

غبطتهم على ما كانوا فيه، ولكن شعرت باستحالة تشرُّب ذات الشعور، خاصة بعد أن أفرغ الزمان روابطي في هذا العالم. كان همّي الأول محبوبتي الحانية والأم القلقة آيدرس. صحيح أنني لم أستطع إيقافَ القلقِ الذي لم ينم في قلبِها، إلا أنّني بذلت جهدي لألفت انتباهَها عن النظر إلى حقيقة الأمور، كاقتراب المرض والبؤس والموت، أو نظرة الرعب في أعين خدمنا حين نسمع خبر هلاكَ شخصٍ جديدٍ في حمانا. خاصّةً وأنّ أمرًا جديدًا حدث، يفوق رعبه كلّ ما مرّ بنا من قبل. فقد زحف التُّعس للموت إلينا. وكانت أعداد سكّان القلعة تتناقص يوميًّا، بينما اجتمع الناجون معًا بهلع كأهل مركب أصابه الجوع وتقاذفته الأمواج، وأخذوا ينظرون إلى وجوه بعضهم، متسائلين على من سينقض الموت تاليًا؟ حاولت أن أستر كلَّ ذلك حتّى لا يصيب منه آيدرس إلا أقل

الضرر. ولمّا كانت شجاعتي أشدَّ من أن يغلبَها اليأس، أقسمت على ألّا أستسلم حتى وإن غُلبت.

في أحد الأيام المكرّسة للكوارث ولكلّ خطبٍ مفجع، وكان ذلك التاسع من ديسمبر، بلغني خبر وصول جدة أحد الخدم في القصر. بلغت المرأة العجوز سنتها المئة. كانت ذابلةَ البشرة وواهنة الجسدِ لفرطِ شيخوختِها. مع ذلك استمرّت في الحياة، عامًا بعد عام، متجاوزة الشباب والأصحاء، حتّى شعرت بأنّها ستعيش إلى الأبد. جاء الطاعون وهلك أهل قريتها. مدفوعة بحبّ ما بقي لها من الحياة وجبن المسنين، أزلجت بابها على نفسها ما أن سمعت ببلوغ الطاعون إلى حيِّها، وأغلقت نافذتَها رافضةً الاتصال بالآخرين. كانت تخرج ليلًا للحصول على الطعام، وتعود إلى المنزل سعيدة لأنّها ليست في خطر من الطاعون، ذلك أنّها لم تقابل أحدًا. ومع ازدياد تلف الأرض زادت صعوبة الحصول على الطعام. كان ابنُها الساكنُ قريبًا منها يلاطفُها بأن يضعَ الطعام في طريقها، إلى أن مات أخيرًا. وعلى تهديدِ الجوعِ لها، إلّا أنّ خوفَها من الطاعون كان أكبر. فكان أكبر همّها أن تتلافى البشر. زاد ضعفها يومًا بعد يوم، وتحتم عليها الابتعاد أكثر كلّ ليلة طلبًا للطعام. في الليلة التي سبقت مجيئها بلغت دتشت، حيث وجدت

أثناء تطوافها مخبزًا مهجورًا. عادت مسرعة وهي محملة بالغنائم، إلا أنّها أضاعت طريقها. كانت ليلة حارة غائمة لا نسيم فيها. ثقل عليها حملها، فراحت تلقي الأرغفة واحدًا تلو الآخر، محاولة المضي في المشي، إلى أن صار مشيها عرجًا وضعفًا وبطء حركة. استلقت بين نباتات الحنطة الطويلة وغشيها النوم. استيقظت في منتصف الليل على صوت خشخشة بالقرب منها. كانت لتفرّ لولا أن خذلتها أطرافها المتصلّبة. ارتفع صوت الخشخشة مصحوبًا بأنين منخفض. سمعت صوتًا مخنوقًا يطلب الماء مرّات عديدة. ثم تلا ذلك زفرةٌ من ذلك الشخص المعذّب. عزمت العجوزُ المرتعدةُ على الانتصاب جالسةً. لكنّ أسنانَها وركبها اصطكت بشدّة لمّا رأت تمدّد جسد شبه عار بالقرب منها، وعادت شفاهه تنطق بطلب الماء وتئنّ بصوت خفيض. جرّت حركتها أخيرًا انتباه جارها المجهول، وأمسك يدها بتشنج عنيف جعلها تحسّ بأنّها قبضة حديد، والأصابع وكأنّها أسنان فخّ السنين. "أخيرًا جئت!" نطقت شفاه المحتضر بتلك الكلمات، وكانت آخر شيء منه. ارتخت مفاصله وهجد جسده، فانطلقت زفرة خفيفة منه أخيرًا، معلنةً لحظة موته. انشقّ النهار، فرأت العجوز الجثّة الموسومة بعلامات الطاعون بالقرب منها. كان رسغها مزرقًّا من القبضة التي أرخاها الموت. شعرت بإصابتها بالطاعون. لم يكن

جسدُها الطاعنُ قادرًا على حملها بعيدًا بسرعة كافية. ولمّا أيقنت بإصابتها بالعدوى لم تعد تخشى الاحتكاك بالآخرين؛ فأسرعت إلى حفيدتها في قلعة وينزر، لتنوح وتموت هناك. كان المنظر محزنًا. إذ لم تزل متشبّثة بالحياة، فبكت حظّها العاثر بنحيب وأنين فظيعين. بينما أظهر تقدم المرض السريع أنّها لن تعيش أكثر من عدة ساعات فقط.

بينما كنت أعطي توجيهات للعناية بالعجوز دخلت كلارا عليّ. كانت مرتعشةً شاحبةَ اللون. ولمّا سألتها عن سبب حالها ذاك، ألقت بنفسها بين ذراعي، وصاحت باكية، "أرجو ألّا تكرهني إلى الأبد يا خالي العزيز! ينبغي أن تعلم أن إيفيلن الصغير"... فخنقت العَبرة صوتَها. تجمّد الدم في عروقي خوفًا من مصاب فقد طفلنا الرضيع، إلا أنّ عقلي عاد إليّ لمّا تذكّرت أمّه. ذهبت إلى سرير حبّي الصغير. كان مجهدًا بالحمّى. آمنت بحنان وهلع بأنّه خالٍ من أعراض الطاعون. لم يبلغ الثالثة من عمره، لذا بدا مرضُه وكأنّه إحدى هجمات الحمى في تلك السنّ. نظرت إليه طويلًا. كانت أجفانه الكسلى وخدوده الملتهبة وتلوّي أصابعه غير المنطقية، فضلًا عن حِدّة الحمى واستحكام الخدر من جسده، أمورًا كافيةً لإثارة الخوف. ينبغي ألّا تراه آيدرس بهذه الحال. مع

كون كلارا في الثانية عشر من عمرها، إلا أنّها تمتّعت بحسّ عالٍ بالمسؤولية والحرص، لذا لم أخش من إيكال أمر العناية إليها. أمّا أنا، فكانت مهمّتي أن أمنع آيدرس أن تلاحظ غيابهما. جئت بالعلاج المناسب ثم تركت ابنة أختي الحبيبة لرعايته، وإبلاغي بأيّ مستجَد.

خرجتُ ذاهبًا إلى آيدرس، وأخذتُ أفكّر في تدبير أعذار محكمة للبقاء في القلعة طوال اليوم، وحاولت أن أبدّد آثارَ الهمّ من على وجهي. لحُسنِ الحَظّ لم تكن وحيدة. وجدت الفلكي ميريفال عندها. كان مستغرقًا بالتفكير في مستقبل البشرية البعيد إلى درجة عدم التفاته لمصابها الحالي، فعاش في غمرة الطاعون غير مدركٍ لوجوده. بلغ ذلك العالم المسكين، ببراءة وسذاجة، حافّة المجاعة مرّات كثيرة. شاملًا معه بذلك زوجتَه الشاحبةَ وذرّيّته الكُثر. ذلك أنّه لم يكن يحسّ بالجوع أو القلق. كان غارقًا في نظريّاته الفلكية، مالئًا جدران عليته بالحسابات المكتوبة بالفحم. لم يكن يتردّد في بذل المال المجموع بشقاء أو قطعة من الثياب، في مقابل كتابٍ ما. لم يسمع بكاء أطفاله، ولم يلاحظ هزال صاحبته؛ وكان أفدح الكوارث عنده ليلة غائمة تجبره على التوقّف عن مطالعة الظواهر الكونية في السماء. كانت زوجته

امرأة عجيبة، قل نظيرُها بين النساء؛ ذات حبّ لا ينضبُ حتّى في أحلك الظروف. انقسم عقلُها بين الإعجاب اللا محدود بزوجها، وقلق الأمومة على أطفالها. انتظرت صلاحَ حالِه، وعملت لأجل الأسرة، فكانت حياتُها خطًّا طويلًا من حُلمٍ حزين.

تعرف أدريان عليه لما طلب من ميريفال أن يراقب حركة الكواكب من مرصده. سرعان ما عرف حال فقرِه ، فرفع عنه الفاقة. كان كثيرَ الشكرِ على إعارتنا له لبعض الكتبِ، أو سماحنا له باستخدام بعض الأدوات، إلا أنّه لم يذكر قطّ تغيّر مسكنه أو تحسّن أحواله. أكّدت لنا زوجته أنّه لم يلاحظ أيّ فرق، سوى غياب الأطفال عن غرفة قراءته، وأنّه اشتكى من ذلك الهدوء غير المعهود.

جاء الآن ليعلن لنا عن انتهائه من كتابة ورقته عن حركة الأرض حول محورها، وعن تدقيقه لأيام الاعتدال. لو أنّ رومانِيًّا من زمن الجمهورية بُعث إلى الحياة وأخذ يحدثنا عن قرب انتخاب قنصل ليتوّج بالغار، أو عن آخر معركة ضدَّ ميثريدتس، لما كانت أحاديثه أقلَّ بعدًا عن الواقع من أحاديث ميريفال. ظهر انعدام التعاطف في ذلك الرجل في حديثه عن أفكاره. ففي حين لم يعد أحد يلتفت إلى القراءة، وصار الكلُّ مشغولًا باتقاء الطاعون، كان ميريفال

يتحدّث عن حال البشرية بعد ستة آلاف عام. وقد يضيف تعليقات في صفحاته لاجتذاب اهتمامنا، واصفًا فيها أشكال المخلوقات المجهولة التي سترث مساكن البشر الخالية. لم نجرؤ على إزاحة الغطاء عن عين ذلك العجوز المسكين. حين دخلت الغرفة كان يقرأ أجزاء من كتابه لآيدرس، سائلًا إيّاها التعليق على هذا الجزء أو ذاك.

لم تستطع آيدرس الامتناع عن التبسُّم أثناء استماعها إليه. عرفت منه سابقًا أنّ عائلته كانت بصحّة جيدة. وصحيح أنّها لم تنسَ الكارثة التي كنّا نعيش، إلا أنّني لمحت بهجتها للحظة، لما رأت من التباين الشديد بين نظرتنا للبشرية ونظرة ميريفال السابقة لنا للخلود. سرّني رؤية ابتسامتها لأنّها أكّدت لي جهلَها التامّ بحال طفلِها. إلّا أنّ التفكيرَ بالانقلاب الذي سيصيبُها في حال عرفت الأمر أجفلني. بينما كان ميريفال يتحدّث، فتحت كلارا بهدوء البابَ خلف آيدرس، وأشارت بالقدوم بوجهٍ حزينٍ. وشت مرآةٌ لآيدرس بتلك الإشارة، فقامت بسرعةً. في ثوانٍ قلّبت الأمر ورأت أنّ ألفرد معنا، فظنّت أنّ الشرَّ متعلّق حتمًا بأصغر أبنائها، فخرجت راكضةً إلى غرفته. هناك رأت إيفيلن الصغير ساكن الحركة وقد صرعته الحمّى. تبعتها وحاولت أن ألقي فيها من الأمل ما لم أكن أحمل، إلا أنّها هزّت رأسَها بحزن. غيّب الألمُ عقلها، فأوكلت

إلي ولكلارا واجبات الطبابة والعناية. أمضت اليوم كله في ألمٍ لم يتبدّل، جالسةً بجانب السرير ممسكةً بيدٍ صغيرة ملتهبةٍ بالحمّى، مولية عينها البرّاقة شطرَ طفلِها. لم يكنِ الطاعونُ ما أصاب طفلنا، إلا أنّها أبت أن تستمعَ إلى تأكيداتي. فارقها العقل وحلّت الخشية محلّه. كلّ اختلاجة كانت تظهر على وجه طفلها كان تهزّ كيانَها؛ وكانت كلُّ حركة منه كارثةً موشكةً في عينِها. وإن ظلّ ساكنًا كانت تخالُ الموتَ يرفّ فوقَه، فيغتمّ وجهها بالحزن.

زادت حمّى الصغير المسكين قبيل الليل. ما أفظعَ الشعورَ الذي يستولي على المرء حين يقضي الليل ساهرًا بجانب سرير المرض، خاصّة حين يكون المريضُ رضيعًا لا يفقهُ التعبيرَ عن ألمه، ومن تُشبه حياته المرتعشة خفوت النار في رأس مرقب...

نارُه الضئيلةُ لعبةٌ للرياح
وعلى حوافّه يرفُّ الظلامُ النَّهِم.

يدير المرء وجهه للشرق بتوق، ويراقبُ بصبرٍ نافدٍ وغضبٍ ظلامَ الليل. صياح الديك، وصوته البهيج في النهار، يصدر منتحبًا نشازًا. صوتُ صريرِ العوارضِ ودبيبُ الحشرات الخفيّ، كانت كلّها تسمعُ كصوت الدمار الأوحد. جلست كلارا التي غلبها

التعبُ عند قدم سرير ابن خالها، وعلى مقاومتها أغلق النعاس جفنَها. طردته مرتين أو ثلاث، إلا أنّه تمكّن منها في النهاية. جلست آيدرس بجانب السرير ممسكة بيد إيفيلن. خشينا تحدّث بعضنا مع بعض، فأخذت أراقبُ النجوم مرة، ثم أقوم على طفلي، أجسّ نبضَه، أقترب من والدته، ثم أعود إلى النجوم. عند مطلع الصباح جذبت زفرةٌ انتباهي للمريض. زالت عنه السخونةُ، وهدأ نبضُه وصار خدرُه نومًا. لم أجرؤ على الأمل وقتًا طويلًا، ولكن لما كان انفراج تنفّسه وتعرّق جبينه علامات لا تكذب عن رحيل المرض المميت، غامرت بهمس خبر التغيّر هذا لآيدرس، ونجحت أخيرًا بإقناعها بأنّي أقول الحقيقة.

لكنّ تأكيداتي لها والتحسّن الكبير في حالته لم يكونا كافيَين لإعادتها إلى سابق عهدها، أو حتى إلى بعضٍ من سابق هدوئها. كانّ خوفها أعمقُ وأكبرُ من أن يتغيّر إلى الشعور بالأمان. شعرت بأنّ الهدوء الذي كانت تعيشُه كان حُلمًا استيقظتُ الآنَ منه.

كامرئ في برج أعزل
أُوقظ من حُلمٍ جميل في بيته الحبيب
مرتعدًا لهدير الطوفان الحانق.

كمن اعتاد حضن العاصفة، وأفاق على غرق السفينة. كانت عضّات الألم تأتيها عارضةً من قبل، أمّا الآن، فلم تعد تهنأ بفترة من الأمل. لم تُنِر قسماتُ وجهِها قطّ ابتسامةً نابعةً من القلب. كانت تتكلّف التبسّم أحيانا، ليتلوَ ذلك انهمارُ دمعِها وطوفان بحر الحزن فوق حطام سعادتِها. مع ذلك، لم تكن تنطق باليأس حين أكون بالقرب منها. كانت متربعة في حصنها. بدا وكأنّها لم تكن تخشى عليّ من الموت، ولا حتّى الإشارة إلى إمكانية حصول ذلك. كانت تنفض مخاوف صدرِها إليّ، وتسكن إلى حبّي، كما يلجأ الريمُ الذي قرصته الرياحُ إلى أمّه. بينما زهوتُ أنا زهوًا يفوق ما كان في الأيام الخالية، لما وجدت من الطمأنينة التي يبثّها حضوري؛ ورحت أقرّبُ فتاتي المرتعشة إلى قلبي، وأحاول أن أطردَ الأفكار المؤلمة عن طبيعتها الحسّاسة.

حصلت حادثةٌ أخرى عند نهاية ذلك الصيف. إذ عادت كونتس وينزر، الملكة السابقة، من ألمانيا. كانت قد تركت مدينة فيينا الخالية في بداية الموسم. ولمّا لم تكن تطيق أن تسلمَ طموحَها للاستسلام، أمضت بعضًا من الوقت في هامبورج، قبل أن تأتيَ إلى لندن. مرّت أسابيعُ عدّة على إقامتها في لندن قبل أن تُشعر أدريان بوصولها. وعلى برودِها وطول غيابِها، إلّا أنّه

رحّب بها بحرارة، وأظهر عاطفة سعى بها إلى لَأمِ جروحِ الحزنِ والكبرياء. سرت آيدرس لما سمعت بعودة والدتها؛ ولأنّ مشاعرَ الأمومة فيها كانت متوقّدة، ظنَّت أنّ والدتَها قد تخلّت عن كبرِها وقسوتِها في أيام الخراب هذه، وأنّها كانت ستسعدُ برؤية أقربائها. كانت أول علامة على عدم زوال عنادِها، إبلاغَها الرسميَّ لابنتها بعدم رغبتها بأن أتفضّل عليها. وقالت إنّها قبلت مسامحة ابنتها والاعتراف بأحفادها، وينبغي ألّا يتوقعَ منها أيّ تنازلٍ آخرَ.

كان ذلك السلوك بالغ الغرابة، إن جاز لي أن أستخدم ألطف الصفات. ففي حين زال التمييز الطبقي بين جميع أبناء البشر، زاد كبرياؤها حمقًا. وبينما عمَّنا الشعورُ بالقرابة والأخوة لكلّ من حمل صفة الإنسانية، كان التمسُّك بالماضي الذي ولى سخافة لا يدانيها شيءٌ. كانت آيدرس مأخوذةً بمخاوفها، لذا لم يكن للغضب محلٌّ فيها. إن كانت تلك الصفاقة مدفوعةً بحقدٍ قديمٍ لم يمت، فهذه ليست الحقيقة الكاملة. فالحقُّ أنّ عنادَها تنكر برداء قسوة المشاعرِ، ولم ترد السيدة المتغطرسة أن تبديَ كللًا من كفاحِها الذي خاضت. فقد كانت تظن أن سبب الكبرياء في نفسها هو تضحيتها بسعادتها في سبيل مبدأ لا يتغيّر.

كاذبة كلّ تلك المشاعر، كلّها كاذبة إلا المحبّة المطبوعة فينا،

وصلتنا باللذّة والعذاب. وليس في الحياة إلا شرّ واحدٌ وخيرٌ واحدٌ، الموت والحياة. زائلةٌ هي أبّهة الرتبة ووهْم السلطةِ وملك الأموال، ومتلاشية كضباب الفجر. صار المتسوّلُ الحيُّ أرفعَ منزلة من كلّ النبلاء، والأبطال والعباقرة الهالكين. أيّ انحطاط هذا الذي بلغناه؟ فقدت الفضيلة والرذيلة صفاتها، وصارت الحياةُ أولَ وآخر غاياتنا وصلواتنا.

الفصلُ التاسع

كانت نصفُ إنجلترا خرابًا، حين حلّ أكتوبر وهبّت رياح الاعتدال على وجه الأرض، لتبردَ حرارةُ فصل المرض. امتدّ صيفُ ذلك العام، والذي كان حارًّا بشكلٍ غيرِ معهودٍ، إلى بداية أكتوبر، وفي الثامن عشر انقلب الجوّ فجأة من درجة الغليان إلى الصقيع. توقّف الطاعون عن حرفة القتل. تنفّسنا الصعداء، إلا أنّنا لم نجرؤ على النطق بالآمال التي ملأتنا. كنّا كبحّارٍ أُلقِيَ وحطام سفينته على جزيرة جرداء في المحيط، يرقب سفينة بعيدة ويخيّل له أنّها تقتربُ، إلى أن تغيب عن ناظره. جعل هذا الوعد بتجدّد الحياة قسوة الغلاظ رقّة تذيبُ القلوب، وعلى العكس من ذلك، ملأ قلوب الرحماء بمشاعر قاسية. لما بدا لنا أنّنا سائرون إلى الموت جميعًا لم نلتفت إلى أين ومتى. أمّا الآن وقد انحسر مدّ الطاعون، وظهر أنه ينوي إبقاء بعضنا على قيد الحياة، تسارعنا لنكون من المختارين، وتشبثنا بالحياة تشبث الرعديد. كثرت حالات الفرار، بل وحتى القتل، وأسقمت هذه الأخبار الأخيرة قلوب سامعيها، حيث دفع الخوف من العدوى أبناء الجنس الواحد إلى نحور بعضهم. لكن تلك المآسي الصغيرة المتفرّقة كانت على وشك أن تتنحّى لخطب أعظم. بينما أطلّ الوعد بسكينة وبغياب أثر

الطاعون، علت عاصفة أجمح من الرياح، عاصفة نبتت من أهواءِ الرجال، وغذيت بأعنف النزعاتِ. عاصفة رهيبة لا نظير لها.

ركبت مجموعة من بقيّة سكّان أمريكا الشمالية البحر، قاصدين الشرق رغبة بتغيير حالهم. تاركين خلفَهم أراضيهم الخربة إلى أراضٍ ليست أقلَّ دمارًا منها. حطّ مئاتٌ منهم في أيرلندا عند بداية نوفمبر، وأخذوا المساكن الخالية التي وجدوا. ووضعوا أيديهم على الطعام والماشية الضالة. ولما كانوا يقضون على خيرات مكان ما، كانوا يرتحلون إلى محلّ آخرَ، إلى أن بدؤوا بالاحتكاك بالسكّان. ولكثافة أعدادهم نجحوا في طرد السكّان من ديارهم والاستيلاء على مخازن مؤونتهم الشَّتَوية. أثارت بعض الحوادث من ذلك النوع حمية الأيرلنديين، فانقضوا على الغزاة. قُتل بعضهم، ولكن الغالبية منهم انسحبوا بشكلٍ سريعٍ ومنظّم، وجعلهم ذلك الهجوم أكثر حذرًا. نظّمت جموعُهم ببراعة، وأخفيت أعداد القتلى بينهم. ولمّا رأى الأيرلنديون حُسن تنظيمهم في المسير، اشتعلت الغيرةُ فيهم. سمح الأمريكيون لبعض الأيرلنديين بالانضمام إليهم، فقاربت أعداد المنضمين أعداد الغرباء. بَيدَ أنّ المنضمين لهم لم يكونوا على القدر ذاته من التنظيم المثير للإعجاب، الذي حافظ عليه زعماء الجمع العابر

للمحيط، والذي جعلهم قوة يصعب قهرها. تبعهم الأيرلنديون في حشود غير منتظمة، وأخذت أعدادهم تتزايد يوميًّا إلى أن صار من الصعب السيطرة عليهم. أراد الأمريكيون الفرار من تلك العاصفة التي أثاروا، فاتجهوا إلى الساحل الشرقي، وركبوا من هناك إلى إنجلترا. لم يكن أحد ليشعر بوجود الأمريكيين، لو كانوا وحدهم. لكن لما اجتمع الأيرلنديون بأعداد هائلة لم يسبق لها الاجتماع من قبل، أحسّوا بدنوّ المجاعة منهم، فتبعوا الأمريكيين إلى إنجلترا. لم يكن عبور البحر ليوقف تقدّمهم، فقد عجّت موانئ غرب أيرلندا المهجورة بالسفن من مختلف الأحجام، من البوارج الحربية إلى أصغر قوارب الصيد؛ رست تلك السفن بلا بحارة هناك، يأكلها عفن السكون الطويل في الماء. ركب القوم بالمئات، ولمّا كانوا جاهلين بأمور البحر أثاروا فوضى غريبة من الحبال والأشرعة. نجح أغلب الذين قصدوا السفن الأصغر بالعبور بسلام، بينما اندفع بعضهم بروح التهوّر والمغامرة، وركبوا سفينة تحمل مئة وعشرين مدفعًا. انجرّت السفينة الضخمة مع التيّار إلى خارج الميناء، وبعد عدّة ساعات قرّر طاقمها من أهل البرّ أن ينشروا أشرعتها العظيمة. تلقّفت الرياح الأشرعة، وبينما كان قائد الدفّة يتخبّط بالسفينة يمينًا وشمالًا، خفقت أشرعتها الضخمة مصدِرة صوتًا أشبه بصوت شلال عظيم، أو كصوت غابة في جزيرة استوائية عصفت

بها رياح الشمال. فتحت الفوّهات على جوانب السفينة، وفي كلّ مَيلة لها كانت تبتلع أطنانًا من الماء. زادت الصعوبة بهبوب ريح جديدة زافرة، تقاذفت الأشرعة يمينًا وشمالًا، وأحدثت فيها شقوقًا لا رتقَ لها؛ وزاد صوتُ الرياح الشبيه بصوت أجنحة كبير الشياطين، كما تخيّله ملتون، من الفوضى. لم يكن صوت الرياح شيئًا بالمقارنة مع هدير البحر المتميّز غيظًا حول السفينة، وقرقرة المياه في قاعها. شعر البحّارة الذين رأى بعضهم البحر أول مرة وكأنّ السماء انطبقت على الأرض، لما أغطست السفينة دقلها في البحر، وخرجت منها مجدّدًا. ضاعت صرخاتُهم وسط صخب الرياح، وهدير البحر الجامح. أفاقوا بعد حين إلى غمر الماء لسفينتهم، فسعَوا إلى المضخّات، فكان حالهم كمن يريد أن يفرغ المحيط من مائه بالدلاء. ازداد هيجان العاصفة مع انحدار الشمس. أُترعت السفينة بالمياه، وبدت عليها علاماتُ الاستسلام. كان الخليج مكتظًّا بالسفن التي وقف أغلب بحّارتها يرقبون حركة السفينة الهوجاء. رأوا غرقها رويدا رويدا والمياه تعلو جسدها. لم ترف لهم عين قبل اختفاء السفينة بالكامل، ولم يستطع أحد تحديد مكان انطباق البحر عليها. أُنقذ عدد قليل من أفراد طاقمها، إلا أنّ العدد الأكبر منهم غاصُوا معها، متمسّكين بحبالها قبل أن يرخي الموت قبضتهم ليطفوا على السطح من جديد.

جعلت تلك الحادثة الكثيرين ممّن كانوا على وشك الإبحار يعدلون عن عزمهم، فثبّتوا أقدامَهم على اليابسة مستعدّين لمواجه أيّ شرّ عوضًا على الاندفاع إلى فكّ المحيط عديم الرحمة. إلا أنّ أولئك لم يكونوا شيئًا يذكر بالمقارنة مع مَن عبروا. ذهب كثيرُ منهم إلى الشمال وصولًا إلى بيلفاست ليضمنوا عبورا قصيرا، ثم انطلقوا جنوبا عبر اسكتلندا حيث انضمّ إليهم أهل تلك البلاد الأشدّ بؤسًا منهم، وتدفّقوا جميعًا إلى إنجلترا.

أصاب هذا الغزو الإنجليز بالرعب، وفرّ من استطاع من أهل المدن من وجه الكارثة. كانت بلدتُنا المنكودةُ قادرةً على استيعاب ضعفِ أعدادِ الغزاة. لكنّ روحَ العبث فيهم دفعتهم إلى العنف. فكانوا يستمتعون بطرد أهلِ المنازلِ من بيوتهم، والاستيلاء على القصور الفاخرة حيث عزل النبلاء أنفسهم خوفًا من الطاعون، وبإجبار الرجال والنساء على خدمتهم وتزويدهم بالطعام، إلى أن يتلفَ المكان الذي اختاروا الإقامة فيه، فيرتحلوا بجمعهم الغوغائي إلى مكان آخر. كانوا يعيثون فسادًا واسعًا حين لا يجدون من يكبحُهم، وفي حال شعورهم بالخطر، كانوا يجتمعون فيقهرون عدوّهم اليائس والضعيف بكثرة أعدادهم. جاؤوا من الشرق والشمال وتحرّكوا بلا هدف محدّد، إلا قصدهم الذي

اتفقوا عليه، وهو عاصمتنا التعيسة.

كان من تأثير الطاعون أنّه شلَّ سبلَ الاتصال بشكل كبير في البلاد، مما سمح لطلائع الغزاة بأن يصلوا إلى مانتشستر وديربي قبل أن يردنا خبرهم. انساحوا في البلاد كجيش من الغزاة يحرقون ويقتلون وينشرون الخراب، وانضمّ إليهم الحُثالة والمتشردون من أهل البلاد. سعى بعض ممّن بقي من اللوردات الممثّلين للحكومية إلى إقامة قوّات مقاومة شعبية، بَيدَ أنّ الرعبَ أخلى الصفوف من المشاركين، وكانت مقاومةُ بعضهم سببًا في زيادة فجور الأعداء وقسوتهم. تحدّثوا عن أخذ لندن وغزو إنجلترا، مسترجعين ما نُسي من المهانة التي تلقّوها من إنجلترا قبل سنين بعيدة. أبدت بجاحتهم ضعفَهم لا قوّتهم، ومع ذلك كان في مقدورهم إحداثُ ضررٍ بالغٍ ينتهي بهلاكهم ليصيروا عِبرة.

رأينا في تلك الأثناء كيف كان البشرُ في الأزمنة السحيقة يخلعون على أعدائهم قوًى خارقة. وكيف بلغت شائعات الألسن عَنان السماء، طارقةً أكفّ كوكب الزهرة وإبليس. امتزجت أخبارُهم المروّعة الـواردة إلى لندن بالغرغونات والقناطير والتنانين، والأسود ذوي الحوافر الحديدة، ووحوش البحر العملاقة والهيدرا. لم يُعرف متى وفي أيّ الشواطئ نزلوا. ومع

وصولهم إلى مسافة مئة ميل من لندن، جاء أهل الريف الفارّين جماعات إلى إليها، وأذاع كل جمع منهم أخبارًا مبالغًا فيها عن بشاعة المهاجمين وقسوتهم. ملأ الاضطراب الشوارع الخالية قبل ذلك، وفرّ النساء والأطفال من البيوت، لا يلون على وجهة. ووقف الآباء والأزواج والأبناء مرتعشين، لا خوفًا على أنفسهم، بل على أحبّائهم وأقربائهم العاجزين. مع تدفّق أهل الريف إلى لندن، فرّ أهل المدينة إلى الجنوب، واعتلى بعضُهم الصروح الشاهقة، علّه يرى دخان العدو ونيرانه المنبث من حولهم. ولمّا كانت وينزر في طريق الغزاة من ناحية الغرب، أخذت عائلتي إلى لندن، وجعلت من قصر برج لندن مسكنًا مؤقتًا لهم؛ ثم انضممتُ إلى أدريان لأكونَ مساعدًا له في الصراع القادم.

أمضينا يومين في الاستعداد، وأفادنا ذلك الوقت بصورة كبيرة. جمعت المدافع والبنادق، وأسلحة من تبقى من الأفواج، وسارت العساكر في استعراض وتنظيم لرفع الروح المعنوية، وإرهاب عدوّنا اللا منتظم. حتّى الموسيقى كانت حاضرة، فارتفق خفت البيارق بصوت الأبواق المثيرة للحماسة، ناطقةً بصوت الإقدام والنصر. قد تعرف الأذن الخبيرة ضعفًا في وطء خطوات الجنود، إلا أنّ ذلك لم يكن خوفًا من الغريم، بل وهْنًا من الطاعون

والأحزان والتشاؤم، وتلك أمور تثقل أشجعَ الرجال وتخنعُ أجسرَ القلوب.

قاد أدريان الجنود بحذرٍ شديد، وشعر ببعض الراحة لظنّه بأنّ حُسن نظامنا سيأتي لنا بالنصر في المعركة. بينما فتك الطاعون بعدل بين الغزاة والمغزيين، لم يكن أدريان يطمح للنصر، بل لسلام أبيض بلا دماء. بينما كنّا في مسيرنا قابلنا زُمرًا من الفلاحين، دلّت فاقتُهم ورعبُهم على شراسة العدو المقبل. أعمتهم روحُ الغزو عديمة الرحمة وتعطّشهم للغنائم، فكانوا طوفانًا أحالَ البلادَ إلى خرابة. عاد الأمل إلى الفارّين لمّا رأوا الجيش، وحلّت الرغبة في الانتقام محلّ الخوف. انبثّت تلك الرغبة بين الجنود، فتبدّل الوهنُ إلى حماسة والخطوة المتثاقلة إلى مشي سريع، بينما سرت همهمات دافعها الحنق بين الجنود، فاختلطت قعقعة الأسلحة بأصوات الموسيقى. أحسّ أريان بذلك، وخشي من صعوبة السيطرة على الجند، وإمساكهم على صبّ جام غضبهم على الأيرلنديين. انطلق عبر الصفوف منبّهًا الضباط إلى ضبط العساكر وتحذير الجنود، فأعاد النظام وأهدأ إلى حدّ ما غضب النفوس المحتقنة.

كان أول ما قابلنا شرذمة من الأيرلنديين، عند سانت ألبانز.

تراجعوا من أمامنا، وانضمّوا إلى آخرين من رفاقهم أثناء تراجعهم، إلى أن بلغوا جيشهم الرئيس. أثارت فيهم أنباء وجود مقاومة مسلّحة ومنظّمة شيئًا من النظام. فجعلوا من باكنغهام مقرَّ قيادتهم، وأرسلوا المستطلعين إلى التعرف على حالنا. بتنا ليلتنا في لوتن، وفي الصباح دفعت التحرّكاتُ الفريقين للتقدّم. كان الوقت أول الفجر، وبدا أنّ الهواء المحمّل بأطيب العطور يعبث ساخرًا ببيارقنا، حاملًا إلى العدوّ أصواتَ عزفِ الآلاتِ وصهيل الخيول ووقع الأرجل. تفاجأ العدوّ لمّا سمع أول مرة أصوات الموسيقى العسكرية، ولم يخل تفاجؤهم من الرعب. فقد ذكرتهم تلك الأنغام بأيام الانسجام والنظام، لارتباطها بالأوقات السابقة للطاعون، حين عاش البشر بلا خوف من الموت المحدق. لم تطل وقفتهم، وسرعان ما سمعنا جعجعتهم المضطربة، وصيحاتهم البربرية، وآلاف الخطوات غير المنتظمة القادمة إليها. تدفّق جنودهم في السهول والطرقات الضيّقة، وامتدّت بيننا أراضيَ منبسطة. تقدّمنا إلى منتصفها ثم توقفنا. ولما كان موقعنا أعلى بعض الشيء، استطعنا أن نرى المساحة التي غطّوها. حين أدرك قادتهم أنّنا تقدّمنا للقتال، أعطوا الأمر لرجالهم بالتوقّف، وسعوا إلى تنظيمهم بشكل يحاكي التنظيم العسكري. كان حَمَلَة البنادق في الصف الأول وبعضهم ممتطيًا الأحصنة. إلا أنّ

أسلحتَهم كانت ممّا أخذوا أثناء تقدّمهم، وجيادهم جياد فلاحين. لم يكن هناك من لباس موحّد، وبدا الافتقار إلى الطاعة واضحًا؛ لكن ظهرت روح الشجاعة المتمرّدة التي ألهمتهم في صيحاتهم وحركاتهم البذيئة. تلقى جنودنا الأمر فتقدّموا بسرعة، لكن بنظام مثاليّ. كان لباسُهم الموحّد، وبريق أسلحتهم المصقولة، ووجوهم الصامتة المكفهرة، أشدَّ إرجافًا من ضوضاء عدوّنا البربريّ الهائل. هكذا دنا الجيشان بعضهما من بعض، وازدادت صيحات الأيرلنديين. تقدّم الإنجليز بطاعة لأوامر ضباطهم حتى صار بإمكانهم تمييز وجوه أعدائهم فأثار ذلك المنظر حنقهم. انطلقت منهم صيحة واحدة شقّت عَنان السماء، وردّد صداها آخر الصفوف في الخلف، وهجموا. لم يكن الرصاص شافيًا لغليلهم، فانقضّوا على عدوّهم بحرابهم، بينما انشقت الصفوف في بعض المواضع ليشعل رجال المدفعية مدافعهم، ويملأ هدير المدافع ودخانها أرض المعركة رعبًا. كنت بجانب أدريان قبل لحظات حين ذكر بأمر التوقّف، وابتعد أمتارًا عنّا غارقًا في تفكير عميق. كان يعدّ سريعًا لخطّة تحقن الدماء. أجفله صوت المدافع وهجوم الجنود وصيحات العدوّ، فهتف والشررُ يتطاير من عينيه، "لن يموت أحدٌ من أولئك!" ثم همز حصانَه وانطلق بين الفريقين المتقاتلين. هرعتُ وبقيّة طاقمِه إليه لنحيط به ونحميه، إلا أنه أشار

إلينا بألّا نتبعَه فعدنا أدراجنا. توقّف الجنود عن الهجوم لما رأوه. لم يأبه للرصاص المتطاير من حوله، واستمرّ راكبًا بين الفريقين. حلّ الصمت محلّ الصخب، وتمدّد على الأرض خمسون رجلًا ميّتًا. رفع أدريان سيفه في إشارة للإنصات، وصاح مخاطبا جندَه، "بأمر مَن تقدّمتم؟ مَن أمركم بالهجوم؟ عودوا إلى مواقعكم. لن يذبح هؤلاء الرجال المغرّر بهم اليوم، طالما أنا قائدكم. أغمدوا سيوفَكم ولا تقتلوا إخوتكم. قريبًا سيقضي الطاعون عليكم، قبل أن تشفوا صدوركم بالانتقام. أتريدون أن تكونوا أشدَّ قسوة من الطاعون؟ إن كنتم توقّرونني وتؤمنون بالله، الذي خلق هؤلاء الرجال وأطفالكم وأحبابكم على صورته، لا تسفكوا قطرة من دم الإنسان النفيس".

تكلّم ممدود اليدين وبصوت ظافر، ثم التفت إلى الغزاة بوجه صارم وأمرهم بوضع أسلحتهم أرضًا. قال، "أتحسبون بأنّ فتك الطاعون بنا سيمكنكم من قهرِنا؟ الطاعون عدوٌّ لكم أيضًا، وحين تصرعكم المجاعة والمرض ستنهض أرواحُ مَن ذبحتم لتسلبكم طمأنينة الموت. ألقوا بأسلحتكم أيّها البرابرة القساة، يا مَن تلطّخت أيديكم بدماء الأبرياء، وأثقلت أرواحكم بصرخات اليتامى. نحن الغالبون لأنّ الحق إلى جانبنا. وجوهكم

شاحبة قبل القتال، والأسلحة تنسل واقعة من قبضاتِكم المرتخية. ألقوا بأسلحتكم أيّها الرجال! يا إخوتي! فالعفو والغوث والحبّ الأخوي ينتظرون توبتكم. أنتم أعزاء علينا لأنكم تحملون صفات البشرية. وكلّ رجل منكم سيجد صديقًا ومضيفًا في هذا الجيش. أيعقل أن يصير الإنسان عدوًّا لأخيه، بينما عدوُّ الجميع الطاعون، يحتفل فوقنا بمجزرة تفوق فتكِه بشاعة؟"

توقف الجيشان. في جانبنا، أمسك الجنود بأسلحتهم بإحكام، ونظروا إلى العدوّ بوجوهٍ متجهّمة. لم يُلقِ الرجال على الجانب الآخر بأسلحتهم، وكان مانعُهم الخوف أكثر من الرغبة في القتال. نظر بعضهم إلى بعض، راجين أن يتبعوا رأي أحد منهم، لكنّهم كانوا بلا قائد. ترجل أدريان من على حصانه، واقترب من الموتى. وصاح، "كان رجلًا، والآن صار جثّةً. أسرعوا وضمّدوا جراح المصابين، لا تدعوا أحدًا للموت. لا تتركوا روحًا أخرى تنسلّ من بين جراحِكم القاسية، لتقف بين يدي عرش الإله، وتقصّ له خبر قتل الإخوة بعضهم بعضًا. قطبوا جراحهم وأقيموهم بين رفاقهم. انزعوا أفئدةَ النمور المضطرمة في صدوركم، واطرحوا آلاتِ العذاب التي في أيديكم. ليكن كلُّ امرئ أخًا وحارسًا وخادمًا لأخه، في موقف الموت هذا. أبعدوا هذه الأسلحة الملطّخة

بالدم، وليسرع بعضُكم ليداويَ الجرحى".

انحنى إلى الأرض أثناء حديثه ورفع بين ذراعيه رجلًا نزف جنبه بسائل الحياة. أطلق الرجل المسكين أنّة سمعَها الجميعُ، لشدّة الصمتِ الذي كان مخيّمًا. فتحوّلت القلوبُ التي كانت منكبّة منذ لحظات على مجزرة كبرى، لتنبض كلّها بالرجاء لنجاة ذلك الرجل. شقَّ أدريان وشاحه العسكري ولفّه حول المصاب. إلا أنّ الأوان قد فات، فقد زفر الرجل زفرة عميقة، وخرَّ رأسُه للخلف، وفارقت أطرافه القوة التي كانت تسكنها. بدا وكأنّ مصيرَ العالم تجسّدُ في موت ذلك الرجل. ألقى الرجال من الجانبين أسلحتهم أرضًا، وحتّى الرجال الذين عركتهم الحروب بكوا. بسط رجالنا أيديهم إلى عدوّهم، بينما سرت نفثة من الحبّ والصداقة في كلّ القلوب. امتزج الفريقان وتشابكت أيديهم بلا سلاح. لم يكن كلامُهم إلا عرضًا لمساعدة بعضهم بعضًا. هكذا اتّحد الأعداء. وراح كلٌّ منهم يعتذرُ من الجانب الآخر عن فظاعة ارتكبها، ويردّ الآخر باعتذار عن قسوته. ثم اتّجهوا معًا إلى لندن، مطيعين لأوامر القائد.

كان لزامًا على أدريان أن يبذلَ أقصى حرصه، ليؤاخي بين المتخالفين أولًا، وليوفّر الإغاثة لأعداد الغزاة المهولة. تمَّ إرسالُهم إلى مقاطعات مختلفة في الجنوب، وأُسكنوا في القرى

المهجورة، بينما أُعيد بعضُهم إلى جزيرتهم. هكذا أعاد الشتاءُ العافية إلينا، وحفظت ثغور البلاد.

في تلك الأثناء تقابل أدريان وآيدرس أول مرّة بعد قرابة العام من الفراق. كان أدريان مشغولًا بأداء مهامه الشاقّة. حيث رأى كلّ أصناف البؤس البشري، وعرف أنّ مساعداته ومجهوده لم يوفّرا إلا عونًا ضئيلًا. إلا أنّ تصميمَ روحِه وعزمِه المتّقد أَبَيَا عليه أن يتّشح بالحزن. فبدا وكأنّه ولد من جديد، وكلّلته صفاته، التي فاقت نجاعتُها الخيمياء الأرخميدية، بالعافية والقوّة. لم تر آيدرس فيه شيئًا من جسده السابق الهزيل، الذي كان ينثني لنسيم الصيف؛ بل رأت رجلًا مفعمًا بالطاقة، رجلًا جعله حسُّه المرهفُ خيرَ ملاح لإنجلترا في هذه العاصفة الهوجاء.

لم يكن الحال كذلك مع آيدرس. لم تكن شاكية في كلامها، إلا أنّ روح الخوف تربّعت في قلبها. فشحب وجهها وانبرى جسدُها، وكان الدمعُ مزوارًا لعينَيها بلا إرادة منها، وصار صوتُها خفيضًا واهنًا. حاولت أن تخفيَ تلك التغيّرات التي طرأت عليها لعلمِها أنّ أخاها سيلاحظُ ذلك، لكنّها لم تنجح في ذلك. ولمّا خلت به انفجر خوفُها وحزنًا فارًّا من محبس صدرها. وصفت له بتفصيل دقيق الهمّ غيرِ المنقطعِ الذي كان يأكل روحها. شبهت ترقّبها

المستمرّ لوقوع الشرّ بالنسر الآكل لقلب بروميثيوس. جعلها ذلك القلقُ غيرُ المنقطع والصراعات اللانهائية التي طارحت وحاولت إخفاءها، كما قالت، تشعر وكأنَّ جسدَها يشيخُ بسرعة مضاعفة، مستهلكًا نفسَه على نحوٍ خطيرٍ. لم يكن نومُها نومًا، ذلك أنّ أفكارَها اليقظة المشوبة ببقيّة العقل فيها، والسعيدة لرؤية أبنائها في صحّة وسرور، كانت تنقلبُ إلى أحلام جامحة تتجلّى فيها كلُّ مخاوفِها في أبشع صورها. لم يكن من أمل يسلّيها في حالها تلك، إلا أن يعجّلَ القبرُ باستقبالِ ضحيّته المقدّرة له، ويؤذن لها بالموت قبل أن تعيشَ ألمًا يعدل ألف موتة في فقدِ أحدِ أحبّائها. حاولت قدرَ استطاعتِها أن تخفيَ عنّي بؤسها الشديد، خوفًا من أن يؤلمني ذلك. لكن حين قابلت أخاها بعد غياب طويل، لم تستطع كبح أحزانها، فأفضت بقلقها بكلّ تفاصيله وبثّت مشاعر قلبِها إلى أخيها المُحبّ الرحيم، أدريان.

عززت زيارتها إلى لندن من قلقها، إذ رأت مدى فتك الطاعون في أعتى حالاته. بالكاد اتسمت المدينة بمظهر المدن المأهولة. نبتت الحشائش طويلةً كثيفةً في الشوارع، وغطّتِ الأعشابُ الساحات. أُغلقت المنازل، وكان الصمت والفراغ سمةَ أكثرِ المناطقِ ازدحامًا من قبلُ. بَيدَ أنّ أدريان حفظ النظام في وسط

الخراب ذاك. واستمرّ الجمع في العيش وَفق القانون والأعراف. هكذا سلمت المؤسّسات التي وضعها الإنسانُ، وكأنّها خلقٌ سماويٌّ؛ وبينما كان العبادُ في هلاك، ظلّت صنائعُهم حيّةً سالمة. كان المنظرُ حزينًا، فعلى النظام الذي حدّ من الشرور، بدا الأمر وكأنّه سخرية بائسة؛ لقد فرّت جميع أفكار التسلية واللهو في المسارح والمهرجانات. قال أدريان، حين افترقنا قاصدين العودة إلى وينزر، "سيحدّد الصيف القادم مصير الجنس البشري. لن أتوقّف عن بذل جهدي إلى ذلك الحين؛ لكن إن عاد الطاعون في العام القادم، ينبغي لنا أن نقطعَ صراعَنا معه، ونصب تركيزنا على اختيار قبورنا".

عليّ ألّا أنسى ذكرَ أمر حدث أثناء زيارتنا إلى لندن. فقد انقطعت فجأة زيارات ميريفال الكثيرة إلى وينزر. خشيت في تلك الأثناء التي كان الفاصل فيها شعرة بين الحياة والموت، أن يكون صاحبنا قد وقع ضحية للموت. لذلك ذهبت إلى منزله والخوف يعتريني؛ لأنظر إن كان باستطاعتي أن أقدّم أيّ مساعدة إلى عائلته التي قد تكون نجت. كان البيتُ خاليًا من أهله، وصار من البيوت الممنوحة للغزاة الغرباء الموزّعين من لندن. وجدت آلاته الفلكية تستخدمُ في أمور غريبة، وأجرامه مدمّرة، وأوراقه

الممتلئة بالحسابات المعقّدة تالفة. لم أحصل من الجيران على جواب عمّا حدث، إلى أن وقعت على امرأة اشتغلت في العناية في المرضى في هذه الأوقات العصيبة. قالت لي إنّ جميع أفراد العائلة قد هلكوا، إلا ميريفال الذي أصابه الجنون. حزنت على ما حدث لأسرته ولما أصابه من جنون، لكن حين سألت أكثر تبيّن لي أنّ ما اعتراه هذيان من فرط الحزن. ذلك الرجل العجوز المترنّح على حافّة قبره، المتأمّل في أحوال ما بعد ملايين السنين، الذي لم يلحظ علامات المجاعة في أجساد زوجته وأطفاله الهزيلة، ولا فتك الطاعون المريع من حوله. ذلك الفلكي الميت على الأرض والحيّ بين النجوم، أحبّ أسرته حبًّا غير ظاهر، إلا أنّه حبٌّ جمّ. جعلتهم الألفة جزءًا منه، وصيّره العطش الشديد للمعرفة والاتكال الطفولي معتمدًا عليهم بالكامل. لم يع الخطر المحدّق بهم إلا عندما مات واحد منهم. انقضّ الطاعون عليهم واحدًا تلوَ الآخر. أغمض الموتُ عيني زوجته، معيّنته وسنده، والتي كانت أهمّ من أطرافه بالنسبة إليه، ورفيقته الطيّبة التي لم تقل له إلا خيرًا. شعر العجوز بانسياب معارفه الدنيوية التي درسها طويلًا من بين يديه، لما وقف بين الموتى، وارتفع صوته بالشتائم والسباب. فلا عجب أن يفسّر الناس الحزن الرهيب الذي ضرب العجوز على أنّه جنون.

بدأت البحث متأخّرًا في نهار أحد أيام نوفمبر، وفيه بدأ المطرُ باكرًا بالهطول بشدّة، والريح الكئيبة بالهبوب. لمّا انطلقت من باب المنزل، رأيت ميريفال أو شبحه بالأحرى، مفجوعًا واهنًا. مرّ متخطّيًا إيّاي وجلس على عتبة منزله. فرّق النسيم خُصله البيضاء عن وجهه، وبلّل المطرُ رأسَه الحاسر، وجلس مخفيًا وجهَه بين كفّيه المجعدين. ضغطتُ على كتفه لأوقظَ انتباهه، إلا أنه لم يحرّك ساكنًا. قلت له، "ميريفال، مرّ وقتٌ طويلٌ مذ رأيناك. ينبغي أن تأتي إلى وينزر معي. السيدة آيدرس ترغب برؤيتك؛ لا أحسبك ترفض طلبا لها. تعال معي إلى المنزل".

أجاب بصوت كئيب، "لمَ تحاولُ خداعَ رجلٍ عجوز؟ لمَ تحاولُ التملّق إلى شخص يوشكُ على الجنون؟ وينزر ليست منزلي. منزلي الحقُّ هو ما أَعَدّ لي خالقي".

هزتني نبرته الساخطة. تابع، "لا تحاول التحدث إلي، فكلماتي سوف تجزعك. جرؤت على التفكير وسط عالم من الجبناء، وفي المقبرة ووسط ضحايا الطاغية القاسي، جرؤت على تقريع القدر. بأيّ شيء سيعاقبُني؟ ليرفعَ ذراعَه ويشلّني بصاعقة، فتلك من صفاته أيضًا". ثم ضحك العجوز.

قام، فتبعته وسط المطر إلى مقبرة قريبة، ثم ألقى بنفسه على الأرض المبلّلة. صاح، "ها هم هنا، الكائنات الجميلة المحبّة الناطقة. تلك التي ما فتئت عن حبّ شبابها الذي أتلفه المشيب، أولئك البضع منّي، أطفالي، ها هم هنا. نادهم واصرخ بأسمائهم طوال الليل، لن يجيبك أحد منهم!" تعلّق بالكومات الصغيرة الدالّة على قبورهم. "لست أخشى جحيمه، فالجحيم ما أنا فيه الآن، ولستُ أرغب بجنّته؛ إنّما أطلبُ أمرًا واحدًا، أن أموت وأدفن بجانبهم. دعني، حين أموت، أشعر بلحمي وهو يختلط بلحمهم". نهض بصعوبة وأمسك بذراعي، "عدني بأن تدفنني بينهم".

أجبت، "ليعنّي الربُّ وأسرتي على ما أعدّ. لكن تحتَ شرطٍ واحد، ألا وهو أن تعودَ معي إلى وينزر".

قال صارخا، "إلى وينزر! لن أبرح هذا المكان أبدًا! عظامي، لحمي، ونفسي كلّها مدفونة هنا، وما ترى منّي إلا طينًا متعفّنًا مثلهم. سأظل هنا متشبّثا بهذا المكان، إلى أن يحيلنيَ المطرُ والبرد والصواعق والعواصف إلى عنصر واحد معهم".

سأختم هذه الحديث ببضع كلمات. اضطررت لمغادرة لندن، وتكفّل أدريان بالعناية به. سرعان ما تمّ له الأمر الذي أراد، فقد

اتّحد كبرُ سنّه وحزنه وقسوة الجوّ، ليخرسوا معاناته ويسكنوا الراحة في قلبه الذي كان ينبض بالألم. مات معانقًا للتراب الذي أهيل على صدره لما وُرِيَ بجانب أولئك الذين ندم أشدَّ الندم على فراقهم.

عدت إلى وينزر نزولًا عند رغبة آيدرس، التي ظنّت أنّ سلامة أطفالها أكبرُ في ذلك المكان؛ ولأنّني بعد أن تنسّمت رعاية ذلك القطاع لم أكن لأتركه ما دام فيه إنسان حيّ. أردت أيضًا أن أنفذ خطط أدريان التي نصّت على جمع الناجين من السكّان. فقد آمن بأنّ الأمل الوحيد في نجاة البشرية يكمن في فعل الخير والتكافل الاجتماعي.

كان أمرًا كئيبًا أن نعود إلى تلك البقعة العزيزة علينا، ومسرح سعادتنا الفائتة، لنرقب فناء جنسنا، ونقتفيَ أثر الطاعون الذي لا يمحَى في أرضنا الخصبة الغالية. تغيّرت أحوال البلاد، فصار من المستحيل أن نعمل على بذر الأرض، أو أي من أعمال الخريف الأخرى. انصرم الخريف، وانقضّ الشتاء فجأة ببرودة شديدة غير معهودة. وأسفر ذوبان الجليد عن الفيضانات، مما جعل السفر مستحيلًا في البلاد. بدا المشهد كالقطب الشمالي لشدّة هطول الثلج. برزت سطوح المنازل على استحياء من الغطاء الأبيض.

وامتلأ الكوخ الخاوي والقصر المهجور بالثلج، وكذلك غصّت العتبات. حطّم البرد النوافذَ، بينما جعلت الرياح شمال الشرقية أيّ نشاط خارجي أمرًا في غاية الألم. صارت تلك التغيّرات الجوّية مصادر أعظم للبؤس، بسبب الحال الذي كنّا عليه. فلم نكن ننعم ببذخ القيادة والانصياع للأوامر. صحيح أنّ أساسياتِ الحياة كانت مكدّسة بكميّات هائلة، بما يزيد عن حاجة أعدادنا المتناقصة. إلا أنّ الأمر لم يكن ليتمّ من دون وجود العمالة اللازمة لترتيبها، فقد كانت موادَّ خامًا. ولمّا أكأبنا المرضُ وخِفنَا المستقبل، لم يعد بنا من طاقة ولا جسارة للانخراط في أيّ نظام.

لم أكن أعاني من نقص في الحيوية. إلا أنّ الروح النشطة التي نبضت في عروقي وأقامت جسدي، لم تقدني إلى الانشغال في أعمال الحياة، بل إلى إعلاء وضاعتي وإسباغ هالة من التعظيم على سفاسف الأمور. فصار عبثي أمرًا مهمّا واجبَ الإنفاذ، وقادَ الطيشُ أهوائي، وخلع ذهني على الطبيعة وتقلّباتها صفات القداسة. تربّعت روح الأساطير الإغريقية في قلبي، فتحديت العوالي من الأرض، والغابات والجداول...

رأيت برتيوس يبرز من البحر

وسمعت تريتون ينفخ في بوقه الملوي

من الغريب أنّه بينما ظلّت الأرض على حالها الرتيب، عشت في عجبٍ متجدّدٍ متأمّلًا قوانينَها العتيقة. كان ينبغي لتلك السكرة أن تزول، لمّا صحوت على اندفاع الأرض الغريب في طريق غير مألوف؛ إلا أنّ الوهنَ والقنوط استحكما بي كالضباب، فاختنقت بهما. قد تكون تلك ردّة فعل طبيعية تجاه هدوء الشتاء والأعمال الوضيعة التي جاءت معه، بعد متع الصيف الكثيرة، ممّا يجعل كره الشتاء مضاعفًا. لم يكن الطمع ما منح الحياة والتفرّد لكلّ لحظة، ولم يكن الألم الناجم عن رزايا الأيام. فقد سلَب انعدام الفائدة من كلّ مجهودٍ إثارته التي كنت أشعرُ بها عادة، وأجهض اليأس حثّ المرء لنفسه. تقت إلى العودة إلى سابق أعمالي، ولكن ما الجدوى منها؟ كانت القراءة عقيمة، والكتابة بلا طائل. صارت الأرض فضاءً خاويًا، بعدما كانت سيركًا عظيمًا من المآثر الجليلة، ومسرحًا للاستثنائي من الحياة. لم يعد هناك من حاجة للممثل أن يقول، ولا للمشاهد أن يسمع.

كانت وينزر، بلدتنا الصغيرة، مظهرًا للكآبة، حيث كانت المركز الرئيس لاحتشاد الناجين من المقاطعات المجاورة. سدّ الثلج شوارعها، وبدا أنّ المسافرين القلّة تجمّدوا من شدّة برد الشتاء. كان هدفنا الرئيس وجلّ أعمالِنا أن نتملّصَ من ذلك الشرّ.

تحلّق أبناء النسب والمكانة العاليين حول النيران، ممّن كانوا من ذوي المال والصحة والشباب، بعدما أكلهم الموتُ وأشابَ الهمُّ قلوبهم؛ وحلّت الأنانية والخسّة فيهم جرّاء ما قاسوا. كان لازمًا أن ينخرطَ الجميعُ في العمل مع غياب الخدم. فتعجن اليد التي لم تعرف العجن من قبلُ، ويتّخذ رجالُ الدولة المرموقون، وحاشية البلاط المعطّرين مكان الجزّارين. صار الأغنياء والفقراء سواء، أو بشكل أدقّ ارتفع الفقراء مكانة؛ فقد أدّوا تلك الأعمال بسرعة وخبرة، بينما أخلف الجهل والرقّة واعتياد الراحة عِليّة القوم تعبًا ووصبًا. فكان ذلك مثارَ سخطٍ واستياء لمن اعتادوا الانشغال بالأمور الفكرية، وعدّوا عدم انشغالهم بالأمور الدنيا من قبل مزية تفرّدهم.

لكن هناك خيرًا في كلّ تغيير، وبإمكان المحبّة أن تجد مكانًا وسط التعب. كان ممّا أنتج ذلك التغيّر في الأحوال تفانيًا وتضحية لبقين وبطوليين. كان منظرًا يسرُّ كلّ من أحبّ الجنس البشري؛ أن يرى كما في الأيام الخوالي، العاطفة الأبوية والأخوية تحرّكان الجميع لأداء واجباتهم بحبّ. عمل الشباب من نبلاء البلاد في سبيل أمهاتهم وأخواتهم في وضيع الأعمال ببهجة وأنس. انطلقوا إلى الأنهار لكسر الجليد وجلب الماء، وكانوا إمّا مجاميع

للبحث عن الطعام، أو مُعمِلين فؤوسَهم في الأشجار لوقود النار. استقبلتهم الإناث عند عودتهم بترحابٍ لطيفٍ اتسمت به أكواخُ الفقراء فقط من قبل، وموقد مرتب ونار دافئة.

لم يكتسِ أحدٌ في تلك الظروف بتواضع أكثر جمالًا ونبلًا، وزان لتلك الأفعالِ بلونٍ حالمٍ، مثل كلارا. عرفت القنوط الذي تملكني والهموم التي انتهبت آيدرس. فكان شغلُها الشاغل إراحتنا من أيّ عمل، وأن تنشرَ الراحة، بل حتّى الأنس، على حالنا الذي صرنا إليه. كان لا يزالُ عندنا بعضُ الخدم الذين نجَوا من الطاعون، والذين آثروا بمحبّة البقاء معنا. إلا أنّ كلارا كانت شديدة الغيرة من خدمتهم لنا. كانت وصيفة لآيدرس، والراعية الوحيدة لأبناء خالها الصغار. ولم يكن شيء أسرّ إليها من أن نسألها خدمة ما. بل تخطّت ما احتجنا منها، فكانت مخلصةً بكدِّها قائمة بلا تعب...

أبرا متأهبة قبل أن ننادي اسمَها

وتحضر أبرا، ولو نادينا غيرَها

كان من شأني أن أطلّ كلّ يوم على العوائل الكثيرة المجتمعة في بلدتنا، وحين كان الجوُّ يسمح بذلك، كنت أطيلُ ركوبي لأتأمّلَ وحيدًا ما طرأ على أحوالنا، مستعينًا بدروس الماضي للتخطيط

للمستقبل. كانت الوَحدة مهدّئًا وملطفًا لهلعي الناجم عمّا كنت أرى من فتك الطاعون ببني جنسي. ومن غريب الأمر أنّني حين كنتُ أتفكّر بالمصاب بمثابة كارثة عامة، كان الألم أقلَّ من التفكير بمصاب فردٍ ما. هكذا كنت كثيرًا ما أقطع بصعوبة شوارع البلدة الضيّقة المسدودة بالثلج، عاديًا الجسر إلى أيتون. خلا مدخل المدرسة من جمع الشبّان النبلاء الذين كانوا يحتشدون أمامه؛ وخيّم الصمت على فصول المدرسة وساحاتها بعدما كانت تضجّ بأصوات اللعب والمرح. أطلتُ الركوب حتّى بلغت سالت هيل، والثلج يحفّني من كلّ جانب. أين القيعانُ الخصبة التي أحببت؟ أهذه أبدال ذلك النجد الرائض والسفح الأخضر المكتسي بالحنطة المتمايلة، والأشجار المهيبة، والمسقي من نهر التايمز المتعرّج؟ كساها غطاءٌ أبيضُ أوحد، بينما ذكّرني عقلي بأنّ قلوبَ أهلِها هامدةٌ باردةٌ، كبردِ الشتاء الذي يلفُّ الأرض. رأيت قطعانًا من الخيل والبقر والأغنام، تجول كما تشاء. طرح بعضُها كومة من التبن ولاذ إلى وسطها، فكانت له ملجأ ومطعمًا. وآخرون اتخذوا الأكواخ الخالية نزلًا. دفعني انشغالٌ فكريّ في أحد الأيام شديدة البرد إلى قصد كوخ مفضّل عندي، في غابة غير بعيدة عن سالت هيل. أحاط بالمكان جدولٌ ثرثارٌ من جانب، وعدد قليل من أشجار الدرار والزان من جانب آخر. بالكاد استحقّ المكان صفة الغابة،

ومن ذلك كان له ذلك. كان لتلك البقعة سحرٌ خاصٌّ بالنسبة لي. إذ كانت المنتجع المفضّل لأدريان. كان مكانًا منعزلًا، وكثيرًا ما كرّر أدريان أن أسعد أوقاته في صباه كانت هنا. فقد كان المكان مهربًا له من سطوة أمّه. كان يجلس على الدرج المصقول الخشن، المؤدّي إلى الجدول، ساعة يقرأ في كتاب محبّب إليه، وساعة متأمّلًا في أفكار تفوق سنّه، محاولًا فكّ ألغاز الأخلاق والعلوم. أوحى لي هاجس كئيب بأنّي لن أرى هذا المكان مجدّدًا. لذا أخذت أدوّن بحرص شديد مكان كلّ شجرة وانعطافة في الجدول واختلاف في الأرض، لكي أستحضره في غيبته بدقّة أكبر. هوى طائر أبو حناء من فوق أغصان الأشجار الصقيعة، وسقط على الجدول المتجمّد. بدا من صدره اللاهث وفتور عينيه أنه يحتضر. لاح صقر في السماء، فأخذ الطير الصغير رعب مفاجئ. بذل آخر ما به من قوة لينقلبَ على ظهره، ويرفعَ مخالبَه في دفاع غيرِ ذي جدوى أمام عدوّه القوي. رفعته من مكانه وقربته إلى صدري. أطعمته بعضًا من فتات الكعك فاستعاد عافيته إلى حدّ ما، ونبض قلبُه الدافئ بارتباك بين يدي. لست أدري لماذا أسردُ هذه الواقعة التافهة، إلا أنّ ذلك المشهد لا يزال ماثلًا أمامي. الأرض المغطّاة بالثلج، جذوع الـدَّرْدار الفضّية، والجدول المختنق بالجليد، بعدما كان يجري في أيام السعد بماء رقراق؛ صورة أوراق أشجار

الصيف وقد كستها يدُ الشتاء بصقيع أشيب، السماء القاتمة، البرد الموحش، والصمت المطبق، بينما استلقى الصغير المريش على صدري ناطقًا بسروره بتغريدةٍ لطيفة. دهمتني أفكارٌ مؤلمةٌ وخزت عقلي مثيرة فيه الاضطراب. كالثلج الغامر لهذه الأرض، عمّنا الموتُ، وضرب الدمارُ في أصقاع أهل هذه البلاد. لأيّ شيءٍ ينبغي عليّ أن أقاومَ سيل الخراب الذي جرفنا؟ لأيّ سببٍ ينبغي لي أن أجدّد جهدي وهِمّتي الواهنة؟ لأيّ شيء؟ سوى أن تعينني شجاعتي ويدي أن أحمي من اخترت الحياة معها في ربيع عمري. على نبض قلبي الطافح بالألم، وأملي الحالك بالمستقبل، لن أعلن استسلامي ولن يهدأ كفاحي، ما دام رأسك العزيز يسكن على صدري، وما دمت تستمدّ منه الراحة والأمل.

في أحد أيام نوفمبر الرائقة، حين نشرت الشمس شيئًا من أشعّتها الطيّبة جلت وعائلتي في الغابة. كان واحدًا من أيام الشتاء الجميلة التي أكّدت مقدّرة الطبيعة على إضفاء الجمال على الخراب. مدّت الأشجار أغصانها العارية في السماء الصافية، وبدت في تشابكها المقعد كطحالب البحر. بينما قلبت الأيائل الثلج بحثًا عن الطعام. زادتِ الشمسُ بياضَ الثلج جهرًا، ظهرت جذوع الأشجار أكبر حجمًا لعريها من الأوراق، وكانت في

اصطفافها كأعمدة هيكل فسيح. كان من المستحيل ألّا يصيبَ المرءُ لذّة من منظر تلك الأشياء. انطلق أبناؤنا أمامنا وقد تحرّروا من قبضة الشتاء، إمّا في طراد للأيائل، أو مثيرين لطيور التدرّج والحجل من مكامن. انثنت آيدرس على ذراعي وقد انجلى عنها الحزن في لحظة السرور تلك. رأينا عوائل أخرى على الطرق، وهم يستمتعون مثلنا بعودة الجوّ الطيّب. أحسستُ بأنّني أفقت بالكامل، وطرحتُ عن نفسي كسل الأشهر الماضية الذي تشبّث في. لبست الأرض رونقًا جديدًا، وصارت نظرتي إلى المستقبل صافية فجأة. فهتفت، "وجدت السرّ!"

- "أيّ سرّ؟"

مجيبًا عن هذا السؤال، طفقت أصف حياتنا الشتَوَية الكئيبة، وقذارة محيطنا وأعمالنا: "هذا البلد الشمالي لا يصلح لجنسنا المتضائل. لما كان البشر قلّة لم يقارعوا عوامل الطبيعة هنا، وينطلقوا من هذا المكان ليملأ الكوكب. ينبغي أن نبحث عن فردوس طبيعي، جنّة في الأرض، حيث تلبّي احتياجاتنا المتواضعة بسهولة، ويعوّضنا الجوّ الماتع عمّا فقدنا من حياة اجتماعية. إن نجونا في الصيف القادم، فلن أنتظر بدأ الشتاء في إنجلترا، لا أنا ولا أنتم".

تكلّمت بغير كثير وعي، وأثار ختامي لما قلت أفكارًا أخرى. أسيظلُّ أحدٌ منّا على قيد الحياة في الصيف القادم؟ رأيت وجه آيدرس مغتمًّا، وشعرت من جديد بأنّنا مقيّدون بالقدر الذي لا سلطة لنا عليه. ليس لنا أن نقولَ بأنّا سنفعل هذا ونترك ذاك. فهناك قوّة أشدّ وأعتى من الإنسان تتربّص بنا، لتدمّر خططنا وتنفذ فينا ما نحاول أن نتفاداه. كان جنونا أن ننشغلَ بحسابات شتاء آخر. فهذا شتائنا الأخير. ما الصيف القادم إلا أقصى نهاية في أفقنا الضيق، وما إن نبلغه حتى يتثاءب شقّ نُقذف فيه قهرًا، بدلًا من أن نستمرَّ في طريق الحياة الطويل. انتزعت منا آخر بركات الإنسانية، وما عاد لنا أن نأملَ بشيء. أيأمل المجنون وهو يصلصل قيوده؟ والبائس الراكع على منصّة الإعدام، الذي يرى ظلّه وظلّ الجلّاد الرافع للفأس، أيستطيع أملًا؟ وبحار السفينة المحطّمة، المنهك من السباحة، والسامع انشقاق الماء عن زعانف القروش المطاردة له في الأطلسي، أيأمل؟ مالنا من الأمل إلا لما أولئك!

تقول الأسطورة القديمة بأنّ الأمل، هذه الروح اللطيفة، قفزت من صندوق بندورا الغاصّ بالشرور. تلك الشرور لم تكن شيئًا يُذكر أو يُشعر، لذا فرح الجميع بروح الأمل الرائعة. فصار كلُّ قلبٍ منزلًا له، وصار السيد المتوّج في حياتنا الدنيا والآخرة. مُجِّد

الأمل وعُبد، وقيل إنّه أبدى لا يناله الفناء. لكن، ككلّ نعم الإله على الإنسان، كان الأملُ فانيًا، وبلغت روحه ساعتها الأخيرة. قمنا عليه وطببنا روحه المرتعشة، إلا أنّه هوى دفعة واحدة من الشباب إلى العجز، ومن الصحّة إلى سقم لا شفاء منه. ومع كلّ ما بذلنا من أنفسنا ليشفى إلا أنّه مات. فصاحت الأممُ جميعًا بصوتٍ واحدٍ، مات الأمل! ما نحن إلا ثكالى في موكب جنائزي. وأيّ كائنٍ فانٍ سيمتنع عن إقامة موكبٍ يحملُ بين جنباته مغزي البشرية إلى القبر؟

أوَلا تنكس الشمس في حضرته؟
ويتلاشى النهار كزفرة واهية
فيطويان أشعتهما بالغيوم
وينزلان مع الثكالى في العزاء

انتهى الكتاب الثاني ويليه الكتاب الثالث.

ماري شيلي

الإنسان الأخير

الطاعون

بعد أن قرر ريموند الذهاب لأثينا من أجل المشاركة في الحرب الوشيكة بين الأثينيين والأتراك، والمجد الذي طالما ركض خلفه، يلحق به ليونيل من أجل الصداقة، وأخته زوجة ريموند التي لا دافع لها سوى الحب والندم.

ولكن أين ريموند؟

تفجرت مأساة بين أفراد أسرته التي لحقت به، وخاف الجيش الأثيني من بطش الأتراك بعد أن تمكنوا من قائد جيوشهم وألقوه في الحبس.

تستمر ملحمة الحب والصراع من أجل الرفعة والشرف في الكتاب الثاني من هذه الرواية النفيسة. وتطاولت عبر الحدود والزمن إلى المدى الذي عمّ العالم، آخذة بمشاعر القارئ يمنة ويسرة، صوب سعادة اللقاء، ورعب الفقد... إلى أن نزل الموت.

ولم يكن مثل أي موت.

-الناشر.

ISBN
9 789921 712209

دار الخان للنشر والتوزيع

@DarAlkhan_kw Info@daralkhan.com

جميع الحقوق محفوظة